الرسالة الوجودية

في معنى قوله صلى الله عليه وسلم:

«من عرف نفسه فقد عرف ربه»

وليه

شجون المسجون وفنون المفتون

وليه

تهذيب الأخلاق

وليه

مراتب علوم الوهب

وليه

رسالة اللمعة

الموسومة بـ «كشف الغطاء عن إخوان الصفا»

وليه

رسالة في أسرار الذات الإلهية

وليه

نسخة الحق

وليه

رسالة كشف السر لأهل السر

وليه

رسالة الوقت والآن

وليه

رسالة المعلوم من عقائد أهل الرسوم

وليه

رسالة الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني

كلها تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد
ابن عربي الحاتمي
المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى بها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
المسنين الشاذلي الدرقاوي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الرسالة الوجودية

في معنى قوله صلى الله عليه وسلم:
«من عرف نفسه فقد عرف ربه»

ويليه

شجون المشجون وفنون المفتون

ويليه

تهذيب الأخلاق

ويليه

مراتب علوم الوهب

ويليه

رسالة اللمعة

الموسومة بـ"كشف الغطاء عن إخوان الصفا"

ويليه

رسالة في أسرار الذات الإلهية

ويليه

نسخة الحق

ويليه

رسالة كشف السر لأهل السر

ويليه

رسالة الوقت والآن

ويليه

رسالة المعلوم من عقائد أهل الرسوم

ويليه

رسالة الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني

كلها تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن عربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى بها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي القادري

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved ©
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو ادخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٤م-١٤٢٥هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف شارع البحتري بناية ملكارت
الادارة العامة: عرمون - الفتية - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٠٠٩٦١ ٥)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4593-2

9 782745 145932 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

تقديم

والحمد لله رب العالمين، مالك يوم الدين، الحكم العدل، الباطن في الدنيا والظاهر في الأخرى، الأول في الأزل بلا بداية، والآخر في الأبد بلا نهاية، والخالق من العدم على غير مثال سبق، والفعال لما يريد عن غير علّة أو وجوب أو عوض أو غرض. الوجود الحقيقي المطلق المستغني عن كل ما سواه والمفتقر إليه كل ما عداه، والمتصف بكل كمال والمنزَّه عن كل نقص، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، كان ولا زمان ولا مكان ولا جهات وهو الآن على ما عليه كان، الحي القيوم على كل ذرة من ذرات الوجود، القريب بلطفه والبعيد بقهره والبصير بكل شيء بمعيته له معينة تغنيه عن نفسه وتبقيه بحقه.

والصلاة والسلام على الرحمة المهداة إلى عوالم الملك والملكوت والجبروت، المتحنث في غار حراء استعداداً للتجليات الجمعية الذاتية القرآنية، والتجليات الفرقانية الأسمائية والصفاتية، برزخ الوحدة والكثرة، والأنموذج الجامع للحقائق الحقية والخلقية، والقدوة الحسنة للإنسان الخليفة في الأرض ناسوت جسمه وسماء ملكوت نفسه وقلبه وعقله، وحقيقة لاهوت روحه وسره بما بعث له به من الدين الكامل: الإسلام والإيمان والإحسان، إظهاراً للتعينات العلمية على مقتضى الاستعداد والقوابل الإمكانية، بحسب القبضة القدرية الجلالية، والقبضة القدرية الجمالية بحكم الشؤون الكمالية.

وبعد، فنقدّم للقراء الكرام في إطار كتب التصوف الإسلامي التي نقوم بتحقيقها وتنقيحها وتصحيحها ونشرها بأبهى حلّة خدمة لمقام الإحسان؛ الركن الثالث من أركان الدين الإسلامي الكامل، مجموعة من رسائل الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر محيي الدين محمد بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي في علم الحقائق الإلّهية والدقائق الربانية والرقائق الروحانية وهي التالية:

١ ـ الرسالة الوجودية، ٢ ـ شجون المسجون وفتون المفتون، ٣ ـ تهذيب الأخلاق، ٤ ـ مراتب علوم الوهب، ٥ ـ اللمعة الموسومة بكشف الغطا عن إخوان الصفا، ٦ ـ في أسرار الذات الإلهية، ٧ ـ نسخة الحق، ٨ ـ كشف الستر لأهل السر، ٩ ـ الوقت والآن، ١٠ ـ المعلوم من عقائد أهل الرسوم، ١١ ـ الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني.

ومما لا شك فيه أن كتب التصوّف الإسلامي تساعد المُريد على الاطّلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطّلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقّق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالِم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، الشريعة والطريقة والحقيقة، المُلْك والملكوت والجبروت؛ مصداقاً لقوله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**» وقوله ﷺ: «**إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم**».

ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبَّدنا لله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩] لننال السعادة الحقيقية المتمثّلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

هذا وإتماماً للفائدة وحرصاً منا على حسن اعتقاد قارىء الكتاب بمؤلفه الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي سننشر عقيدته كاملة كما ذكرها في مقدمة كتابه «الفتوحات المكية».

كتبه الشيخ الدكتور
عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة ابن عربي(*)

نسبه

هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي من ولد عبد الله بن حاتم أخي عديّ بن حاتم من قبيلة طيّ مهد النبوغ والتفوق العقلي في جاهليّتها وإسلامها. يكنى أبا بكر ويلقب بمحيي الدين، ويعرف بالحاتمي وبابن عربي لدى أهل المشرق تفريقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي.

مولده ونشأته

ولد في يوم الاثنين السابع عشر من رمضان عام خمسمائة وستين هجرية الموافق ٢٨ يولية سنة ألف ومائة وخمس وستين ميلادية في مدينة «مرسية» بالأندلس، وهي مدينة أنشأها المسلمون في عهد بني أمية. وكان أبوه علي بن محمد من أئمة الفقه والحديث، ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف. وكان جده أحد قضاة الأندلس وعلمائها، فنشأ نشأة تقيّة ورعة نقيّة من جميع الشوائب الشائبة. وهكذا درج محيي الدين في جو عامر بنور التقوى، فيه سباق حر مشرق نحو الشرفات العليا للإيمان، وفيه عزمات لرجال أقوياء ينشدون نصراً وفوزاً في محاريب الهدى والطاعة.

(*) مقتبسة من بحث للدكتور محمد غلاب بعنوان «المعرفة عند محيي الدين بن عربي» ضمن «الكتاب التذكاري لمحيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده» الصادر عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٩ م.

وانتقل والده إلى إشبيلية، وحاكمها إذ ذاك السلطان محمد بن سعد، وهي عاصمة من عواصم الحضارة والعلم في الأندلس، وفيها شب محيي الدين ودرج. وما كاد لسانه يبين حتى دفع به والده إلى أبي بكر بن خلف عميد الفقهاء، فقرأ عليه القرآن الكريم بالسبع في كتاب «الكافي»، فما أتم العاشرة من عمره حتى كان مبرزاً في القراءات ملهماً في المعاني والإشارات. ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الحديث والفقه، يذكرهم لنا الإمام شمس الدين بن مسدي في روايته عن محيي الدين فيقول واصفاً متحدثاً عن أساتذته الأول: «كان جميل الجملة والتفصيل، محصلاً لفنون العلم أخص تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يلحق، والتقدم الذي لا يسبق، سمع في بلاده في شبابه الباكر من ابن زرقون، والحافظ ابن الجد، وأبي الوليد الحضرمي، الشيخ أبي الحسن بن نصر». ثم لا يذكر لنا التاريخ بعد ذلك شيئاً ذا بال عن شباب محيي الدين، ولا عن شيوخه، ومقدار ما حصل من العلوم والفنون؛ وإنما هو يحدثنا أنه مرض في شبابه مرضاً شديداً. وفي أثناء شدة الحمى رأى في المنام أنه محوط بعدد ضخم من قوى الشر، مسلحين يريدون الفتك به. وبغتة رأى شخصاً جميلاً قوياً مشرق الوجه، حمل على هذه الأرواح الشريرة ففرّقها شذر مذر، ولم يبق منها أي أثر، فيسأله محيي الدين من أنت؟ فقال له: أنا سورة يس.

وعلى أثر هذا استيقظ فرأى والده جالساً إلى وسادته يتلو عند رأسه سورة يس. ثم لم يلبث أن برىء من مرضه، وألقي في روعه أنه معدّ للحياة الروحية، وآمن بوجود سيره فيها إلى نهايتها ففعل.

وفي طليعة هذا الشباب المزهر بفضل ثروة أسرته تزوج بفتاة تعتبر مثالاً في الكمال الروحي والجمال الظاهري وحسن الخلق، فساهمت معه في تصفية حياته الروحية، بل كانت أحد دوافعه إلى الإمعان فيها.

وفي هذه الأثناء كان يتردد على إحدى مدارس الأندلس التي تعلم سراً مذهب الأمبيذوقلية المحدثة المفعمة بالرموز والتأويلات والموروثة عن الفيثاغورية والأورفيوسية والفطرية الهندية. وكانت هذه المدرسة هي الوحيدة التي تدرس لتلاميذها المبادىء الخفية والتعاليم الرمزية منذ عهد ابن مسرة المتوفى بقرطبة في سنة ٣١٩ هـ - ٩٣١ م والذي لم يعرف المستشرقون مؤلفاته إلاّ عن طريق محيي الدين. وكان أشهر أساتذة تلك المدرسة في ذلك القرن ابن العريف المتوفى في سنة ١١٤١ م فلم يره محيي الدين، ولكنه تتلمذ على منتجاته وعلى رواية تلميذه المباشر وصديق محيي الدين الوفي أبي عبد الله الغزال.

ومما لا ريب فيه أن استعداده الفطري ونشأته في هذه البيئة التقية، واختلافه إلى تلك المدرسة الرمزية، كل ذلك قد تضافر على إبراز هذه الناحية الروحية عنده في سن مبكرة وعلى صورة ناصعة لا تتيسر للكثيرين ممن تشوب حياتهم الأولى شوائب الغرائز والنزوات. فلم يكد يختم الحلقة الثانية من عمره حتى كان قد انغمس في أنوار الكشف والإلهام، ولم يشارف العشرين حتى أعلن أنه جعل يسير في الطريق الروحاني بخطوات واسعة ثابتة، وأنه بدأ يطلع على أسرار الحياة الصوفية، وأن عدداً من الخفايا الكونية قد تكشف أمامه، وأن حياته منذ ذلك العهد المبكر لم تعد سوى سلسلة من البحث المتواصل عما يحقق الكمال لتلك الاستعدادات الفطرية التي تنير أضواؤها جوانب عقله وقلبه. ولم يزل عاكفاً على ذلك النشاط الروحاني حتى ظفر بأكبر قدر ممكن من الأسرار. ولم تكن آماله في التغلغل إلى تلك الأسرار وبحوثه عن وسائلها الضرورية تقف عند حد، لأنه أيقن منذ نعومة أظفاره بأنه مؤمن بمبادىء عقيدة حقيقية أزلية مرت بجميع الأزمان الكونية، وطافت بكل الأجناس البشرية متممة ما فيها من نقص وقصور، وأنها جمعت كل الروحانيات في الوحدة الفطرية التي تتمثل من حين إلى آخر في صور تنسكية رفيعة تبدو على مسرح الإنسانية ردحاً من الزمن ثم تختفي، ولا يدرك حقيقتها إلا القليلون.

وأكثر من ذلك أنه حين كان لا يزال في قرطبة قد تكشف له من أقطاب العصور البائدة عدد من حكماء فارس والإغريق كفيثاغورس، وأمبيذوقليس، وأفلاطون ومن إليهم ممن ألقيت على كواهلهم مسؤولية القطبية الروحية في عصورهم المتعاقبة قبل ظهور الإسلام. وهذا هو السبب في أنه قد شغف بأن يطلع على جميع الدرجات التنسكية في كل الأديان والمذاهب عن طريق أرواح رجالها الحقيقيين بهيئة مباشرة، وبصورة مؤسسة على الشرف العلمي الذي يحمل الباحث النزيه على الاعتماد عليه دون أدنى تردد أو ارتياب.

غير أن هذه السكينة الروحانية التي بدأت لدى هذا الشاب مبكرة والتي كانت ثمارها فيما بعد تتمثل في تلك المعرفة التي أشرنا إليها آنفاً، لم تدم طويلاً على حالة واحدة، إذ أنه لم يلبث أن تبين أول الأمر بالإلهام، ثم عن طريق الكشف الجلي أنه لم يعد له بدّ ـ في تلك البيئة المغربية إذ ذاك ـ من أحد أمرين: إما أن يجاري التيار العام الذي كان يحدق به إحداق السوار بالمعصم، وهو أن يتقيد في جميع أفكاره وتعقلاته وأحاسيسه ومشاعره وحركاته وسكناته بحرفية الدين التي لا روح فيها ولا حياة ولا سرّ ولا رمز ولا تأويل، وبهذا تختفي شخصيته الحقيقية وتفشل رسالته

الطبيعية، وهذا شيء لا يستطيعه بأي حال، وإما أن يسير على فطرته وحسب تكوين عقله وقلبه فيصطدم في كل خطوة من خطواته من أهل الحل والعقد في البلاد. وقد حدث ذلك فعلاً حيث احتدمت بينه وبين بعض الأمراء الموحدين مجادلات عنيفة، وحيكت حوله دسائس قوية اتهمته بإحداث اضطراب في سياسة الدولة.

وإذ ذاك رأى في حالة اليقظة أنه أمام العرش الإلٰهي المحمول على أعمدة من لهب متفجر، ورأى طائراً بديع الصنع يحلق حول العرش ويصدر إليه الأمر بأن يرتحل إلى الشرق وينبئه بأنه سيكون هو مرشده السماوي، وبأن رفيقاً من البشر يدعى فلاناً ينتظره في مدينة فاس، وأن هذا الأخير قد أمر هو أيضاً بهذه الرحلة إلى الشرق، ولكنه يجب ألا يرتحل قبل أن يجيء إليه رفيق من الأندلس، فيفعل ما أمر به ويرتحل بصحبة هذا الرفيق.

وفيما بين سنتي ٥٩٧، ٦٢٠ هـ ١٢٠٠، ١٢٢٣ م يبدأ رحلاته الطويلة المتعددة إلى بلاد الشرق فيتجه في سنة ١٢٠١ م إلى مكة فيستقبله فيها شيخ إيراني وقور جليل عريق المحتد ممتاز في العقل والعلم والخلق والصلاح. وفي هذه الأسرة التقية يلتقي بفتاة تدعى «نظاما» وهي ابنة ذلك الشيخ، وقد حبتها السماء بنصيب موفور من المحاسن الجسميّة، والميزات الروحانية الفائقة، فاتخذ منها محيي الدين رمزاً ظاهرياً للحكمة الخالدة، وأنشأ في تصوير هذه الرموز قصائد سجلها في ديوان ألفه في ذلك الحين.

وفي هذه البيئة النقية المختارة له من قبل سطعت مواهبه العقلية والروحية، وتركزت حياته الصوفية، وجعلت تصعد في معارج القدس شيئاً فشيئاً حتى بلغت شأواً عظيماً. ومن ذلك أنه في إحدى طوفاته التأملية والبدنية بالكعبة يلتقي من جديد بمرشده السماوي الذي أمره سالفاً بالهجرة من الأندلس والمغرب إلى الأصقاع الشرقية، فيتلقى منه الأمر أيضاً بتأليف كتابه الجامع الخالد «الفتوحات المكية» الذي ضمنه أكثر وأهم آرائه الصوفية والعقلية ومبادئه الروحية، والذي لا يتطاول إلى قمته في عصره أي كتاب آخر فيما نعلم من إنتاج هذا الصنف من المتنسكين.

وفي سنة ١٢٠٤ م يرتحل إلى الموصل حيث تجتذبه تعاليم الصوفي الكبير علي بن عبد الله بن جامع الذي تلقى لبس الخرقة عن الخضر مباشرة، ثم ألبس محيي الدين إياها بدوره.

وفي سنة ١٢٠٦ م نلتقي به في القاهرة مع فريق من الصوفية الذي يطبقون حياة تنسكية قوية محافظة. وهنا يظهر له رائد سماوي يأمره بإدخال شيء من الكمال على مذهبه، ولكنه لا يكاد يفعل حتى يتنمر له عدد من الفقهاء يحيكون حوله وحول أصحابه شباكاً من الدسائس تهدّد اطمئنانهم بل حياتهم، ولولا نفوذ أحد أصدقائه لوقع في ذلك الخطر، ولكنه لحسن حظه يستطيع أن ينجو بنفسه ويفر إلى مكة في سنة ١٢٠٧ م فيلتقي فيها بأصدقائه القدماء الأوفياء، ويقيم بينهم في هدوء وسكينة نحو ثلاثة أعوام، ثم يرتحل إلى قونية بتركيا حيث يتلقاه أميرها السلجوقي باحتفال بهيج.

وهناك يتزوج بوالدة صدر الدين القونيوي، وهو أحد تلاميذه المفضلين ثم لا يلبث أن يرتحل إلى أرمينيا، ومنها إلى شاطىء الفرات.

وفي سنة ١٢١١ م نلتقي به في بغداد حيث يتصل بالصوفي المعروف شهاب الدين عمر السهروردي.

وفي سنة ١٢١٤ م يعود إلى مكة ولا يكاد يستقر فيها حتى يجد أن عدداً من فقهائها المنافقين الدساسين قد جعلوا يشوهون سمعته ويرمونه بأن قصائده التي نشرها في ديوانه الرمزي منذ ثلاثة عشر عاماً كانت تصور غرامه المادي الواقعي بالفتاة «نظام» ابنة صديقه الشيخ الإيراني التي أشرنا آنفاً إلى أنه اتخذ منها رمزاً نقياً للحكمة الخالدة. وعندما تبيّن هذه التهمة الرخيصة وعرف مصادرها الحقيقية حمل عليها وعلى واضعيها حملة قوية كشفت زيفها للجميع بصورة جعلت القائمين بها يعترفون بأخطائهم ويعتذرون إليه عنها.

وبعد ذلك يرتحل إلى حلب فيقيم بها ردحاً من الزمن معززاً مكرماً من أميرها. وأخيراً يلقي عصا التسيار في دمشق في سنة ١٢٢٣ م حيث كان أميرها أحد تلاميذه المؤمنين بعلمه ونقائه ويظل بها يؤلف ويعلم، ويخرج التلاميذ والمريدين يحوطه الهدوء وتحف به السكينة حتى يتوفى بها في ٢٨ ربيع الثاني من سنة ٦٣٨ هـ الموافق ١٦ نوفمبر من سنة ١٢٤٠ م.

مؤلفاته وشيوخه(*)

قال الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني في كتابه «جامع كرامات الأولياء» ضمن ترجمته للشيخ ابن عربي:

وقد اطلعت له على إجازة أجاز بها الملك المظفر ابن الملك العادل الأيوبي، ذكر فيها كثيراً من مشايخه ومؤلفاته، ولتمام الفائدة أذكرها هنا بحروفها فأقول: قال رضي الله عنه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، وبه نستعين: أقول وأنا محمد بن عليّ بن العربي الطائي الأندلسي الحاتمي، وهذا لفظي: استخرت الله تعالى، وأجزت السلطان الملك المظفر بهاء الدين غازي، ابن الملك العادل المرحوم إن شاء الله تعالى أبي بكر بن أيوب وأولاده، ولمن أدرك حياتي الرواية عني في جميع ما رويته عن أشياخي، من قراءة وسماع ومناولة وكتاب وإجازة، وجميع ما ألفته وصنفته من ضروب العلم، وما لنا من نثر ونظم على الشرط المعتبر بين أهل هذا الشأن، وتلفظت بالإجازة عند تعبيري هذا الخط، وذلك في غرة محرم سنة ٦٣٢ بمحروسة دمشق وكان قد سألني في استدعائه أن أذكر من أسماء شيوخي ما يتسر لي ذكره منهم، وبعض مسموعاتي، وما تيسر من أسماء مصنفاتي، فأجبت استدعاءه نفعه الله تعالى بالعلم، وجعلنا وإياه من أهله، إنه وليّ كريم.

فمن شيوخنا أبو بكر بن أخلف اللخمي، قرأت عليه القرآن الكريم بالقراءات السبع بكتاب الكافي لأبي عبد الله محمد بن شريح الرعيني في مذاهب القراء السبعة المشهورين، وحدثني عن ابن المؤلف.

ومن شيوخنا في القراءة أبو الحسن شريح بن محمد بن محمد بن شريح الرعيني، عن أبيه المؤلف.

(*) انظر جامع كرامات الأولياء للشيخ يوسف النبهاني (ج ١ ص ١٦٣ ـ ١٦٩).

ومن شيوخنا في القرآن أيضاً أبو القاسم عبد الرحمٰن بن غالب الشراط، من أهل قرطبة، قرأت عليه أيضاً القرآن الكريم بالكتاب المذكور وحدثني أيضاً عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح عن أبيه المؤلف محمد بن شريح المقري.

ومن شيوخنا القاضي أبو محمد عبد الله البازلي قاضي مدينة فاس، حدثني بكتاب «التبصرة في مذاهب القراء السبعة» لأبي محمد مكي المقري عن أبي بحر سفيان ابن القاضي، عن المؤلف بجمع تآليف مكي أيضاً، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي حمزة، سمعت عليه كتاب التيسير في مذاهب القراء السبعة لأبي عمرو عثمان بن أبي سعيد الداني المقري، حدثني به عن أبيه عن المؤلف وبجميع تآليف الداني وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد بن دربون، سمعت عليه كتاب البقعي لأبي عمر يوسف بن عبد البر النميري الشاطبي، وحدثني به عن أبي عمران موسى بن أبي بكر ابن المؤلف وبجميع تآليفه مثل الاستذكار، والتمهيد، والاستيعاب، والانتقاء، وأجاز لي إجازة عامة في الروايتين، أجاز لي أن أرويه عنه وجميع تآليفه.

ومن شيوخنا المحدث أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الإشبيلي، حدثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعين لي من أسمائها تلقين المبتدي، والأحكام الصغرى والوسطى والكبرى، وكتاب العاقة ونظمه ونثره، وحدثني الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح، عنه.

ومن شيوخنا عبد الصمد بن محمد بن محمد بن أبي الفضل الحرستاني، سمعت عليه صحيح مسلم حدثني به عن الفراوي عن عبد الغفار الجلودي، عن إبراهيم المروزي عن مسلم، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا يونس بن يحيى أبي الحسن العباسي الهاشمي، نزل مكة سمعت عليه كتباً كثيرة في الحديث والرقائق، منها كتاب صحيح البخاري.

ومن شيوخنا المكيين أبو شجاع زاهد بن رستم الأصفهاني إمام المقام بالحرم، سمعت عليه كتاب الترمذي لأبي عيسى، حدثني به عن الكرخي عن الخزاعي المحبوبي عن الترمذي، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا البرهان نصر بن أبي الفتوح بن عمر الحصري إمام مقام الحنابلة بالحرم الشريف، سمعت عليه كتباً كثيرة منها السنن لأبي داود السجستاني، حدثني

بها، عن أبي جعفر بن عليّ بن السمناني، عن أبي بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب، عن أبي عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي البصري، عن أبي علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي، عن أبي داود، وأجاز لي إجازة عامة. وحدثني بكتب ابن ثابت الخطيب عن أبي جعفر السمناني.

ومن شيوخنا سالم بن رزق الله الإفريقي، سمعت عليه كتاب المعلم بفوائد مسلم للمازري، حدثني به عنه وبجميع مصنفاته وتآليفه، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا محمد أبو الوليد بن أحمد بن محمد بن سبيل، قرأت عليه كثيراً من تآليفه، وناولني كتاب «نهاية المجتهد وكفاية المقتصد» والأحكام الشريفة من تأليفه.

ومن شيوخنا أبو عبد الله بن العزي الفاخري، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا أبو سعيد عبد الله بن عمر بن أحمد بن منصور الصفا، حدثني بكتب الواحدي كتابة عبد الجبار محمد بن أحمد الحواري عنه.

ومن شيوخنا أبو الوابل بن العربي، سمعت عليه سراج المهتدين للقاضي ابن العربي ابن عمه، حدثني به عنه، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا أبو الثناء محمود بن المظفر اللبان، حدثني بكتب ابن خميس عنه.

ومنهم: محمد بن محمد بن محمد البكري، سمعت عليه رسالة القشيري، وحدثني بها عن أبي الأسعد عبد الرحمٰن بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن القشيري، عن جده عبد الكريم، المؤلف، وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: ضياء الدين عبد الوهاب بن علي بن علي بن سكينة شيخ الشيوخ ببغداد، أجازني إجازة عامة، وأخذ عني وأخذت عنه، وسمعت عليه بمدينة باب السلام بحضور ابنه عبد الرزاق.

ومنهم: أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني القزويني، حدثني بتآليف البيهقي وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: أبو طاهر السلفي الأصبهاني، أجازني إجازة عامة، وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن عمرو بن شريح الرعيني المقري، أجازني وكتب إليّ أن أروي عنه كتب عبد الرحمٰن السلمي، وحدثني عن محمد نصار البيهقي عنه.

ومنهم: جابر بن أيوب الحضرمي، أجازني إجازة عامة، وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني المقري.

وممن أجازني إجازة عامة محمد بن إسماعيل بن محمد القزويني، والحافظ الكبير ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق.

ومنهم: أبو القاسم خلف بن بشكوال.

ومنهم: القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الشافعي.

ومنهم: يوسف بن الحسن بن أبي النقاب بن الحسين وأخوه أبو العباس أيضاً، وأجازنا أبو القاسم ذاكر بن كامل بن غالب.

ومنهم: محمد بن يوسف بن علي الغزنوي الخفّاف.

ومنهم: أبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر بن حسن بن عمر بن أحمد القرشي المياستي.

ومنهم: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي الحافظ، كتب إليّ بالرواية عنه بجميع تآليفه ونظمه ونثره وسمى لنا من كتبه «صفوة الصفوة» و«مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن». وغير ذلك.

ومنهم: أبو بكر بن أبي الفتح الشيخاني.

ومنهم: المبارك بن علي بن الحسين الطباخ.

ومنهم: عبد الرحمٰن ابن الأستاذ، المعروف بابن علوان.

ومنهم: عبد الجليل الزنجاني.

ومنهم: أبو القاسم هبة الله بن علي بن مسعود بن شداد الموصلي.

ومنهم: أحمد بن أبي منصور.

ومنهم: محمد بن أبي المعالي عبد الله بن موهب بن جامع بن عبدون البغدادي الصوفي يعرف بابن الثناء.

ومنهم: محمد بن أبي بكر الطوسي.

ومنهم: المهذب بن علي بن هبة الله الطيب الضرير.

ومنهم: ركن الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب، وأخوه شمس الدين أبو عبد الله.

ومنهم: القرماني ببغداد.

ومنهم: ثابت بن قرة الحاوي، قرأت عليه من كتبه وتآليفه، ووقفها بروايتها بمسجد العمادين الجلادين بالموصل.

ومنهم: عبد العزيز بن الأخضر.

ومنهم: أبو عمر عثمان بن أبي يعلى بن أبي عمر الأبهري الشافعي من أولاد البراء بن عازب.

ومنهم: سعيد بن محمد بن أبي المعالي.

ومنهم: عبد الحميد بن محمد بن علي بن أبي المرشد القزويني.

ومنهم: أبو النجيب القزويني.

ومنهم: محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الكريم الفاسي، قرأت عليه جميع مصنفاته.

ومنهم: أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسين الرازي.

ومنهم: أحمد بن منصور الجوزي.

ومنهم: أبو محمد بن إسحاق بن يوسف بن علي.

ومنهم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحجري.

ومنهم: أبو الصبر أيوب بن أحمد المقري.

ومنهم: أبو بكر محمد بن عبيد السكسكي.

ومنهم: ابن مالك، حدثني بمقامات الحريري عن مصنفها.

ومنهم: عبد الودود بن سمحون قاضي النبك.

ومنهم: عبد المنعم بن القرشي الخزرجي.

ومنهم: علي بن عبد الواحد بن جامع.

ومنهم: أبو جعفر بن يحيى الورعي.

ومنهم: ابن هذيل.

ومنهم: أبو زيد السهيلي، حدثني بالروض الأنف في شرح السيرة والمعارف والأعلام وجميع تآليفه.

ومنهم: أبو عبيد الله بن الفخار المالقي المحدث.

ومنهم: أبو الحسن بن الصائغ الأنصاري.

ومنهم: عبد الجليل مؤلف المشكل في الحديث وشعب الإيمان.

ومنهم: أبو عبد الله بن المجاهد.

ومنهم: أبو عمران موسى بن عمران المزيلي.

ومنهم: الحاج محمد بن علي ابن أخت أبي الربيع المقومي.

ومنهم: عليّ بن النضر. ولولا خوف الملال وضيق الوقت لذكرنا جميع من سمعنا عليه ولقيناه.

وها أنا أذكر من تآليفي ما تيسّر فإنها كثيرة، وأصغرها جرماً كراسة واحدة، وأكبرها ما يزيد على مائة مجلد وما بينهما.

فمن ذلك كتاب المصباح في الجمع بين الصحاح في الحديث. اختصار مسلم. اختصار البخاري. اختصار الترمذي، اختصار المحلى. الاحتفال فيما كان عليه رسول الله ﷺ من سني الأحوال.

وأما الحقائق في طريق الله تعالى التي هي نتائج الأعمال، فمن ذلك وهو السابع كتاب من تصانيفنا «الجمع والتفصيل في أسرار معاني التنزيل» أفرغ في أربعة وستين مجلداً إلى قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ﴾ ﷺ[الكهف: ٦٠]. الجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة. مفتاح السعادة في معرفة الدخول إلى طريق الإرادة. المثلثات الواردة في القرآن العظيم. الأجوبة عن المسائل المنصورة. متابعة القطب. مناهج الارتقا إلى افتضاض أبكار النقا بجنان اللقا، يحوي ثلاثة آلاف مقام في طريق الله تعالى على ثلاثمائة باب، كل باب عشرة مقامات، كنه ما لا بد للمريد منه. المحكم في المحكم وأذان رسول الله ﷺ. الخلاف في آداب الملإ الأعلى. كشف الغين: سرّ أسماء الله الحسنى. شفاء العليل في إيضاح السبيل. عقلة المستوفز جلاء القلوب. التحقيق في الكشف عن سرّ الصديق. الإعلام بإشارات أهل الأوهام والإفهام في شرحه. السراج الوهاج في شرح كلام الحلاج. المنتخب في مآثر العرب. نتائج الأفكار وحدائق الأزهار. الميزان في حقيقة الإنسان. المحجة البيضاء. كنز الأبرار فيما روي عن النبي ﷺ من الأدعية والأذكار. مكافأة الأنوار فيما روي عن النبي ﷺ عن الله تعالى من الأخبار. الأربعين المتقابلة الأحاديث الأربعين في الطول. العين. التدبيرات الإلٰهية في إصلاح المحاكمة الإنسانية تعشق النفس بالجسم. إنزال الغيوب على سائر القلوب. أسرار قلوب العارفين. مشاهد الأسرار

القدسية ومطالع الأنوار الإلهية. الخلاء. المنهج السديد في شرح أنس المنقطعين. الموعظة الحسنة. البغية. الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت به طريق الآخرة من إنسان وحيوان ونبات ومعدن. المبادي والغايات فيما في حروف المعجم من الآيات. مواقع النجوم. الإنزالات. الموجود. حلية الأبدال. أنوار الفجر. الفتوحات المكية عشرون مجلداً. تاج التراجم. الفحوص. الرصوص. الشواهد. القطب والإمامين. روح القدس. التنزلات الموصلية. إشارات القرآن في العالم والإنسان. القسم الإلٰهي. الأقسام الإلٰهية. الجمال والجلال. المقنع في إيضاح السهل الممتنع. شروط أهل الطريق. الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار. عنقاء مغرب. عقائد أهل علم الكلام. الإيجاد والكون. الرسائل والإشارات في الأسرار. الإلٰهيات والكتابات. الحجة. إنشاء الجداول والدوائر. الأعلاق في مكارم الأخلاق. روضة العاشقين. الميم والواو والنون. المعارف الإلٰهية وهو الديوان. المبشرات. الرحلة. العوالي في أسانيد الأحاديث. الأحدية. الهوية الرحمية. الجامع وهو كتاب الجلالة العظيمة. المجد. الديمومة. الجود. القيومية. الإحسان. الفلك والسعادة. الحكمة. العزة. الأزل. النون. الإبداع. الخلق والأمر. القدم. الصادر والوارد. الملك. الوارد والواردات. القدس. الحياة. العلم. المشتبه. الفهوانية. الرقم. العين. المياه. ركن المدائن. المبادي. الزلفة. الرقيم. الدعاء. الأجابة. الرمز. الرتبة. البقاء. القدرة. الحكم والشرائع. الغيب. مفاتيح الغيب الخزائن العلمية. الرياح اللواقح. الريح العقيم. الكنز. التدبير والتفصيل. اللذة والألم. الحق. الحمد. المؤمن والمسلم والمحسن. القدر. الشأن. الوجود. التحويل. الوحي. الإنسان. التركيب. المعراج. الروائح والأنفاس. الملل. الأرواح. النحل، البرزخ. الحسن. القسطاس. القلم. اللوح. التحفة والعرافة. المعرفة. الأعراف. زيادة كبد النون. الإسفار في نتائج الأسفار. الأحجار المتفجرة والمتشققة والهابطة. الجبال. الطبق. النمل. العرش. مراتب الكشف. الأبيض. الكرسي. الفلك المشحون. الهباء. الجسم. الزمان. المكان. الحركة. العالم. الآباء العلويات والأمهات السفليات. النجم والشجر. سجود القلب. الرسالة والنبوة والمعرفة والولاية. الغايات التسعة عشر. الجنة. النار. الحضرة. المناظرة بين الإنسان الكامل. التفضيل بين الملك والبشر. المبشرات الكبرى. محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار. الأولين. العبادة. ما يعول عليه وهو كتاب النصائح. إيجاز اللسان في الترجمة عن القرآن. المعرفة. شرح الأسماء. الذخائر والأعلاق. الوسائل. النكاح المطلق. فصوص الحكم. نائج الأذكار. اختصار

السيرة النبوية المحمدية. اللوامح. اللوائح. الاسم والرسم. الفصل والوصل. مراتب العلوم. الوهب. انتقاش النور. النحل. الوجد. الطالب والمجذوب. الأدب. الحال. الشريعة والحقيقة. التحكم والشطح. الحق. المخلوق. الإفراد وذوو الأعداد. الملامية. الخوف والرجاء. الفيض والبسط. الهبة والأنس. اللسانين. التواصي الليلية. الفناء والبقاء. الغيبة والحضور. الصحو والسكر. التجليات. القرب والبعد. المحو والإثبات. الخواطر. الشاهد والمشاهد. الكشف. الولد. التجريد والتفريد. العزة والاجتهاد. اللطائف والعوارف. الرياضة والتجلي. المحق والسحق. التودد والهجوم. التلوين والتمكين. اللمة والهمة. العزة والغيرة. الفتوح والمطالعات. الوقائع. الحرف المعني. التدني والتدلي. الرجعة. الستر والخلوة. النون. الختم والطبع. انتهت، ولعزتها ذكرتها هنا فإنها من أعظم كراماته رضي الله عنه، فلم أخرج بذكرها عن الصدد الذي ألف الكتاب لأجله، وقد رأيت كتاباً مستقلاً في ذكر مؤلفاته وفيه كثير منها لم يذكر هنا في هذه الإجازة، وكانت وفاته رضي الله عنه سنة ٦٣٨.

عقيدة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي

فيا إخوتي ويا أحبائي رضي الله عنكم، أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالىٰ في كل لحظة وطرفة، وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئه، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله تعالىٰ وملائكته، ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولاً وعقداً، أن الله تعالىٰ إلٰه واحد، لا ثاني له في ألوهيته منزّه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له ملك لا وزير له، صانع لا مدبّر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالىٰ في وجوده، فالعالم كله موجود به، وهو وحده متّصف بالوجود لنفسه، لا افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه، ليس بجوهر متحيّز فيقدر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء، مقدّس عن الجهات والأقطار، مرئي بالقلوب والأبصار، إذا شاء استوى على عرشه كما قاله، وعلى المعنى الذي أراده، كما أنّ العرش وما سواه به استوى، وله الآخرة والأولى، ليس له مثل معقول ولا دلّت عليه العقول، لا يحده زمان، ولا يقله مكان، بل كان ولا مكان، وهو على ما عليه كان، خلق المتمكن والمكان، وأنشأ الزمان، وقال: أنا الواحد الحي لا يؤوده حفظ المخلوقات، ولا ترجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعة المصنوعات، تعالىٰ أن تحله الحوادث أو يحلها، أو تكون بعده أو يكون قبلها، بل يقال كان ولا شيء معه، فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيوم الذي لا ينام، والقهار الذي لا يرام، ليس كمثله شيء، خلق العرش وجعله حد الاستواء، وأنشأ الكرسيّ وأوسعه الأرض والسمٰوات العلى، اخترع اللوح والقلم الأعلى، وأجراه كاتباً بعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء، أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلق، وأخلق الذي خلق، أنزل الأرواح في الأشباح أمناء، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاء، وسخّر لنا ما في السمٰوات وما في الأرض جميعاً منه، فلا تتحرّك ذرّة إلاّ إليه وعنه، خلق الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، لكن علمه سبق بأن يخلق ما خلق، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء

علماً وأحصى كل شيء عدداً يعلم السّر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئاً هو خلقه، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، علم الأشياء منها قبل وجودها، ثم أوجدها على حد ما علمها، فلم يزل عالماً بالأشياء، لم يتجدّد له علم عند تجدّد الإنشاء، بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها، وبه حكم عليها من شاء وحكمها، علم الكليات على الإطلاق، كما علم الجزئيات بإجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق، فهو عالم الغيب والشهادة، فتعالىٰ الله عمّا يشركون، فعّال لما يريد، فهو المريد الكائنات، في عالم الأرض والسمٰوات، لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراده، كما أنه لم يرده حتى علمه، إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لا يعلم، أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريد، كما يستحيل أن توجد نسب هذه الحقائق في غير حيّ، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها، فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حر، ولا برد ولا حر، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولافوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا برّ ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض، ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح، ولا ظلام ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا رقاد ولا سهاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من هذه النسب المتضادات منها والمختلفات والمتماثلات إلاّ وهو مراد للحق تعالىٰ.

وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده، فكيف يوجد المختار ما لا يريد، لا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، ويضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، ما شاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن، لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئاً لم يرد الله تعالىٰ أن يريدوه ما أرادوه، أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله تعالىٰ إيجاده وأرادوه عندما أراد منهم أن يريدوه ما فعلوه، ولا استطاعوا على ذلك، ولا أقدرهم عليه، فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمه وإرادته، ولم يزل سبحانه موصوفاً بهذه الإرادة أزلاً، والعالم معدوم غير موجود، وإن كان ثابتاً في العلم في عينه، ثم أوجد العالم من غير تفكّر ولا تدبّر عن جهل أو عدم علم، فيعطيه التفكّر والتدبّر على ما جهل جلّ وعلا عن ذلك، بل أوجده عن العلم السابق، وتعيين الإرادة المنزّهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه، من زمان ومكان، وأكوان وألوان، فلا مريد في

الوجود على الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] وأنه سبحانه كما علم فأحكم، وأراد فخصص، وقدّر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن، أو نطق في الورى من العالم الأسفل والأعلى، لا يحجب سمعه البعد فهو القريب، ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد، يسمع كلام النفس في النفس، وصوت المماسة الخفية عند اللمس، ويرى السواد في الظلماء، والماء في الماء، لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور، وهو السميع البصير.

تكلم سبحانه لا عن صمت متقدم، ولا سكوت متوهم، بكلام قديم أزليّ، كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته، كلّم به موسىٰ عليه السلام، سمّاه التنزيل، والزبور والتوراة والإنجيل، من غير حروف ولا أصوات ولا نغم ولا لغات، بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات، فكلامه سبحانه من غير لهاة ولا لسان، كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان، كما أنّ بصره من غير حدقة ولا أجفان، كما أن إرادته في غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان، كما أن حياته من غير بخار تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان، فسبحانه سبحانه، من بعيد دان عظيم السلطان، عميم الإحسان، جسيم الامتنان، كل ما سواه، فهو عن جوده فائض، وفضله وعدله الباسط له والقابض، أكمل صنع العالم وأبدعه، حين أوجده واخترعه، لا شريك له في ملكه، ولا مدبّر معه في ملكه، إن أنعم فنعم فذلك فضله، وإن أبلى فعذب فذلك عدله، لم يتصرّف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف، ولا يتوجّه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف، كل ما سواه تحت سلطان قهره، ومتصرّف عن إرادته وأمره، فهو الملهم نفوس المكلفين التقوى والفجور، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء، والآخذ بها من شاء، هنا وفي يوم النشور، لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله، أخرج العالم قبضتين، وأوجد لهم منزلتين، فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، ولم يعترض عليه معترض هناك، إذ لا موجود كان ثم سواه، فالكل تحت تصريف أسمائه، فقبضة تحت أسماء بلائه، وقبضة تحت أسماء آلائه، ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان، أو شقياً لما كان من ذلك في شأن، لكنه سبحانه لم يرد فكان كما أراد، فمنهم الشقي والسعيد هنا وفي يوم المعاد، فلا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه القديم، وقد قال تعالىٰ في الصلاة هي خمس وهي خمسون ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩] لتصرّفي في ملكي، وإنفاذ مشيتي في ملكي، وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر، ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر إلاّ بوهب، ألا هي

وجود رحمانيّ لمن اعتنى الله به من عباده، وسبق له ذلك بحضرة أشهاده، فعلم حين أعلم أن الألوهة أعطت هذا التقسيم، وأنه من رقائق القديم، فسبحان من لا فاعل سواه، ولا موجود لنفسه إلاّ إياه ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩].

الشهادة الثانية: وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بتوحيده، فكذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتباه من وجوده، ذلك سيدنا محمد ﷺ الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلغ ﷺ ما أنزل من ربّه إليه وأدّى أمانته، ونصح أمته، ووقف في حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه، فخطب وذكر، وخوّف وحذر، وبشّر وأنذر، ووعد وأوعد، وأمطر وأرعد، وما خصّ بذلك التذكير أحداً من أحد عن إذن الواحد الصمد، ثم قال: «**أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟**» فقالوا: بلغت يا رسول الله، فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**». وإني مؤمن بكل ما جاء به ﷺ ممّا علمت وما لم أعلم، فممّا جاء به فقرّر أن الموت عن أجل مسمّى عند الله إذا جاء لا يؤخّر، فأنا مؤمن بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك، كما آمنت وأقررت أن سؤال فتاني القبر حق، وعذاب القبر حق، وبعث الأجساد من القبور حق، والعرض على الله تعالىٰ حق، والحوض حق، والميزان حق، وتطاير الصحف حق، والصراط حق، والجنة حق، والنار حق، وفريقاً في الجنة وفريقاً في النار حق، وكرب ذلك اليوم حق على طائفة وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر وشفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين، وإخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار من شاء حق، وجماعة من أهل الكبائر المؤمنين يدخلون جهنم ثم يخرجون منها بالشفاعة والامتنان حق، والتأبيد للمؤمنين والموحدين في النعيم المقيم في الجنان حق، والتأبيد لأهل النار في النار حق، وكل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله علم أو جهل حق.

فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل من وصلت إليه أن يؤدّيها إذا سئلها حيثما كان، نفعنا الله وإياكم بهذا الإيمان، وثبتنا عليه عند الانتقال من هذه الدار إلى الدار الحيوان، وأحلنا منها دار الكرامة والرضوان، وحال بيننا وبين دار سرابيلها من القطران، وجعلنا من العصابة التي أخذت الكتب بالإيمان، وممّن انقلب من الحوض وهو ريان، وثقل له الميزان، وثبتت له على الصراط القدمان، إنّه المنعم المحسان، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

اعتقاد أهل الاختصاص من أهل الله بين نظر وكشف

الحمد لله محير العقول في نتائج الهمم، وصلّى الله على محمد وعلى آله وسلم.

مسألة: أما بعد، فإن للعقول حداً تقف عنده من حيث ما هي مفكرة لا من حيث ما هي قابلة، فنقول في الأمر الذي يستحيل عقلاً قد لا يستحيل نسبة إلٰهية، كما نقول فيما يجوز عقلاً قد يستحيل نسبة إلٰهية.

مسألة: أية مناسبة بين الحق الواجب الوجود بذاته وبين الممكن وإن كان واجباً به عند من يقول بذلك لاقتضاء الذات أو لاقتضاء العلم، ومآخذها الفكرية إنما تقوم صحيحة من البراهين الوجودية، ولا بدّ بين الدليل والمدلول والبرهان والمبرهن عليه من وجه به يكون التعلّق له نسبة إلى الدليل ونسبة إلى المدلول عليه بذلك الدليل، ولولا ذلك الوجه ما وصل دالٌ إلى مدلول دليله أبداً، فلا يصح أن يجتمع الخلق والحق في وجه أبداً من حيث الذات، لكن من حيث إنّ هذه الذات منعوتة الألوهة فهذا حكم آخر تستقل العقول بإدراكه، وكل ما يستقل العقل بإدراكه عندنا يمكن أن يتقدم العلم به على شهوده، وذات الحق تعالىٰ بائنة عن هذا الحكم فإن شهودها يتقدم على العلم بها بل تشهد ولا تعلم، كما أن الألوهة تعلم ولا تشهد والذات تقابلها، وكم من عاقل ممن يدعي العقل الرصين من العلماء النظار يقول إنه حصل على معرفة الذات من حيث النظر الفكريّ وهو غالط في ذلك، وذلك لأنّه متردّد بفكره بين السلب والإثبات، فالإثبات راجع إليه، فإنه ما أثبت للحق الناظر إلاّ ما هو الناظر عليه من كونه عالماً قادراً مريداً إلى جميع الأسماء، والسلب راجع إلى العدم والنفي، والنفي لا يكون صفة ذاتية لأن الصفات الذاتية للموجودات إنما هي ثبوتية، فما حصل لهذا المفكر المتردّد بين الإثبات والسلب من العلم بالله شيء.

مسألة: أنى للمقيد بمعرفة المطلق وذاته لا تقتضيه، وكيف يمكن أن يصل الممكن إلى معرفة الواجب بالذات؟ وما من وجه للممكن إلاّ ويجوز عليه العدم والدثور والافتقار فلو جمع بين الواجب بذاته وبين الممكن وجه لجاز على الواجب ما جاز على الممكن من ذلك الوجه من الدثور والافتقار وهذا في حق الواجب محال، فإثبات وجه جامع بين الواجب والممكن محال، فإن وجوه الممكن تابعة له وهو في نفسه يجوز عليه العدم فتوابعه أحرى وأحق بهذا الحكم، وثبت للممكن ما ثبت للواجب بالذات من ذلك الوجه الجامع، وما ثمَّ شيء ثبت للممكن من حيث ما هو ثابت للواجب بالذات، فوجود وجه جامع بين الممكن والواجب بالذات محال.

مسألة: لكني أقول: إن للألوهة أحكاماً وإن كانت حكماً، وفي صور هذه الأحكام يقع التجلي في الدار الآخرة حيث كان، فإنه قد اختلف في رؤية النبيّ عليه السلام ربّه كما ذكر، وقد جاء حديث النور الأعظم في رفرف الدر والياقوت وغير ذلك.

مسألة: أقول بالحكم الإرادي لكني لا أقول بالاختيار، فإن الخطاب بالاختيار الوارد إنما ورد من حيث النظر إلى الممكن معرّى عن علته وسببيته.

مسألة: فأقول بما أعطاه الكشف الاعتصاميّ «إن الله كان ولا شيء معه»، إلى هنا انتهى لفظه عليه السلام، وما أتى بعد هذا فهو مدرج فيه وهو قولهم: وهو الآن على ما عليه كان؛ يريدون في الحكم. فالآن وكان أمران عائدان علينا إذ بنا ظهرا وأمثالهما وقد انتفت المناسبة والمقول عليه «كان الله ولا شيء معه»، إنما هو الألوهة لا الذات، وكل حكم يثبت في باب العلم الإلٰهيّ للذات إنما هو للألوهية وهي أحكام نسب وإضافات وسلوب، فالكثرة في النسب لا في العين، وهنا زلّت أقدام من شرّك بين من يقبل التشبيه وبين من لا يقبله عند كلامهم في الصفات، واعتمدوا في ذلك على الأمور الجامعة التي هي الدليل والحقيقة والعلة والشرط وحكموا بها غائباً وشاهداً، فأما شاهداً فقد يسلم وأما غائباً فغير مسلم.

مسألة: بحر العماء برزخ بين الحق والخلق في هذا البحر اتصف الممكن بعالم وقادر وجميع الأسماء الإلٰهية بأيدينا، واتصف الحق بالتعجب والتبشش والضحك والفرح والمعية وأكثر النعوت الكونية فردّ ما له وخذ ما لك فله النزول ولنا المعراج.

مسألة: من أردت الوصول إليه لم تصل إليه إلاّ به وبك بك من حيث طلبك، وبه لأنه موضع قصدك فالألوهة تطلب ذلك والذات لا تطلبه.

مسألة: المتوجّه على إيجاد ما سوى الله تعالى هو الألوهة بأحكامها، ونسبها وإضافاتها وهي التي استدعت الآثار، فإنّ قاهراً بلا مقهور، وقادراً بلا مقدور، صلاحية ووجوداً وقوّة وفعلاً محال.

مسألة: النعت الخاص الأخص التي انفردت به الألوهة كونها قادرة إذ لا قدرة لممكن أصلاً وإنما له التمكّن من قبول تعلّق الأثر الإلٰهي به.

مسألة: الكسب تعلق إرادة الممكن بفعل مّا دون غيره، فيوجده الاقتدار الإلٰهيّ عند هذا التعلّق فسمّي ذلك كسباً للممكن.

مسألة: الجبر لا يصح عند المحقق لكونه ينافي صحة الفعل للعبد، فإن الجبر مل الممكن على الفعل مع وجود الإباية من الممكن، فالجماد ليس بمجبور لأنه لا يتصوّر منه فعل ولا له عقل عادي، فالممكن ليس بمجبور لأنه لا يتصوّر منه فعل ولا له عقل محقق مع ظهور الآثار منه.

مسألة: الألوهة تقضي أن يكون في العالم بلاء وعافية، فليس إزالة المنتقم من الوجود بأولى من إزالة الغافر وذي العفو والمنعم، ولو بقي من الأسماء ما لاحكم له لكان معطلاً والتعطيل في الألوهة محال فعدم أثر الأسماء محال.

مسألة: المدرك والمدرك كل واحد منهما على ضربين: مدرك يعلم وله قوّة التخيّل، ومدرك يعلم وما له قوّة التخيّل، والمدرك بفتح الراء على ضربين: مدرك له صورة يعلمه بصورته من ليس له قوّة التخيّل ولا يتصوّره ويعلمه ويتصوره من له قوّة التخيّل، ومدرك ما له صورة يعلم فقط.

مسألة: العلم ليس تصوّر المعلوم ولا هو المعنى الذي يتصوّر المعلوم، فإنه ما كل معلوم يتصوّر ولا كل عالم يتصوّر، فإن التصوّر للعالم إنما هو من كونه متخيّلاً، والصورة للمعلوم أن تكون على حالة يمسكها الخيال، وثم معلومات لا يمسكها خيال أصلاً فثبت أنها لا صورة لها.

مسألة: لو صحّ الفعل من الممكن لصحّ أن يكون قادراً ولا فعل له فلا قدرة له، فإثبات القدرة للممكن دعوى بلا برهان، وكلامنا في هذا الفصل مع الأشاعرة المثبتين لها مع نفي الفعل عنها.

مسألة: لا يصدر عن الواحد من كل وجه إلاّ واحد، وهل ثم من هو على هذا الوصف أم لا؟ في ذلك نظر للمصنف، ألا ترى الأشاعرة ما جعلوا الإيجاد للحق إلاّ من كونه قادراً والاختصاص من كونه مريداً والأحكام من كونه عالماً، وكون الشيء مريداً ما هو عين كونه قادراً، فليس قولهم بعد هذا أنه واحد من كل وجه صحيحاً في التعلّق العام، وكيف وهم مثبتو الصفات زائدة على الذات قائمة به تعالىٰ، وهكذا القائلون بالنسب والإضافات، وكل فرقة من الفرق ما تخلصت لهم الوحدة من جميع الوجوه إلا أنهم بين ملزم من مذهبه القول بعدمها وبين قائل بها، فإثبات الوحدانية إنما ذلك في الألوهية أي لا إلٰه إلاّ هو وذلك صحيح مدلول عليه.

مسألة: كون الباري عالماً حياً قادراً إلى سائر الصفات نسب وإضافات له لا أعيان زائدة لما يؤدّي إلى نعتها بالنقص، إذ الكامل بالزائد ناقص بالذات عن كماله

بالزائد وهو كامل لذاته، فالزائد بالذات على الذات محال، وبالنسب والإضافة ليس بمحال، وأمّا قول القائل: لا هي هو ولا هي أغيار له فكلام في غاية البعد، فإنه قد دلّ صاحب هذا المذهب على إثبات الزائد وهو الغير بلا شك، إلاّ أنه أنكر هذا الإطلاق لا غير، ثم تحكم في الحد بأن قال الغيران هما اللذان يجوز مفارقة أحدهما الآخر مكاناً وزماناً ووجوداً وعدماً، وليس هذا بحد للغيرين عند جميع العلماء به.

مسألة: لا يؤثّر تعدّد التعلقات من المتعلق في كونه واحداً في نفسه، كما لا يؤثر تقسيم المتكلم به في أحدية الكلام.

مسألة: الصفات الذاتية للموصوف بها وإن تعددت فلا تدل على تعدّد الموصوف في نفسه لكونها مجموع ذاته وإن كانت معقولة في التمييز بعضها من بعض.

مسألة: كل صورة في العالم عرض في الجوهر وهي التي يقع عليها الخلع والسلخ والجوهر واحد. والقسمة في الصورة لا في الجوهر.

مسألة: قول القائل إنما وجد عن المعلول الأول الكثرة وإن كان واحد الاعتبارات ثلاثة وجدت فيه وهي علته ونفسه وإمكانه فنقول لهم: ذلكم يلزمكم في العلة الأولى أعني وجود اعتبارات فيه وهو واحد فلم منعتم أن لا يصدر عنه إلاّ واحد؟ فإمّا أن تلتزموا صدور الكثرة عن العلة الأولى، أو صدور واحد عن المعلول الأول وأنتم قائلين بالأمرين.

مسألة: من وجب له الكمال الذاتي والغنى الذاتي لا يكون علة لشيء، لأنه يؤدّي كونه علة توقفه على المعلول، والذات منزهة عن التوقف على شيء فكونها علة محال لكن الألوهة قد تقبل الإضافات، فإن قيل: إنما يطلق الإلٰه على من هو كامل الذات غنيّ الذات لا يريد الإضافة ولا النسب. قلنا: لا مشاحة في اللفظ بخلاف العلة فإنها في أصل وضعها ومن معناها تستدعي معلولاً، فإن أريد بالعلة ما أراد هذا بالإلٰه فمسلم، ولا يبقى نزاع في هذا اللفظ إلاّ من جهة الشرع هل يمنع أو يبيح أو يسكت؟

مسألة: الألوهة مرتبة للذات لا يستحقها إلاّ الله فطلبت مستحقها ما هو طلبها، والمألوه يطلبها وهي تطلبه، والذات غنية عن كل شيء، فلو ظهر هذا السر الرابط لما ذكرنا لبطلت الألوهة ولم يبطل كمال الذات، وظهر هنا بمعنى زال كما يقال ظهروا عن البلد أي ارتفعوا عنه وهو قول الإمام: للألوهية سرّ لو ظهر لبطلت الألوهية.

مسألة: العلم لا يتغير بتغيّر المعلوم لكن التعلق يتغير، والتعلق نسبة إلى معلوم مّا مثاله تعلق العلم بأنّ زيداً سيكون فكان، فتعلق العلم بكونه كائناً في الحال وزال تعلق العلم باستئناف كونه ولا يلزم من تغير التعلق تغير العلم، وكذلك لا يلزم من تغير المسموع باستئناف كونه ولا يلزم من تغير التعلق تغير العلم، وكذلك لا يلزم من تغير المسموع والمرئيّ تغير الرؤية والسمع.

مسألة: ثبت أن العلم لا يتغير فالمعلوم أيضاً لا يتغير، فإن معلوم العلم إنما هو نسبة لأمرين معلومين محققين، فالجسم معلوم لا يتغير أبداً والقيام معلوم لا يتغير، ونسبة القيام للجسم هي المعلومة التي ألحق بها التغيير، والنسبة أيضاً لا تتغير، وهذه النسبة الشخصية أيضاً لا تكون لغير هذا الشخص فلا تتغير، وما ثم معلوم أصلاً سوى هذه الأربعة وهي الثلاثة الأمور المحققة: النسبة والمنسوب إليه والنسبة الشخصية، فإن قيل إنما ألحقنا التغير بالمنسوب إليه لكونه رأيناه على حالة ما ثم رأيناه على حالة أخرى، قلنا لما نظرت المنسوب إليه أمراً مّا لم تنظر إليه من حيث حقيقته، فحقيقته غير متغيرة ولا من حيث ما هو منسوب إليه فتلك حقيقة لا تتغير أيضاً، وإنما نظرت إليه من حيث ما هو منسوب إليه حال مّا، فإذن ليس المعلوم الآخر هو المنسوب إليه تلك الحالة التي قلت إنها زالت فإنها لا تفارق منسوبها وإنما هذا منسوب آخر إليه نسبة أخرى، فإن فلا يتغير علم ولا معلوم، وإنما العلم له تعلقات بالمعلومات أو تعلق بالمعلومات كيف شئت.

مسألة: ليس شيء من العلم التصوّريّ مكتسباً بالنظر الفكريّ، فالعلوم المكتسبة ليست إلاّ نسبة معلوم تصوّريّ إلى معلوم تصوّريّ، والنسبة المطلقة أيضاً من العلم التصوّريّ، فإذا نسبت الاكتساب إلى العلم التصوّريّ فليس ذلك إلاّ من كونك تسمع لفظاً قد اصطلحت عليه طائفة مّا لمعنى مّا يعرفه كل أحد، لكن لا يعرف كل أحد أن ذلك اللفظ يدل عليه، فلذلك يسأل عن المعنى الذي أطلق عليه هذا اللفظ أي معنى هو فيعنيه له المسؤول بما يعرفه، فلو لم يكن عند السائل العلم بذلك المعنى من حيث معنويته والدلالة التي توصل بها إلى معرفة مراد ذلك الشخص بذلك الاصطلاح لذلك المعنى ما قبله وما عرف ما يقول، فلا بدّ أن تكون المعاني كلها مركوزة في النفس ثم تنكشف له مع الأناة حالاً بعد حال.

مسألة: وصف العلم بالإحاطة للمعلومات يقضي بتناهيها والتناهي فيها محال فالإحاطة محال، لكن يقال العلم محيط بحقيقة كل معلوم وإلاّ فليس معلوماً بطريق الإحاطة، فإنّه من علم أمراً ما من وجهٍ ما لا من جميع الوجوه فما أحاط به.

مسألة: رؤية البصيرة علم ورؤية البصر طريق حصول علم، فكون الإله سميعاً بصيراً تعلق تفصيليّ فهما حكمان للعلم، ووقعت التثنية من أجل المتعلق الذي هو المسموع والمبصر.

مسألة: الأزل نعت سلبيّ وهو نفي الأولية، فإذا قلنا أول في حق الألوهة فليس إلاّ المرتبة.

مسألة: دلّت الأشاعرة على حدوث كل ما سوى الله بحدوث المتحيزات وحدوث أعراضها، وهذا لا يصح حتى يقيموا الدليل على حصر كل ما سوى الله تعالىٰ فيما ذكروه، ونحن نسلم حدوث ما ذكروا حدوثه.

مسألة: كل موجود قائم بنفسه غير متحيز وهو ممكن لا تجري مع وجوده الأزمنة ولا تطلبه الأمكنة.

مسألة: دلالة الأشعريّ في الممكن الأول أنه يجوز تقدمه على زمان وجوده وتأخّره عنه، والزمان عنده في هذه المسألة مقدر لا موجود فالاختصاص دليل على المخصص، فهذه دلالة فاسدة لعدم الزمان فبطل أن يكون هذا دليلاً، فلو قال نسبة الممكنات إلى الوجود أو نسبة الوجود إلى الممكنات نسبة واحدة من حيث ما هي نسبة لا من حيث ما هو ممكن، فاختصاص بعض الممكنات بالوجود دون غيره من الممكنات دليل على أن لها مخصصاً، فهذا هو عين حدوث كل ما سوى الله.

مسألة: قول القائل إنّ الزمان مدة متوهمة تقطعها حركة الفلك خُلْفٌ من الكلام لأنّ المتوهم ليس بوجود محقق وهم ينكرون على الأشاعرة تقدير الزمان في الممكن الأول فحركات الفلك تقطع في لا شيء، فإن قال الآخر إن الزمان حركة الفلك والفلك متحيز فلا تقطع الحركة إلاّ في متحيز.

مسألة: عجبت من طائفتين كبيرتين الأشاعرة والمجسمة في غلطهم في اللفظ المشترك كيف جعلوه للتشبيه ولا يكون التشبيه إلاّ بلفظة المثل أو كاف الصفة بين الأمرين في اللسان، وهذا عزيز الوجود في كل ما جعلاه تشبيهاً من آية أو خبر، ثم إن الأشاعرة تخيلت أنها لما تأوّلت قد خرجت من التشبيه وهي ما فارقته إلاّ أنها انتقلت من التشبيه بالأجسام إلى التشبيه بالمعاني المحدثة المفارقة للنعوت القديمة في الحقيقة والحد فما انتقلوا من التشبيه بالمحدثات أصلاً، ولو قلنا بقولهم لم نعدل مثلاً من الاستواء الذي هو الاستقرار إلى الاستواء الذي هو الاستيلاء كما عدلوا، ولا سيما والعرش مذكور في نسبة هذا الاستواء، ويبطل معنى الاستيلاء مع ذكر السرير،

ويستحيل صرفه إلى معنى آخر ينافي الاستقرار، فكنت أقول: إن التشبيه مثلاً إنما وقع بالاستواء، والاستواء معنى لا بالمستوى الذي هو الجسم، والاستواء حقيقة معقولة معنوية تنسب إلى كل ذات بحسب ما تعطيه حقيقة تلك الذات، ولا حاجة لنا إلى التكلف في صرف الاستواء عن ظاهره فهذا غلط بين لا خفاء به، وأما المجسمة فلم يكن ينبغي لهم أن يتجاوزوا باللفظ الوارد إلى أحد محتملاته مع إيمانهم ووقوفهم مع قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

مسألة: كما أنه تعالىٰ لم يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها، لكن قضاها وقدرها بيان كونه لا يريدها، لأن كونها فاحشة ليس عينها بل هو حكم الله فيها، وحكم الله في الأشياء غير مخلوق، وما لم يجر عليه الخلق لا يكون مراداً، فإن ألزمناه في الطاعة التزمناه وقلنا الإرادة للطاعة ثبتت سمعاً لا عقلاً فأثبتوها في الفحشاء ونحن قبلناها إيماناً، كما قبلنا وزن الأعمال وصورها مع كونها أعراضاً فلا يقدح ذلك فيما ذهبنا إليه لما اقتضاه الدليل.

مسألة: العدم للممكن المتقدم بالحكم على وجوده ليس بمراد، لكن العدم الذي يقارنه حكماً حال وجوده إذ لو لم يكن الوجود لكان ذلك العدم منسحباً عليه هو مراد حال وجود الممكن لجواز استصحاب العدم له، وعدم الممكن الذي ليس بمراد هو الذي في مقابلة وجود الواجب لذاته، لأن مرتبة الوجود المطلق تقابل العدم المطلق الذي للممكن، إذ ليس له جواز وجود في هذه المرتبة وهذا في وجود الألوهة لا غير.

مسألة: لا يستحيل في العقل وجود قديم ليس بإلٰه فإن لم يكن فمن طريق السمع لا غير.

مسألة: كون المخصص مريد الوجود ممكن مّا ليس تخصيصه لوجوده من حيث هو وجود، لكن من حيث نسبته لممكن ما تجوز نسبته لممكن آخر، فالوجود من حيث الممكن مطلقاً لا من حيث ممكن ما ليس بمراد ولا بواقع أصلاً إلاّ بممكن ما، وإذا كان بممكن ما فليس هو بمراد من حيث هو لكن من حيث نسبته لممكن ما لا غير.

مسألة: دلّ الدليل على ثبوت السبب المخصّص، ودلّ الدليل مثلاً على التوقيف فيما ينسب إلى هذا المخصص من نفي أو إثبات كما قال لنا بعض النظار في كلام جرى بيني وبينه فكنا نقف كما زعم، لكن دلّ الدليل على ثبوت الرسول من جانب المرسل، فأخذنا

النسب الإلٰهية من الرسول فحكمنا بأنه كذا وليس كذا، فكيف والدليل الواضح على وجوده، وأن ووجوده عين ذاته لا غيرها.

مسألة: افتقار الممكن للواجب بالذات والاستغناء الذاتي للواجب دون الممكن يسمّى إلٰهاً، وتعلقها بنفسه وبحقائق كل محقق وجوداً كان أو عدماً يسمّى علماً، وتعلقها بالممكنات من حيث ما هي الممكنات عليه يسمّى اختياراً، وتعلقها بالممكن من حيث تقدّم العلم قبل كون الممكن يسمّى مشيئة، وتعلقها بتخصيص أحد الجائزين للممكن على التعيّن يسمّى إرادة، وتعلقها بإيجاد الكون يسمّى قدرة، وتعلقها بإسماع المكوّن لكونه يسمّى أمراً وهو على نوعين: بواسطة وبلا واسطة، فبارتفاع الوسائط لا بدّ من نفوذ الأمر، وبالواسطة لا يلزم النفوذ، وليس بأمر في عين الحقيقة إذ لا يقف لأمر وتعلقها بإسماع المكوّن لصرفه عن كونه أو كون ما يمكن أن يصدر منه يسمّى نهياً وصورته في التقسيم صورة الأمر، وتعلقها بتحصيل ما هي عليه هي أو غيرها من الكائنات أو ما في النفس يسمّى أخباراً، فإن تعلقت بالكون على طريق أي شي يسمّى استفهاماً، فإن تعلقت به على جهة النزول إليه بصيغة الأمر يسمّى دعاء، ومن باب تعلق الأمر إلى هذا يسمّى كلاماً، علقها بالكلام من غير اشتراط العلم به يسمّى سمعاً، فإن تعلقت وتبع التعلق الفهم بالمسموع يسمّى فهماً، وتعلقها بكيفية النور وما يحمله من المرئيات يسمّى بصراً ورؤية، وتعلقها بإدراك كل مدرك الذي لا يصح تعلق من هذه التعلقات كلها إلاّ به يسمّى حياة، والعين في ذلك كله واحدة تعدّدت التعلقات لحقائق المتعلقات والأسماء للمسميات.

مسألة: للعقل نور يدرك به أمور مخصوصة، وللإيمان نور به يدرك كل شيء ما لم يقم مامع، فبنور العقل تصل إلى معرفة الألوهة، وما يجب لها ويستحيل وما يجوز منها فلا يستحيل ولا يجب، وبنور الإيمان يدرك العقل معرفة الذات وما نسب الحق إلى نفسه من النعوت.

مسألة: لا يمكن عندنا معرفة كيفية ما ينسب إلى الذوات من الأحكام إلاّ بعد معرفة الذوات المنسوبة والمنسوب إليها، وحينئذٍ تعرف كيفية النسبة المخصوصة لتلك الذات المخصوصة كالاستواء والمعية واليد والعين وغير ذلك.

مسألة: الأعيان لا تنقلب والحقائق لا تتبدل، فالنار تحرق بحقيقتها لا بصورتها، فقوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] خطاب للصورة وهي الجمرات وأجرام الجمرات محرقة بالنار فلما قام النار بها سميت ناراً فتقبل البرد كما قبلت الحرارة.

مسألة: البقاء استمرار الوجود مثلاً على الباقي لا غير ليس بصفة زائدة فيحتاج إلى بقاء ويتسلسل إلا على مذهب الأشاعرة في المحدث فإن البقاء عرض فلا يحتاج إلى بقاء وإنما ذلك في بقاء الحق تعالىٰ.

مسألة: الكلام من حيث ما هو كلام واحد، والقسمة في المتكلم به لا في الكلام، فالأمر والنهي والخبر والاستخبار والطلب واحد في الكلام.

مسألة: الاختلاف في الاسم والمسمّى والتسمية اختلاف في اللفظ، فأما قول من قال: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٧٨]، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١] فكالنهي بالسفر بالمصحف إلى أرض العدوّ، وأما القول في الحجة بأسماء سميتموها على أنّ الاسم هو المسمّى فالمعبود الأشخاص، فنسبة الألوهة عبدوا فلا حجة في أن الاسم هو المسمّى، ولو كان لكان بحكم اللغة والوضع لا بحكم المعنى.

مسألة: وجود الممكنات لكمال مراتب الوجود الذاتي والعرفاني لا غير.

مسألة: كل ممكن منحصر في أحد قسمين في ستر أو تجلٍ فقد وجد الممكن على أقصى غاياته وأكملها فلا أكمل منه، ولو كان الأكمل لا يتناهى لما تصوّر خلق الكمال وقد وجد مطابقاً للحضرة الكمالية فقد كمل.

مسألة: المعلومات منحصرة من حيث ما تدرك به في حس ظاهر وباطن وهو الإدراك النفسيّ والبديهة، وما تركب من ذلك عقلاً إن كان معنى وخيالاً إن كان صورة، فالخيال لا يركب إلاّ في الصور خاصة، فالعقل يعقل ما يركب الخيال، وليس في قوّة الخيال أن يصوّر بعض ما يركبه العقل، وللاقتدار الإلٰهيّ سرّ خارج عن هذا كله يقف عنده.

مسألة: الحسن والقبح ذاتيّ للحسن والقبيح، لكن منه ما يدرك حسنه وقبحه بالنظر إلى كمال أو نقص أو غرض أو ملائمة طبع أو منافرته أو وضع، ومنه ما لا يدرك قبحه ولا حسنه إلاّ من جانب الحق الذي هو الشرع فنقول: هذا قبيح وهذا حسن وهذا من الشرع خبر لا حكم، ولهذا نقول بشرط الزمان والحال والشخص، وإنما شرطنا هذا من أجل من يقول في القتل ابتداء أو قوداً أو حداً، وفي إيلاج الذكر في الفرج سفاحاً ونكاحاً، فمن حيث هو إيلاج واحد لسنا نقول كذلك فإن الزمان مختلف ولوازم النكاح غير موجودة في السفاح، وزمان تحليل الشيء ليس زمان تحريمه إذ لو كان عين المحرم واحداً فالحركة من زيد في زمان ما ليست هي الحركة منه في الزمان الآخر، ولا الحركة التي من عمرو هي الحركة التي من زيد، فالقبيح لا

يكون حسناً أبداً، لأن تلك الحركة الموصوفة بالحسن أو القبح لا تعود أبداً، فقد علم الحق ما كان حسناً وما كان قبيحاً ونحن لا نعلم، ثم إنه لا يلزم من الشيء إذا كان قبيحاً أن يكون أثره قبيحاً فقد يكون أثره حسناً، والحسن أيضاً كذلك قد يكون أثره قبيحاً كحسن الصدق وفي مواضع يكون أثره قبيحاً، وكقبح الكذب وفي مواضع يكون أثره حسناً، فتحقق ما نبهناك عليه تجد الحق.

مسألة: لا يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول، فعلى هذا لا يصحّ قول الحلوليّ: لو كان الله في شيء كما كان في عيسىٰ لأحيا الموتى.

مسألة: لا يلزم الراضي بالقضاء الرضى بالمقضيّ فالقضاء حكم الله وهو الذي أمرنا بالرضى به، والمقضيّ المحكوم به فلا يلزمنا الرضى به.

مسألة: إن أريد بالاختراع حدوث المعنى المخترع في نفس المخترع وهو حقيقة الاختراع فذلك على الله محال، وإن أريد بالاختراع حدوث المخترع على غير مثال سبقه في الوجود الذي ظهر فيه فقد يوصف الحق على هذا بالاختراع.

مسألة: ارتباط العالم بالله ارتباط ممكن بواجب ومصنوع بصانع، فليس للعالم في الأزل مرتبة فإنها مرتبة الواجب بالذات فهو الله ولا شيء معه، سواء كان العالم موجوداً أو معدوماً، فمن توهم بين الله والعالم بوناً يقدر تقدّم وجود الممكن فيه وتأخره فهو توهم باطل لا حقيقة له، فلهذا نزعنا في الدلالة على حدوث العالم خلاف ما نزعت إليه الأشاعرة وقد ذكرناه في هذا التعليق.

مسألة: لا يلزم من تعلق العلم بالمعلوم حصول المعلوم في نفس العالم ولا مثاله، وإنما العلم يتعلق بالمعلومات على ما هي المعلومات عليه في حيثيتها وجوداً وعدماً، فقول القائل إن بعض المعلومات له في الوجود أربع مراتب ذهنيّ وعينيّ ولفظيّ وخطيّ، فإن أراد بالذهن العلم فغير مسلم، وإن أراد بالذهن الخيال فمسلم، لكن في كل معلوم يتخيل خاصة وفي كل عالم يتخيل، ولكن لا يصحّ هذا إلاّ في الذهنيّ خاصة لأنه يطابق العين في الصورة، واللفظيّ والخطيّ ليسا كذلك، فإن اللفظ والخط موضوعان للدلالة والتفهيم فلا يتنزل من حيث الصورة على الصورة، فإن زيداً اللفظيّ والخطيّ إنما هو زاي وياء ودال رقماً أو لفظاً ما له يمين ولا شمال ولا جهات ولا عين ولا سمع فلهذا قلنا لا يتنزل عليه من حيث الصورة لكن من حيث الدلالة، ولذلك إذا وقعت فيه المشاركة التي تبطل الدلالة افتقرنا إلى النعت والبدل وعطف البيان ولا يدخل في الذهنيّ مشاركة أصلاً فافهم.

مسألة: كنّا حصرنا في كتاب المعرفة الأول ما للعقل من وجوه المعارف في العالم ولم ننبه من أين حصل لنا ذلك الحصر، فاعلم أن للعقل ثلاثمائة وستين وجهاً يقابل كل وجه من جناب الحق العزيز ثلاثمائة وستين وجهاً يمده كل وجه منها بعلم لا يعطيه الوجه الآخر، فإذا ضربت وجوه العقل في وجوه الأخذ فالخارج من ذلك هي العلوم التي للعقل المسطرة في اللوح المحفوظ الذي هو النفس، وهذا الذي ذكرناه كشفاً إلٰهياً لا يحيله دليل عقل فيتلقى تسليماً من قائله أعني هذا، كما تلقى من القائل الحكيم الثلاثة الاعتبارات التي للعقل الأول من غير دليل لكن مصادرة فهذا أولى من ذلك، فإن الحكيم يدعي في ذلك النظر فيدخل عليه بما قد ذكرناه في عيون المسائل في مسألة الدرة البيضاء الذي هو العقل الأول، وهذا الذي ذكرناه لا يلزم عليه دخل فإنا ما ادّعيناه نظراً وإنما ادّعيناه تعريفاً، فغاية المنكر أن يقول للقائل: تكذب ليس له غير ذلك كما يقول له المؤمن به: صدقت؛ فهذا فرقان بيننا وبين القائلين بالاعتبارات الثلاثة وبالله التوفيق.

مسألة: ما من ممكن من عالم الخلق إلاّ وله وجهان: وجه إلى سببه ووجه إلى الله تعالىٰ، فكل حجاب وظلمة تطرأ عليه فمن سببه، وكل نور وكشف فمن جانب حقه، وكل ممكن من عالم الأمر فلا يتصوّر في حقه حجاب لأنه ليس له إلاّ وجه واحد فهو النور المحض، ألا لله الدين الخالص.

مسألة: دلّ الدليل العقلي على أن الإيجاد متعلق القدرة وقال الحق عن نفسه إنّ الوجود يقع عن الأمر الإلٰهي فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] فلا بدّ أن ننظر في متعلق الأمر ما هو وما هو متعلق القدرة حتى أجمع بين السمع والعقل فنقول: الامتثال قد وقع بقوله فيكون والمأمور به إنما هو الوجود، فتعلقت الإرادة بتخصيص أحد الممكنين، وهو الوجود، وتعلقت القدرة بالممكن فأثرت فيه الإيجاد وهي حالة معقولة بين العدم والوجود، فتعلق الخطاب بالأمر لهذه العين المخصصة بأن تكون فامتثلت فكانت، فلولا ما كان للممكن عين ولا وصف لها بالوجود يتوجه على تلك العين الأمر بالوجود لما وقع الوجود؛ والقائل بتَهَيُّؤ المراد في شرح كن غير مصيب.

مسألة: معقولية الأولية للواجب الوجود بالغير نسبة سلبية عن وجود كون الوجوب المطلق فهو أول لكل مقيد، إذ يستحيل أن يكون له هناك قدم لأنه لا يخلو أن يكون بحيث الوجوب المطلق فيكون إما هو نفسه وهو محال وإما قائماً به وهو محال لوجوه منها أنه قائم بنفسه، ومنها ما يلزم للواجب المطلق لو قام به هذا من الافتقار فيكون إما مقوّماً لذاته وهو محال أو مقوّماً لمرتبته وهو محال.

مسألة: معقولية الأولية للواجب المطلق نسبة وضعية لا يعقل لها العقل سوى استناد الممكن إليه فيكون أولاً بهذا الاعتبار، ولو قدر أن لا وجود لممكن قوّة وفعلاً لانتفت النسبة الأولية إذ لا تجد متعلقاً.

مسألة: أعلم الممكنات لا يعلم موجده إلاّ من حيث هو، فنفسه علم ومن هو موجود عنه غير ذلك لا يصحّ لأن العلم بالشيء يؤذن بالإحاطة به والفراغ منه وهذا في ذلك الجناب محال فالعلم به محال، ولا يصحّ أن يعلم منه لأنه لا يتبعض فلم يبق العلم إلاّ بما يكون منه، وما يكون منه هو أنت فأنت المعلوم، فإن قيل: علمنا بليس هو كذا علم به. قلنا: نعوتك جردته عنها لما يقتضيه الدليل من نفي المشاركة فتميزت أنت عندك عن ذات مجهولة لك من حيث ما هي معلومة لنفسها ما هي تميزت لك لعدم الصفات الثبوتية التي لها في نفسها فافهم ما علمت وقل رب زدني علماً لو علمته لم يكن هو ولو جهلك لم تكن أنت، فبعلمه أوجدك وبعجزك عبدته، فهو هو لهو لا لك، وأنت أنت لأنت وله، فأنت مرتبط به ما هو مرتبط بك، الدائرة مطلقة مرتبطة بالنقطة، النقطة مطلقة ليست مرتبطة بالدائرة، نقطة الدائرة مرتبطة بالدائرة، كذلك الذات مطلقة ليست مرتبطة بك، ألوهية الذات مرتبطة بالمألوه كنقطة الدائرة.

مسألة: متعلق رؤيتنا الحق ذاته سبحانه، ومتعلق علمنا به إثباته إلٰهاً بالإضافات والسلوب فاختلف المتعلق، فلا يقال في الرؤية إنها مزيد وضوح في العلم لاختلاف المتعلق، وإن كان وجوده عين ماهيته فلا ننكر أن معقولية الذات غير معقولية كونها موجودة.

مسألة: أن العدم هو الشرّ المحض: لم يعقل بعض الناس حقيقة هذا الكلام لغموضه وهو قول المحققين من العلماء المتقدمين والمتأخرين، لكن أطلقوا هذه اللفظة ولم يوضحوا معناها، وقد قال لنا بعض سفراء الحق في منازلة في الظلمة والنور: إن الخير في الوجود والشرّ في العدم في كلام طويل علمنا أن الحق تعالىٰ له إطلاق الوجود من غير تقييد وهو الخير المحض الذي لا شرّ فيه، فيقابله إطلاق العدم الذي هو الشر المحض الذي لا خير فيه، فهذا هو معنى قولهم إن العدم هو الشرّ المحض

مسألة: لا يقال من جهة الحقيقة إن الله جائز أن يوجد أمراً ما وجائز أن لا يوجده، فإن فعله للأشياء ليس بممكن بالنظر إليه ولا بإيجاب موجب، ولكن يقال ذلك الأمر جائز أن يوجد وجائز أن لا يوجد فيفتقر إلى مرجح وهو الله تعالىٰ، وقد تقصينا الشريعة فما رأينا فيها ما يناقض ما قلناه، فالذي نقول في الحق أنه تعالىٰ يجب له كذا ويستحيل عليه كذا، ولا نقول يجوز عليه كذا فهذه عقيدة أهل الاختصاص من أهل الله، وأما عقيدة خلاصة الخاصة في الله تعالىٰ فأمر فوق هذا جعلناه مبدداً في هذا الكتاب لكون أكثر العقول المحجوبة بأفكارها تقصر عن إدراكه لعدم تجريدها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه ثقتي وعليه اعتمادي.

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، **في معنى قول النبي ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»**[1]، الحمد لله الذي لم يكن قبل وحدانيته قبل إلاّ والقبل هو، ولم يكن بعد فردانيته بعد إلاّ والبعد هو، كان ولا بعد معه ولا قبل، ولا فوق ولا تحت، ولا قرب ولا بعد، ولا كيف ولا أين، ولا حين ولا أوان، ولا وقت ولا زمان، ولا كون ولا مكان، وهو الآن كما كان، هو الواحد بلا وحدانية، وهو الفرد بلا فردانية، ليس مركباً من الاسم والمسمى، هو الأول بلا أولية، وهو الآخر بلا آخرية، وهو الظاهر بلا ظاهرية، وهو الباطن بلا باطنية. أعني: أنّه هو وجود حروف الأول، وهو وجود حروف الآخر، وهو وجود حروف الظاهر، وهو وجود حروف الباطن، فلا أول ولا آخر، ولا ظاهر ولا باطن إلاّ هو، بلا صيران وجود هذه الحروف وجوده، وصيران وجود هذه الأحرف هو. فافهم هذا لئلا تقع في غلط الحلولية.

لا هو في شيء فيه، لا داخلاً ولا خارجاً، ينبغي أن تعرفه بهذه الصفة، لا بالعلم ولا بالعقل، ولا بالفهم ولا بالوهم، ولا بالحس ولا بالعين الظاهرة، ولا بالعين الباطنة ولا بالإدراك، لا يراه إلاّ هو، ولا يدركه إلاّ هو، ولا يعلمه إلاّ هو، يرى نفسه بنفسه، ويعرف نفسه بنفسه، لا يراه أحد غيره، ولا يدركه أحد غيره، حجابه وحدانيته فلا يحجبه شيء غيره، حجابه وجوده، تستر وجوده بوحدانيته بلا كيف، لا يراه أحد غيره ولا يدركه أحد غيره، لا نبي مرسل ولا ولي كامل ولا ملك مقرّب يعرفه، نبيه هو ورسوله هو، ورسالته هو وكلامه هو، أرسل نفسه بنفسه من نفسه إلى نفسه لا واسطة ولا سبب غيره، ولا تفاوت بين المرسِل والمُرسَل، والمرسَل به والمرسل إليه، ووجود حروف الله وجوده، لا غيره ولا فناه، ولا اسمه

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (٢٥٣٠) [٢/ ٢٣٤].

ولا مسماه، ولا وجوده بغيره، فلهذا قال النبي ﷺ: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»، وقال عليه الصلاة والسلام: «**عرفت ربي بربي**»[١] أشار عليه السلام بذلك أنك لست أنت أنت، بل أنت هو بلا أنت، لا هو داخل فيك، ولا أنت داخل فيه، ولا هو خارج عنك، ولا أنت خارج عنه، ما أعني بذلك: أنك موجود وصفتك هكذا بلا غير له، بل أعني به: أنك ما كنت قط ولا تكون، لا بنفسك ولا به، ولا فيه ولا معه ولا عنه ولا منه ولا له، ولا أنت فانٍ ولا موجود، أنت هو وهو أنت، بلا علة من هذه العلل. فإن عرفت وجودك بهذه الصفة، فقد عرفت الله، وإلاّ فلا. وأكثر العارفين أضافوا معرفة الله إلى فناء الوجود، وفناء الفناء، وذلك غلط محض وسهو واضح، فإنّ معرفة الله تعالى لا تحتاج إلى فناء الوجود، ولا إلى فناء فنائه؛ لأن الأشياء لا وجود لها، وما لا وجود له لا فناء له، فإنّ الفناء بعد إثبات الوجود. فإذا عرفت نفسك بلا وجود ولا فناء، فقد عرفت الله تعالى، وإلاّ فلا.

وفي إضافة معرفة الله تعالى إلى فناء الوجود، وإلى فناء فنائه إثبات للشرك؛ لأنك إذا أضفت معرفة الله تعالى إلى فناء الوجود وفناء الفناء، كان الوجود لغير الله ونقيضه، وهذا شرك واضح؛ لأنّ النبي ﷺ قال: «**من عرف نفسه، فقد عرف ربه**»[٢]، ولم يقل: من أفنى نفسه فقد عرف ربه، فإنّ إثبات الغير يناقض فناءه، وما لا يجوز ثبوته لا يجوز فناءه، ووجودك لا شيء واللاشيء لا يضاف إلى شيء لا فانٍ ولا غير فانٍ، ولا موجود ولا معدوم: أشار عليه السلام إلى أنك معدوم الآن، كما كنت معدوماً قبل التكوين، فالآن ـ لقوله عليه السلام: «**كان الله ولا شيء معه...**»[٣] الحديث ـ الأزل، والآن الأبد، والآن القدم. فالله هو وجود الأزل، ووجود الأبد، ووجود القدم بلا وجود الأزل والأبد والقدم، فإن لم يكن كذلك، ما كان وحده لا شريك له وواجب أن يكون وحده لا شريك له، كان شريكه هو الذي يكون وجوده بذاته لا بوجود الله[٤]، فيكون إذاً رباً ثانياً، وذلك محال، فليس لله شريك ولا ند ولا

---

(١) أورده المناوي في فيض القدير ونسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه [ج٦ ص١٨١] وقال: **فائدة:** سئل الصدّيق بمَ عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي. فقيل: هل يمكن بشر أن يدركه؟ فقال: العجز عن درك الإدراك إدراك. وسئل مصباح التوحيد وصباح التغريد علي كرّم الله وجهه بمَ عرفت ربك؟ قال: بما عرّفني به نفسه، لا يدرَك بالحواس ولا يقاس بالناس قريب في بُعده بعيد في قربه.

(٢) هذا الحديث سبقت الإشارة إليه.

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠٠٩) [ج٢ ص١١٩].

(٤) وفي نسخة [ومن يكن كذلك لم يكن محتاجاً إليه فيكون إذاً رباً ثانياً].

كفؤ، ومن رأى شيئاً مع الله تعالى، أو من الله، أو في الله، وذلك الشيء يحتاج إلى الله وبالربوبية، فقد جعل ذلك الشيء أيضاً شريكاً محتاجاً إلى الله بالربوبية، ومن جوَّزَ أن يكون مع الله شيء يقوم بنفسه أو يقوم به وهو فانٍ عن وجوده أو من فنائه، فهو بعد بعيد، ما شم رائحة معرفة النفس؛ لأنّ من جوَّز أن يكون موجوداً سواه قائماً به وفيه، يصير فانياً، وفناؤه يصير فانياً في فنائه، فيتسلل الفناء بالفناء، وهذا شرك بعد شرك، وليس معرفة للنفس؛ لأنه شركٌ لا عارف بالله، ولا بنفسه.

فإن قال قائل: كيف السبيل إلى معرفة النفس ومعرفة الله؟.

فالجواب: سبيل معرفتهما أن تعلم[1] أنّ الله عزّ وجل كان ولم يكن معه شيء، وهو الآن كما كان.

فإن قال قائل: أرى نفسي غير الله ولا أرى الله نفسي!.

فالجواب: أراد النبي ﷺ بالنفس: وجودك وحقيقتك، لا النفس المسماة باللوّامة والأمّارة والمطمئنة، بل أشار بالنفس إلى ما سوى الله عزّ وجل جميعاً.

قال عليه السلام: «**اللهم أرني الأشياء كما هي عياناً**». أشار[2] بالأشياء إلى ما سوى الله تعالى. أي عَرِّفني الذي سِواك، لأعلم وأعرف الأشياء، أي شيء هي؟ أهي أنت أم غيرك؟ أم هي قديم أو حادث؟ أو باقٍ أم فانٍ؟ فإن أراه الله ما سواه نفسه بلا وجود ما سواه من الأشياء، فرأى الأشياء كما هي، أعني: رأى الأشياء ذات الله تعالى بلا كيف، ولا أين ولا اسم. واسم الأشياء يقع على النفس وغيرها من الأشياء، فإنّ وجود النفس ووجود الأشياء سيان في الشيئية. فمتى عرف الأشياء، عرف النفس، ومتى عرف النفس، فقد عرف الرب؛ لأنّ الذي يظن أنّه سوى الله، ليس هو سوى الله، بل عين الله سوى الله تعالى، ولكنك لا تعرفه وأنت تراه، ولا تعلم أنك تراه، ومتى كُشف[3] لك هذا السر، علمت أنك لست ما سوى الله تعالى، وعلمت أنك كنت مقصودك ومطلوبك في طلبك ربك، وعرفت أنك لا تحتاج إلى الفناء ولا إلى فناء الفناء، وأنّك لم تزل ولا تزال بلا حين ولا أوان، كما ذكرنا من قبل، وترى جميع صفاتك صفاته، وظاهرك ظاهره، وباطنك باطنه، وأولك أوله، وآخرك آخره، بلا شك ولا ريب حين المعرفة، أما قبلها فلا ترى صفاتك صفاته، وذاتك ذاته بلا صيرورتك إياه، وصيرورته إياك لا بقليل ولا كثير، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾

---

(١) وفي نسخة [أن تعلم وتتحقق].
(٢) وفي نسخة [عبَّر].
(٣) وفي نسخة [يُكشف].

[القَصَص: ٨٨]، بالظاهر والباطن، يعني: لا موجود إلاّ هو، ولا وجود لغيره، فيحتاج إلى الهلاك ويبقى وجهه.

أعني: لا شيء موجود إلاّ وجهه، فكما أن من لم يعرف شيئاً، ثم عرفه، فأفنى وجوده بإفناء جهله، ما أفنى وجوده، بل أفنى جهله، ووجوده باقٍ بحاله من غير تبديل وجوده بوجود آخر، ولا ترك وجود المنكِر بوجود العارف ولا تداخل، بل ارتفع الجهل، فلا تظن أنك تحتاج إلى الفناء، فإن احتجت إلى الفناء، فأنت إذاً حجابه، والحجاب غير الله سبحانه، فيلزم من غلبة غيره عليه بالرفع عن رؤيته له. وهذا غلط وسهو، وقد ذكرنا من قبل أنّ وحدانيته حجابه وفردانيته لا غيره، ولهذا جاز للواصل إليه على الحقيقة أن يقول: «أنا الحق»، وأن يقول: «سبحاني» وما وصل واصل إليه إلاّ ورأى صفاته صفات الله، وذاته ذات الله، بلا صبران[1] صفاته ولا ذاته، داخلاً في الله ولا خارجاً منه قط، ولا أنّه فان في الله أو ولا باقٍ في الله، ويرى نفسه أنه لم يكن قط، ولا أنّه كان، ثم فُني، فإنّه لا نفس إلاّ نفسه، ولا وجود إلاّ وجوده، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقول: «**لا تسبُّوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»[2]، إشارة إلى أنّ وجود الدهر وجود الله ونزَّه الله تبارك وتعالى عن الشريك والند والكفؤ. وروي عن النبي ﷺ أنّه قال: «**قال تعالى: يا عبدي**[3]**! مرضت فلم تعدني، وسألتك فلم تعطني**»، وإلى غير ذلك، إشارة إلى أنّ وجود السائل وجوده، ووجود المريض وجوده، فمتى جاز أن يكون وجود السائل وجوده، ووجود المريض وجوده، جاز أن

---

(١) وفي نسخة [بلا كون].

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الأخبار عن السبب الذي من أجله..، رقم (٥٧١٤) [ج١٣ ص٢٢]، ولفظه: قال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار**».

(٣) وفي نسخة [يا ابن آدم. والحديث رواه مسلم في صحيحه، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن..، رقم (٢٥٦٩) [ج٤ ص١٩٩٠] وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الخبر الدال...، حديث رقم (٢٦٩) [ج١ ص٥٠٣] ورواه غيرهما.

ونص رواية مسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزّ وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا بن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي**».

يكون وجودك وجوده، ووجود جميع الأشياء من المكونات ـ من الأعراض والجواهر ـ وجوده، ومتى ظهر سر ذرة من الذرات، ظهر سر جميع المكونات الظاهرة والباطنة، ولا ترى الذرات سوى الله تعالى، بل وجود الذرات اسمها ومسماها، ووجودها كلها هو بلا شك ولا ريب، ولا ترى أنّ الله سبحانه خلق الأشياء قط، بل ترى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩] من إظهار وجوده وإخفائه بلا كيفية؛ لأنّه ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحَديد: ٣]. ظهر بوحدانيته، وبطن بفردانيته، وهو الأول بذاته وقيوميته، وهو الآخر بديموميته، وجود حروف الأول هو، ووجود حروف الآخر هو، ووجود حروف الظاهر هو، ووجود حروف الباطن هو، هو اسمه وهو مسماه، وكما يجب وجوده، يجب عدم ما سواه، فإنّ الذي يظن أنّه سواه، ليس سواه؛ لأنّه مُنزّه عن أن يكون غيره، بل غيره هو، هو بلا غيرية الغير مع وجوده في وجوده ظاهراً أو باطناً، ولمن اتصف بهذه الصفة أوصاف كثيرة لا حدّ ولا نهاية لها، فكما أنّ من مات بصورته، وانقطعت جميع أوصافه عنها المحمودة والمذمومة، كذلك من مات بالموتة المعنوية، ينقطع عنه جميع أوصافه المحمودة والمذمومة، ويقوم الله تعالى مقامه في جميع الحالات، ويقوم مقام ذاته ذات الله تعالى، ومقام صفاته صفات الله تعالى، ولذلك قال النبي ﷺ: «**موتوا قبل أن تموتوا**»[1]، أي اعرفوا أنفسكم قبل أن تموتوا. وقال ﷺ: «**لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه وبصره ويده ورجله**»[2] إلى آخره، فأشار إلى أن من عرف نفسه، يرى جميع وجوده سبحانه وجودَه، ولا يرى تغيّراً في ذاته ولا في صفاته، ولا يحتاج إلى تغير صفاته، إذ لم يكن هو موجوداً بذاته، بل كان جاهلاً بمعرفة نفسه، فمتى عرفت نفسك، ارتفعت أنانيتك، وعرفت أنّك لم تكن غير الله سبحانه، فإن كان لك وجود مستقل، لا تحتاج إلى الفناء ولا إلى معرفة النفس، فتكون رباً سواه، تعالى الله أن يوجد رباً سواه، ففائدة معرفة النفس: أن تعلم وتتحقق أنّ وجودك ليس بموجود ولا معدوم، وأنك لست كائناً، ولا كنت ولا تكون قط، ويظهر بذلك معنى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصَّافات: ٣٥] إذ لا إله غيره، ولا وجود لغيره، ولا غير موجود سواه، ولا إله إلاّ إيّاه. فإن قال قائل: عطلت ربوبيته، فالجواب: لم أعطل ربوبيته لأنه لم يزل رباً ولا مربوب، ولم يزل خالقاً ولا مخلوق، وهو الآن كما كان،

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٦٦٩) [ج٢ ص٣٨٤].

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

أترى خالقيته وربوبيته لا تحتاج إلى مخلوق ولا إلى مربوب، ولم يزل خالق عن خالقيته، ولا مخلوق عن مخلوقيته، بل لله الحكمة البالغة، فيفعل ما يشاء بقدرته، ويحكم ما يريد بحكمه، فهو قبل تكوين المكونات، كان موصوفاً بجميع أوصافه، وهو الآن كما كان، فلا تفاوت بين الحدوث وبين القدم، فالحدوث مقتضى ظاهريته، والقدم مقتضى باطنيته، ظاهره باطنه، وباطنه ظاهره، أوله آخره، وآخره أوله، والجميع واحد، والواحد جميع، كانت صفته ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩]، وما كان شيء معه سواه، وهو الآن كما كان، ولا وجود سواه بالحقيقة، كما كان في الأزل وفي القدم ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩]، ولا يوم ولا شأن، كما لو لم يكن في القدم لا شأن ولا يوم، ولا شيء موجود فهو الآن كما كان، فوجود الموجودات وعدمها سيان، وإلاّ لزم طريان طرأ في وحدانيته، وذلك نقص، وجلّت وحدانيته عن ذلك. فمتى عرفت نفسك بهذه الصفة من غير إضافة ضد أو ند وكفؤ وشريك إلى الله تعالى، فقد عرفتها بالحقيقة. ولذلك قال ﷺ: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»[1]، ولم يقل من أفنى نفسه فقد عرف ربه فإنّه عليه الصلاة والسلام عَلِمَ ورأى أن لا شيء سواه، ثم أشار إلى أن معرفة النفس هي معرفة الله تعالى، أي اعرف نفسك، أي وجودك أنك لست أنت، ولكنك لا تعرف، أي اعرف أن وجودك ليس بوجودك، ولا غير وجودك، فلست بموجود ولا بمعدوم، ولا غير موجود ولا غير معدوم، وجودك وعدمك وجوده بلا وجود ولا عدم؛ لأنّ عين وجودك وعدمك وجوده؛ ولأن عين وجوده عين وجودك وعدمك، فإن رأيت الأشياء بلا رؤية شيء آخر مع الله وفي الله إنها هو، فقد عرفت نفسك، فإن معرفة النفس بهذه الصفة، هي معرفة الله بلا شك ولا ريب، ولا تركيب شيء من الحدوث مع القِدَم وفيه وبه. فإن سأل سائل: كيف السبيل إلى وصاله؟ فأنت تقول: لا غيرٌ سواه، والشيء الواحد لا يصل إلى نفسه.

فالجواب: لا يُشك أنّه في الحقيقة لا وصل ولا فصل، ولا بُعد ولا قرب؛ لأنّه لا يكن الوصال إلاّ بين الاثنين، فإن لم يكن إلاّ واحد، فلا وصل ولا فصل، فإنّ الواصل يحتاج إلى شيئين متساويين أو غير متساويين، فإن كانا متساويين فهما شيئان، وإن كانا غير متساويين فهما ضدان، وهو تعالى منزّه عن أن يكون له ضد أو ند أو شبيه، فالوصال في غير الوصال، والقرب في غير القرب، والبُعد في غير البُعد، فيكون وصل بلا وصل، وقرب بلا قرب، وبُعد بلا بُعد.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

فإن قيل: فهمنا الوصل بلا وصل، فما معنى القرب بلا قرب؟ والبُعد بلا بُعد؟ فالجواب: أنّك في أوان القرب والبعد أنك لم تكن شيئاً سوى الله، ولكنك لم تكن عارفاً بنفسك، ولم تعلم أنك هو بلا أنت، فمتى وصلت إلى الله تعالى، أي عرفت نفسك بلا وجود حروف العرفان، علمت أنك كنت إياه، وما كنت تعرف قبل أنّك هو، أو غير هو، فإذا حصل لك العرفان، علمت أنّك عرفت الله بالله لا بنفسك، مثال ذلك: هب بمعنى أنك لا تعرف بأن اسمك (محمود)، أو مسماك (محمود)، فإنّ الاسم والمسمى في الحقيقة واحد، وتظن أن اسمك (محمد) وبعد حين عرفت أنك (محمود)، فوجودك باق، واسم (محمود) ومسمى (محمد) ارتفع عنك بمعرفتك نفسك أنك (محمود)، ولم تكن (محموداً) إلاّ بفنائك لاسم (محمد)، وهي نفس وجودك؛ لأنّ الفناء يكون بعد إثبات وجودك، فإن إثباتك وجودك مع وجوده شرك بالله سبحانه وتعالى، فما نقص بهذا المثال (لمحمود) شيء، ولا (محمد) فُني في (محمود) ولا دخل (محمود) في (محمد)، ولا خرج منه، ولا حل محمود في محمد فبعدما عرف (محمود) نفسه أنّه (محمود) لا (محمد)، فقد عرف نفسه بنفسه لا (بمحمد)، فإن (محمداً) لم يكن أصلاً، بل هو (محمود) على أصله «**كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان**»[1]، فكيف يعرف به شيئاً كائناً فإذا العارف والمعروف واحد، والواصل والموصول واحد، والرائي والمرئي واحد، والمحب والمحبوب واحد، والعارف صفته، والمعروف ذاته، والواصف والموصوف ذاته، والصفة والموصوف واحد. هذا بيان «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»[2]، فمن فهم هذا المثال، علم أنّه لا وصل ولا فصل، وعلم أنّ العارف هو المعروف، والرائي هو المرئي، والواصل هو الموصول، وما وصل إليه غيره، وما انفصل عنه غيره، فمن فهم ذلك خلص عن الشرك، وإلاّ لا يجد رائحة الخلاص عن الشرك، وأكثر العارفين الذين ظنوا أنهم عرفوا أنفسهم وعرفوا ربهم، وأنهم خلصوا من علقة[3] الوجود، قالوا إنّ الطريق لا يتيسّر إلاّ بالفناء وبفناء الفناء، وذلك لعدم فهمهم قول النبي ﷺ؛ ولظنهم أنهم يمحون الشرك بإشاراتهم طوراً إلى نفي الوجود. أي فناء الوجود، وطوراً إلى فناء الفناء، وطوراً إلى محق المحق[4]، وطوراً إلى الاصطلام، فهذه الإشارات كلها شرك محض، فإنّ من جوّز أن يكون شيء سواه، فيفنى بعد وجود

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.
(٢) هذا الحديث سبقت الإشارة إليه.
(٣) وفي نسخة [غفلة].
(٤) وفي نسخة [محو المحو].

فنائه[١]، فقد أثبت شيئاً ما سواه، ومن أثبت شيئاً ما سواه، فقد أشرك بالله تعالى. أرشدهم الله وإيانا إلى سواء السبيل، بمنّه وكرمه ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

قلت:

ظننت ظنوناً بأنك أنتَ ... وما أن تكون ولا قطُّ كنتَ
فإنْ أنت أنت فإنك ربٌّ ... وثاني اثنين دع ما ظننتَ
فلا فرق بين وجوديكما ... فما بان عنك ولا عنه بنتَ
فإن قلت جهلاً بأنك غيرٌ ... خشنت وإن زال جهلك لنتَ[٢]
فوصلك هجر وهجرك وصل ... وبعدك قربٌ بهذا حَسُنتَ
دع العقل وافهم بنور انكشاف ... لئلا يفوتك ما عنه صنتَ
ولا تشرك مع الله شيئاً ... لئلا تهون وبالشرك هنتَ

فإن قال قائل: أنت تشير إلى أنّ عرفانك نفسك هو عرفان الله تعالى، والعارف بنفسه غير الله، وغير الله كيف يعرف الله؟ ومن لم يعرف الله كيف يصل إليه؟ فالجواب: من عرف نفسه علم أنّ وجوده ليس بوجوده، ولا غير وجوده، بل وجوده وجود الله بلا صيرورة وجوده وجود الله تعالى، وبلا دخول وجوده في وجود الله سبحانه، ولا خروج وجوده منه، ولا كون وجوده معه وفيه، بل يرى وجوده - لا محالة - كان قبل أن يكون بلا فناء الوجود، ولا فناء الفناء، فإنّ فناء الشيء يقتضي ثبوته أولاً، وثبوت الشيء بنفسه يقتضي كينونيته بنفسه، لا بقدرة الله تعالى، وهذا محال صريح واضح، فتبيّن أنّ عرفان العارف بنفسه هو عرفان الله سبحانه وتعالى نفسه؛ لأنّ نفسه ليس إلاّ هو. وعنى رسول الله ﷺ بالنفس الوجود، فمن وصل إلى هذا المقام لم يكن وجوده في الظاهر والباطن وجوده، بل وجود الله تعالى، وكلامه كلام الله، وفعله فعل الله، ودعواه معرفة الله، هو دعواه معرفة نفسه، ودعواه معرفة نفسه، هو دعواه معرفة الله[٣]، ولكنك تسمع الدعوى منه، وترى الفعل منه، وترى[٤] وجوده غير وجود الله، كما ترى نفسك غير الله، لجهلك بمعرفة نفسك، فإنّ

(١) وفي نسخة [ويفنى بعده وجوّز فناء فنائه].
(٢) وفي نسخة [كنت].
(٣) وفي نسخة [معرفة الله نفسه بنفسه].
(٤) وفي نسخة [وترى غير الله].

المؤمن مرآة المؤمن، فهو هو بعينه، أي بنظره، فإن عينه عين الله، أي نظره نظر الله بلا كيفية، لا هو هو بعينك أو علمك أو فهمك أو وهمك أو ظنك أو رؤيتك، بل هو هو بعينه وعلمه ورؤيته.

فإن قال قائل: أنا الله، فاسمع منه لا من الغير، فإنّ الله جلّت قدرته يقول لنفسه بنفسه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۟﴾ [طه: ١٤] ولكنك ما وصلت إلى ما وصل إليه، فإن وصلت إلى ما وصل إليه، فهمت ما يقول، وقلت ما يقول، ورأيت ما يرى. وعلى الجملة: وجود الأشياء وجوده بلا وجودهم، فلا تقعن في الشبهة، ولا تتوهمن بهذه الإشارات أنّ الله تعالى مخلوق، فإنّ بعض العارفين قال: «الصوفي غير مخلوق»، وذلك بعد الكشف التام وزوال الشكوك والأوهام، وهذه اللقمة[1] لمن كان له حلق أوسع من الكونين، فأما من كان حلقه كالكونين فلا توافقه، فإنها أعظم من الكونين. وعلى الجملة: فاعلم أنّ الرائي والمرئي، والواجد والموجود، والعارف والمعروف، والموجِد والموجَد، والمدرِك والمدرَك واحد يرى وجوده بوجوده، ويعرف وجوده بوجوده ويدرك وجوده بوجوده، بلا كيفية إدراك ورؤية ومعرفة، وبلا وجود حروف صورة الإدراك والرؤية والمعرفة، كما أنّ وجوده بلا كيفية، ومعرفة نفسه بلا كيفية، وإدراك نفسه بلا كيفية، فرؤيته نفسه بلا كيفية.

فإنْ سأل سائل وقال: بأي نظر ننظر إلى المحبوبات والمكروهات فإذا رأينا مثلاً (روثاً) أو (جيفة) فنقول هو الله؟!! فالجواب: تعالى وتقدّس حاشا ثم حاشا أن يكون شيئاً من هذه الأشياء، وكلامنا مع من لا يرى الجيفة جيفة، والروث روثاً، بل كلامنا مع من له بصيرة، وليس بأكمه، فإن من لم يعرف نفسه، فهو أكمه وأعمى، وقبل ذهاب الأكمهية والعمى، لا يصل إلى هذه المعاني، وهذه المخاطبة مع الله، لا مع غيره، ولا مع الأكمه، فإن الواصل إلى هذا المقام يعلم أنّه ليس غير الله، وخطابنا مع من له عزيمة وهمة في طلب العرفان، وفي طلب معرفة النفس لمعرفة الله، وتطرأ في قلبه صورة الطالب[2] والاشتياق إلى[3] الله تعالى لا مع من لا قصد ولا مقصد له.

---

(١) وفي نسخة [وهذه اللقم].
(٢) وفي نسخة [الطلب].
(٣) وفي نسخة [الوصول].

فإن سأل سائل وقال: الله تعالى لا تدركه الأبصار وأنت تقول بخلافه، فما حقيقة ما تقول؟ فالجواب عن ذلك: جميع ما قلنا هو معنى قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي ليس أحد[١]، ولا بصر معه[٢] يدركه، فلو جاز أن يكون في الوجود غيره، لجاز أن يدركه غيره. وقد نبهنا الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] إلى أنّه ليس غيره سواه، يعني: لا يدركه غيره، بل يدركه هو وهو الله فلا غير إلاّ هو، فهو المدرِك لذاته بذاته لا غير، فلا تدركه الأبصار، إذ لا أبصار إلاّ وجوده. ومَن قال: إنها لا تدركه الأبصار؛ لأنها محدثة، والمحدث لا يدرك القديم الباقي فهو بعد بعيد، لا يعرف نفسه إذ لا شيء ولا أبصار إلا هو، فهو يدرك وجوده بلا وجود الإدراك، وبلا كيفية لا غيره ولهذا قلت:

عرفت الرّبَ بالرَب ... بلا شكٍ ولا ريبِ
فذاتي ذاتهُ حقاً ... بلا نقصٍ ولا عيبِ
ولا غيران بينهما ... فنفسي مظهر الغيبِ
ومن عرَّفته نفسي ... فلا مزجٍ ولا شَوبِ
وصلتُ وصول محبوبٍ ... بلا بعدٍ ولا قُربِ
ونلت عطاء ذي قدم ... بلا منٍّ ولا سببِ[٣]
ولا فُنيت له نفسي ... ولا تبقى لذوي[٤] ذوبِ
ولكن قد تعرّت منك ... عن عبد وعن ربِ

فإن سأل سائل وقال أنت تثبت الله تعالى، وتنفي كل شيء، فما هذه الأشياء التي نراها؟

فالجواب: هذه المقامات مع مَن لا يرى سوى الله شيئاً، ومَن يرى شيئاً سوى الله، فليس لنا معه جواب ولا سؤال، فإنّه لا يرى غير ما يرى، ومَن عرف نفسه، لا يرى غير الله، ومَن لم يعرفها، لا يرى الله سبحانه؛ وكل إناء بالذي فيه يرشح. فقد

(١) وفي نسخة [في الوجود].
(٢) وفي نسخة [مع أحد].
(٣) وفي نسخة [سلب].
(٤) وفي نسخة [له].

شرحنا كثيراً مثل هذا الكلام من قبل، وإن شرحنا أكثر من ذلك، فمن لا يرى، لا يرى ولا يفهم ولا يدرك، ومن يرى، يرى ويفهم ويدرك، والواصل تكفيه الإشارة، وغير الواصل لا يفهم[١] لا بالتعليم، ولا بالتدبير، ولا بالتقدير[٢]، ولا بالعبارة، ولا بالعقل، ولا بالعلم، الذي هو تحصيل الحاصل، إلاّ بخدمة شيخ كامل واصل، وأستاذ حاذق سالك فاضل ليهتدي بنوره، ويسلكه بهمته، ويصل به إلى مقصوده إن شاء الله تعالى، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه من القول والفعل والعلم والعمل والنور والهدى، إنّه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه المحبين وسلّم تسليماً كثيراً.

في بيان الطريق وبيان السالك والمسلوك إليه، وبيان علاماتها ابتداؤها السلوك وانتهاؤها الأول في انتهاء السلوك، وابتداؤها الآخر فإن لم تفهم هذه الإشارة ما شممت رائحة التوحيد وأصل المقصود وجود الدائرة المدورة لا خارجها ولا داخلها ابتداء الدائرة انتهاؤها وانتهاؤها ابتداؤها والدائرة طريق السير في الوجود في معرفة النفس. الوجود هو المنزل سعة تبتدي الطريق ولكنه لا يعرف ولا يعلم ويرى وجوده غير الله فمتى وصل نفسه أي وجوده بلا شك ولا ارتياب فتبين له سعة أنه كان واصلاً في الابتداء أو موصولاً ولكنه لا يعرف الوصول ولذلك قال النبي ﷺ: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»[٣] والنبي ﷺ عرف في الابتداء وسلك الطريق بالمعرفة ولهذا ابتداؤها انتهاء الصديقين وانتهاء الصديقين ابتداؤه ﷺ لأنهم عرفوا الأسرار في الانتهاء وشتان بين من تقدم في الابتداء ومن تقدم في الانتهاء فابتداء العشق وجود المقصود، وشوق إرادة المقصود، العشق. العشق هو والعشق أنت، ابتداء العشق الشوق وانتهاء العشق فافهم ذلك ليس في المقام مقام أعلا وأجل في الابتداء من العشق لأن جميع ما ذكرناه وجود العشق واسم العشق وصورة العشق ومعناه العشق ومقصود العشق، والدايرة وجميع ما داخلها وخارجها العشق، أعني العشق المعرى من العشق واسمه فافهم الشوق وجوده واسمه ليس بمحدث ولا بقديم بل هو هو بلا حدثان وقدم الشوق يصير في الابتداء عشقاً، وصاحب الشوق متى وصل إلى الانتهاء يرى شوقه

---

(١) وفي نسخة [يصل].
(٢) وفي نسخة [بالتقرير].
(٣) هذا الحديث سبقت الإشارة إليه.

عشقاً ويعرف أن شوقه كان وجود العشق، ولكنه لم يعرفه، ويرى جميع المكونات وجود العشق والمعشوق والعاشق، ولا يرى بينه وبين جميع المخلوقات تفاوتاً، ويرى جميع المخلوقات وجوده، ولا يرجح نفسه بالوصل على من لم يشم رائحة الوصول قط، ولا فرق بينه وبين الحيوانات والجمادات وبين الشيء وضده، وهذه صفة من يكون وجوده الموصول، لا صفة الواصل والوصال والوصل، ولا صفة العاشق والعشق بل صفة المعشوق، لأن التفاوت بين هذه الأشياء يكون في نظر من ليس له نظر بعد، وأما من له نظر فلا تفاوت بينهما بل الجميع سواء عند الله والله أعلم بالصواب.

تمت الرسالة الوجودية بعون الله تعالى ومنه وكرمه ولطفه
وبالله التوفيق والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

شجون المسجون وفنون المفتون

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد
ابن العربي الحاتمي
المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين

المقدمة

الحمد لله الذي ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السَّجدَة: ٨، ٩]، ثم وهب منهم البالغين العاقلين قدرةً واختياراً ليمتحنهم في كلّ حين، فهم بالخير والشَّرّ مُختَبرون، ليجزيهم بما كانوا يعملون.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبيَاء: ٣٥].

وتقديره: فيجازيكم بما تكسبون، فكُلُّ من يقع عليه الجزاء فهو داخل تحت الفتنة، مُعامَلٌ في سائر أوقاتِهِ بالمحنة؛ من كافر وشقيّ، ومؤمن وتقيّ، وصِدِّيقٍ ونبيّ. وإلى هذه الثلاثة أقسام تنقسم الأنام.

قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقِعَة: ٧ ـ ١١].

فهؤلاء كُلّهم ممتَحنون، ولمّا كان هذا العالم يفنى، ومن كرم الكريم أن جعلهم يعملون فيه لما يبقى، صيَّرهم لأفعالهم فاعلين، وأرسل إليهم رُسلاً مُبَشّرين ومُنذِرين، بعد أن مكّنهم ممّا خلقه كسباً لهم، وجعله لهم بإرادتهم واختيارهم إن شاؤوا مكتسبين. وشاء بمشيئته القديمة، أن تكون لهم مشيئة مُحدثة في كلّ حين، فوعدهم وتواعدهم على ما هم بمشيئتهم قد أصبحوا له عاملين. فهم في أفعالهم غير مجبورين، إلاّ ما شاء الله فهم عنه غير مؤاخذين، فآمن بقضائه وقَدَره جميع المقلّدين من المؤمنين، واعترف بعدله وفضله سائرُ العلماء المجتهدين، فهم أئمّة الدِّين، وورثة النّبيّين، والمهتدون الهادون بالكتاب المبين، فبيّنوا للنّاس ما به يعملون، إذا هم

ـ ما داموا في الدُّنيا ـ مُمتَحَنون. فأصحاب المشأمة بالخيرات الفانية مُختَبرون، وهم بها مُستَدْرجون من حيث لا يعلمون، وبالشُّرور الدّانية يُفتنون، لعلّهم يَتوبون ويتذكّرون، قال تعالى في حقّ هؤلاء: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السَّجدَة: ٢١].

وأما أصحاب اليمينِ فإنّهم مفتونون بالخيرات ليرغبوا في الأعمال الصّالحات، ومُمتَحنون بالشرور المختلفات لتكفير السَّيّئات، وفي حقّ هؤلاء قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥].

وأمّا المُقرّبون فإنّهم مفتونونَ بالخيرات ليكونوا من الشّاكرين، وبالشُّرور ليعودوا من الصّابرين. وفي حقّ هؤلاء قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمّد: ٣١].

فشرور أصحاب الشّمال نِقَمٌ وتنقيص، وشرور أصحاب اليمين تكفير وتمحيص، وشرور السَّابقين نِعَمٌ وتخليص، وخيرات أصحاب الشّمال حجابٌ وبَلْبَال، وخيرات أصحاب اليمين إعانة على الكمال، وخيرات السَّابقين مواهبٌ وأفضال.

فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ [فَاطِر: ٤٥] خاصّ بأصحاب الشّمال دون أصحاب اليمين.

كقوله مُخصّصاً: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤] وذلك من باب العقاب لا التّكفير.

وعليه يُحمَل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥] إلى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥]، فخاصٌّ بأصحاب اليمين، وهو من باب التّكفير لا العذاب، وإن كان حكمه حكم العقاب.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمّد: ٣١]، فخاصٌّ بالسَّابقين، وهو من باب تعظيم الثَّواب والفضل، كما لضدّهم من باب توفير العذاب بالعدل، فمصيبة أصحاب الشّمال تخسير وتدمير، ومصيبة أصحاب اليمين تطهير وتكفير. ومصيبة السَّابقين توقير وتوفير. وقد بيّن الله تعالى بفرقانه فرقاناً بين مصيبة التّكفير ومصيبة التّوفير، في آية يعقلها الخبير، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

[آل عِمرَان: ١٦٥]. فكلٌّ من عند الله بقضاءٍ وقدر وعدل من الله. ومَن يكفر بالله يُضِلَّ قلبه بفتنتهِ، ومَن يؤمن بالله يَهدِ قلبَهُ بمصيبتهِ، والمُغيِّرون يُغيّر الله ما بهم من فتنتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ [الرّعد: ١١] عقاباً لهم على ما قدَّموه من سوء الأعمال ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرّعد: ١١].

فسائر أفعاله تعالى مع عباده؛ إما فضل، وإما جزاء بما كانوا يعملون، ذلك أن لم يكن ربُّك مهلِكَ القُرَىٰ بِظُلْمٍ، وأهلُها مُصلِحُون، فسُبْحَان من خلق الفِتَنَ المختلفات من الشّرور والخيرات، وامتحن بها عباده في سائر الأوقات، ومكّنهم من اجتناب السَّيّئات، واكتساب الحسنات، ليفوزوا إن اختاروا وعملوا بالباقيات الصَّالحات، وهداهم بالعقول باطناً إلى أفضل السُّبل، وأرسل إليهم ظاهراً ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النّساء: ١٦٥]. فلينظر الآن هذا الإنسان المأخوذ بالافتتان في كلّ آن، الممكن من الاكتساب في كل مكان، وَلْيَنْهَ نفسه عن الهوى ففيه الهوان، وَلْيَدْعُ الله تعالى في سائر الأحيان، راغباً في الجنَّةِ والرُّضوان، راهباً من الغضب والنّيران، والحمد لله المنّان، والصَّلاة والسَّلام على سيّدنا محمّد وآله وصحبه في كلّ زمان، من كلّ إنسان، بكُلِّ لسان.

أمّا بعد، فإني لمّا رأيت العالم بأسرهم مفتونين، وبكَسْبهم مُثابينَ ومُعاقبين، ورأيت من تمام النِّعمة عليهم، أن فُتنوا بكلّ ما لديهم، وفوّض أمرهم في الاكتساب إليهم، اعتراني دَهَشٌ في طرب، وعُجْبٌ في عَجَب، وكنت على حالة أظنُّ الفراق، ولا أجد لدائي من راق، فأوصيتُ من حضر ليكتب ما خطر، فليتأمّل ذلك من يراه، ففيه له غنية إن شاء الله.

شعر: [من الطويل]

ومُمْتَحِني في كُلِّ آنٍ وَحَالَةٍ ... يَراني أُسِيءُ الصُّنعِ أو أُحْسِنُ الصُّنعا
فَهذي حَياتي كُلُّها ليَ مِحْنَةٌ ... فَهَلْ لَذَّ لي يوماً مُعَاشَرَةُ الأفعى
دَعَاني بأَمْرٍ مِنْهُ دَاعٍ إلى الهَوَى ... وَدَاعٍ إلى التَّقْوى دَعا وَحْيُهُ شَرْعَا
وَأَوْجَدَ لي مَيْلاً إلى كُلِّ وَاحِدٍ ... وَقُدْرَة مَقْدورٍ قَديرٍ إذا يُدْعى
وقالَ: جَعَلْنا ما عَلى الأرْضِ زِينَةً ... لِنَبلُوَهُمْ فانظُرْ لنفْسِكَ ما تَسْعى
فهذا وُجودُ الامْتِحان فَكُنْ فَتًى ... يجانِبُهُ ضُرًّا ويَصحبُهُ نَفْعا

فـمـا فـيـهِ إلاَّ مُـبْـتَـلًـى وَبَـلِـيَّـةْ فَخُذْ بالتُّقى عَقلاً وعَاصِ الهَوى طَبْعا
وذَرْ راحةً تَفْنى وَخُذْ بِنَصيحَتي وشَمِّرْ لهَا عَزْماً وألْقِ لها سَمْعا
وإنْ ماطَلَتْ أو إنْ وَنَتْ نَفسُكَ اسْتَغِثْ بِمَنْ عَنْ هَواها يَستطيعُ لها مَنْعا
وَسَلْ باطِناً مِنْهُ الغِنى عن غِنى الوَرى فلمْ يَغْنَ مَن لمْ يَغْنَ عَنْ بَالِهِمْ قَنْعا
ولا تَنظُرَنْ إلاَّكَ مُمْتَجِناً بما لَدَيْكَ وجَاءَ الموتُ يقطعُهُ قَطْعا

ثمّ بعد ذلك شفاني الله تعالى من ذلك المرض، فعدت إلى ما أعتقد أنّه نهاية الغرض، وهو الاجتهاد في فهم معاني كتاب الله، من غير عدولٍ إلى تقليد أو ميل عنه إلى شيءٍ سواه، فلمّا كمل ما ظفرتُ به منه، وفهمته عنه، طلبني ملك الوقت ببأسٍ شديد على خيل البريد، من مسيرة خمسة عشر يوماً، وطلبَ منّي علماً لا قِبَلَ لي به، ثم سجنني عاماً بسببه، فجمعتُ لنفسي تذكرة بما وصل إليَّ، وفتح عليَّ، وسمّيتها: «شجون المسجون وفنون المفتون»، ولم أقيّد التَّرتيب فيها على وفق الواجب بل جمعتها جمعَ الحاطب، ليكونَ كلّ فصل قائماً بنفسه، يستفيد النَّاظر له بحسب نظره وحَدْسِهِ، وجعلتها ثلاث أبواب، لأنّها زبدة ما فهمته من الكتاب. الباب الأوّل في العمل، الباب الثّاني في العامل، الباب الثالث في المعمول له. وكُلّ باب فيه ممّا قبله، وبذلت جهدي في كشف ما عندي نصيحة لمن يراه، وحسبي الله.

الباب الأول
في العمل

اعلم أنّ الخواطر تعرض على القلب، وتنجلي بسرعة، فهي ممّا يخصّ القلب ممّا هو خارج عن قدرة الإنسان، فالخاطر هو ما لا يثبت إلاّ أن يربطه الإنسان. والرّاتب هو من الرّواتب التي تلزم القلب لزوماً راتباً، لا تكاد تقلع عنه، والعقائِبُ هي ما تعقب أفعالاً من الإنسان. فالخواطر إذا مدّت بالفكر تأدّت إلى الرَّواتب، فإذا امتدّت بالعزم تأدّت إلى العقائِب، فإن أعرض عن الخواطر مرّت كما تمرّ الرّيح، فلا يكون لها أثر، فالعقائِب قد تحدث على سبيل الجزاء، لأنّها تحدث بعقب الرّواتب التي تربطها الفكر، ولقد كانت أوّلاً خواطر، وهذا يعطي وجوب ملازمة القلب، لأنّه من باب الهُدى والضّلال وصاحب الكسب ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٥].

ولمّا كان ابتداء كلّ شيء إنّما هو من جهة القلب، وهو من جهة هذا الخاطر المتقلّب الّذي من أجله سُمّي القلب قلباً، وإن انضاف إلى ذلك غيره في سبب التّسمية، فنقول: إنّ من الخواطر ما يعرض من جهة المزاج مميّلاً إلى ما يوافق، فهذا إذا تمكّن سُمّي شهوة، وضدّه نفرة، ومنه ما يعرض لنيل رتبة، فإذا تمكّن سمّي همّة. ومنه ما يعرض باعثاً على فعل، فإذا تمكّن سمّي مشيئة. ومنه ما يعرض باستعجال اللّقاء فإذا تمكّن سمّي شوقاً. ومنه ما يعرض بتثبت حكم، أو شيء على ما هو عليه. فإذا تمكّن سمّي علماً. وإن كان متردّداً سمّي شكًّا، فإن عرض بذكر ما لا حقيقة له على سبيل الثّبات سمّي جهلاً. ولجميع الأخلاق والخصال خواطر، متى تمكّنت سمّيت بأسماء تخصّها.

واعلم أن منزلة الخاطر منزلة سماع صوت يقرع سمعك، ويمرّ، وتمرّ عنه، فكما لا يلزمك سماع ما يكون من كذب، أو محال إثماً، ولا يلحقك في ذلك لوماً، ولو كان ذلك بالعكس، فإنّه لا يفيدك بمجرّد سماعك إيّاه أجراً، إذ لم تقصد لشيء من ذلك، فكذلك الخواطر، إذا لم تبعثها ببالك، ولم تعد راتبة، لا يعقبها شيء،

وإنّما يجتهد الصِّدّيقون فيما يقوّي فهم خواطر الخير، ويقطع عنهم خواطر الشَّرّ، لأنّها أزمة القلوب، وفواتح الأعمال، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١]، أي اقتدوا بالذِّكر، وهو القرآن، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فإذا أبصروا نهوا نفوسَهم. والطّيف أوّل النّزعة مثلما يعرض منه بالطَّيف الذي هو خيال يُرى في النَّوم، لا حقيقةَ له يُنسَبُ إلى المحبوب سوى صورة ما، فافهم هذا جيّداً.

واعلم أنّ اللَّمَّةَ من قولهم: ألمَّ بمكان كذا: إذا نزل به على غير إقامة، ولا يُقال ذلك لمن مرّ عليه، فافهم قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النّجم: ٣٢] فليس المراد بالاستثناء أنّهم لا يجتنبون اللَّمَمَ، بل معناه أنّهم يجتنبون الكبائر، لكن إن نزل أحدهم بصغيرة فإنّه لا يقيم عليها، بل يقلع عنها عاجلاً، فالخاطر الّذي يجرُّ إلى حديث النَّفس هو لَمَّةٌ من الشيطان، إذ هو بمنزلة المنزلة التي لا إقامة فيها، ولا يقال ذلك على الخاطر الّذي لا يجرُّ إلى حديث النَّفس، لأنّ ذلك مرور لا نزول، فإن نزل فهو إلمام. فإن أقام فهو إغواء، لأنّه ممدود، ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، فقد صار بمنزلة العقابِ، عوقب به صاحبه لربط الخاطر الأوّل، فليس لعاقل أن يستهين بأوّل خاطر فينقاد له، فإنّ ذلك يستدرج إلى ذهاب معرفة الله من قلبه، ويبقى رِقًّا لشياطين شهواته ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبإ: ٤١]. وعلامة ذلك أن يثقل عليه عمل الآخرة وإنْ خفَّ، ويخفّ عليه عمل الدُّنيا وإن ثَقُلَ. والدُّنيا عبارة عمّا يفنى فاعرفها، فمن أحسَّ بشيء من ذلك فعليه بالجِمْيَةِ من جميع الخواطر كما يُحمى المريضُ المُدْنَفُ، وليعد إلى حفظ قلبه وحراسة فكره ليلاً ونهاراً حتّى يرجع، يجد هذه الحراسة دأباً له، نوماً ويقظةً، ويتحقّق الشِّفاء كما كان يتحقّق ضدّه، ثمّ يستمرّ حذراً، فمتى لم يدفع الخاطر بجهد شديد وحراسة دائمة كان أشدّ عدواً، وهذا أفضل جهاد وأبلغه. ومن أراد ذلك فليبتدر إلى ثلاث خصال:

الأولى: مبادرة كلّ خير يخطر بباله، فإنّه بمنزلة البَذْر.

والثّانية: منع الشَّهوات والإسراف في الأكل والشّرب والنّوم.

الثّالثة: مجالسة العلم.

وأنت إذا اعتمدت على ما أوصيتك به من مراقبة الخاطر، علمت من هناك جميع ما تحتاج إليه، واستغنيت عن هذا الكتاب وعن مثله من كلّ وصيّة وعلاج. ومن جرّب رأى وصدّق، ومن عزّ عليه هذا الأمر فعليه بالذِّكر.

واعلم أنَّ حديث النَّفس هو ذِكْرٌ من فعل الإنسان يطابق الخاطر، وأنَّ في القلب ضروباً من الأذكار ليست بمنزلة حديث النَّفس، بل يحتاج الإنسان أن يتكلّف لها من الحضور ما يشهد به حاله، فيصدق عند نفسه، لأنّه يرى الكائنات تذكر معه بذِكره، إذ يرى حاله فيها، فلا يحسبنَّ النّاظر في هذا الكتاب أنّ مجرى الأذكار كلّها مجرى حديث النّفس، فيشتبه عليه وجه الصَّواب فيكون ذاكراً ناسياً.

واعلم أنَّ كلّ عمل لا بُدَّ أن يتقدّمه علم، وأنَّ باب كلّ علم إنما هو من القلب، وهو من هذا الخاطر، وإذ قد فهمت من الجملة المتقدّمة أنّ الخاطر لا يعتدّ به، بل هو يمرّ أبداً، يحكي شيئاً وضدّه وغيره، حتّى كأنّه يحكي مرور العوالم من الخيرات والشّرور، فمتى ربط الفكر خاطراً ما كان هذا من كسب القلب، ثمّ صار هذا الخاطر الأوّل المربوط بالاختيار من الرَّواتب، ومن هاهنا إن لم يقطع صار مؤدّياً إلى العقائب فيعاقب به القلب أو يُثاب بحسب ذلك الاكتساب. فمن أوّل خاطر يبتدىء يجب أن تلحظ كسبك، فإن كان ممّا يفنى فهو عليك، وإن كان ممّا يبقى فهو لك. ومن عرف الكتاب العزيز عرف به الخواطر، فكان بهذا السّير على صراط مستقيم لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فأوّل سلوكِ الصّراط المستقيم هو اعتبار أوّل خاطر يخطر في القلب، فمتى لم تجده راجحاً في العقل بحكم الكتاب رجعتَ عنه، فهذا الرُّجوع سلوك في الصّراط لأنّه تذكّر عند مسّ طيف من الشّيطان، وهذا ينبوع الأعمال، وأوّل الكسب، وبدء النُّور والظُّلمة، ومنشأ كلّ خير وشرّ، وأوّل الإرادة والاختيار والمشيئة الّذين من أجلهم كنتَ مكتسباً، وبهم ظهرتَ، ولولاهم ما أُمِرْتَ ولا نُهيتَ، ومن هاهنا ظهرت فضيلة الرُّسُل والكُتب، ولزم الامتحان، فكُن أبداً واقفاً على صراط مستقيم، ملازماً حراسة قلبك أن تربط به خاطراً أوّلاً مذموماً فتجعله راتباً، فهذا أوّل كسبكَ، ومن هنا تبدأ العقائب ويستمرّ الأمر حتّى يقع الطَّبْعُ على القلب بالكسب، وسُمّي طبعاً لأنّه يصير بمنزلة الطّباع للإنسان. لأنَّ الانتقال عن الطّباع عسير جدًّا إن أمكن، فيكون هذا قد طُبِع على قلبه بكسبه. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين: ١٤]، ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النّساء: ١٥٥]، فافهم هذا جيّداً، وقِفْ معه ولا تهمله، أو تغفله، أو تُسامح أو تنسى، أو تغلط، أو تتأوّل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النّساء: ٨١]، واسأل الله تعالى ذلك بالتّالِ والحال في كلّ آنٍ وحال.

مَحاسن باب الخير والشّرّ، وأُسُّ النّفع والضّرّ، وأصل الأوّل والآخر، وجملة الباطن والظّاهر، منوط بالفكر من كلّ إنسان، نوماً ويقظةً في كلّ آن، فَنَزْهُهُ عن

الاشتغال في القول والفعال، والقطع والوصال، وفي سائر الأحوال، ولو في لمحة خيال. فالدَّنيّ الدَّاني هو الأوّل الفاني. والسَّنيُّ هو الآخر الثّاني، ولقد وضع المعاني تعلّقها بالمباني، كما رفع المباني تضمّنها للمعاني، وهنا يقال: نظم:
[الخفيف]

نَـزِّهِ الـفِـكْـرَ عـن مَـحَـلِّ الـفَـنَـاءِ ... إنَّـمـا الـفِـكْـرُ سُـلَّـمٌ لـلـبَـقـاءِ
حَـيْـثُ فَـكَّـرْتَ أنْـتَ ذَلـكَ فـافْـقَـهْ ... مـا الَّـذي فـيـهِ فِـكْـرَةُ الـفُـضَـلاءِ

موعظةٌ وعلاج:

كيف تستمدُّ لطائف المعارف ووجهُ قلبك مُتوجّهٌ إلى كثائف المآلف؟ وكيف ترحل إلى أوج المواهب والعوارف، وأنت مُثابر على حضيض العوائد والمتالف؟ وكيف تجول في ميدان السَّرائر، وفكرك محصورٌ في سجن الظَّواهر؟

وقال: نظم: [السّريع]

اجْـنَـحْ إلـى قَـلْـبِـكَ واعـمـل عـلـى ... أنَّـكَ لا تُـفْـكِـر فـي الـفـانـي
وغُـصْ إلـى الـبـاطِـنِ عـن ظـاهـرِ ... لـتـعـرفَ الأوّلَ بـالـثّـانـي

إيضاح ووصية:

الفكر سلّم القلب، فإن رقي به إلى الظَّاهر انقطع، لأن حَدَّه الأجسام، والفاني وإن رقي به إلى الباطن فلا حدَّ له، بل يستمرّ في إدراك المعاني، ويوصله إلى كلّ أوّل قطعه للثاني، فإذا بلغت هذا المقام ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤].

وقال في المعنى: نظم: [السّريع]

وَوَجِّـهِ الـفِـكْـرَ إلـى داخِـلِ ... واجْعَلْ نَصيبَ القَلْبِ قَطْعَ النَّصِيبْ
مـا بَـعُـدَ الـمَـغْـشـوقُ مِـن عـاشِـقٍ ... وَكُـلُّ قَـلْـبٍ فـيـهِ مَـأوى الـحَـبـيـبْ
فـاقْـطَـعْ عَـنِ الـقَـلْـبِ جـمـيـعَ الَّـذي ... يَـقْـطَـعُـهُ عـنـكَ وأنْـتَ الـقَـريـبْ

علاج:

الشَّهوةُ تُطفىء نار الفكرة الرَّديئة، كما تُطفىء نور الفكرة الصّالحة، فاجتَنبْها داءً، واستعملها دواءً.

نبأ:

الملائكة يشهدون بالذِّهن ما يشاهده البشر بالفكر.

مضارع:

أوّل خاطر كأوّل نظرة ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طٰه: ١٣١].

حماية:

كيف تغيب إذا جعلت ما يغيبك مُحْضَراً، وما ينسيك مذكراً.

معين:

هو الصَّبر في كلّ آن، قَدَرُكَ صَبْرُك، صَبْرُكَ سِرُّك، إنّما أتيت لتصبر.

نظم: [الطويل]

إذا ما حَياةُ المَرْءِ زيَّنَها الصَّبْرُ ... فَقَدْ لَذَّ لي عُسْرٌ كما لَذَّ لي يُسْرُ

وعادَ الرِّضا في السُّخْطِ والقُربِ والنَّوى ... وفي المُرِّ حُلْوٌ والَّذي يُشْتكى شُكْرُ

إخبار:

مقدارُ كُلِّ امرىءٍ حديثُ قلبه.

تيقُّظ:

قد يخطر بالبال في بعض الأحوال أنَّك كأحد الرِّجال بمجرّد المقال، مع الغفلة عن المحاقَّة في الأفعال، فتظنّ من أجل معرفتك بما يجب أن تكون عليه من الحال أنَّك كامل في الأحوال، وهذه حالة الشُّعراء الذين هم ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٥، ٢٢٦].

حجّة:

يا هذا! أنت إذا نِمْتَ ذهبت عنك هذه الدَّعاوى كلّها، ولا تقدر أن ترى ما تريد، وسلك بك في مسلك من الكذب والأمثلة، أو في حالة عدميّة مهملة، فكيف إذا مِتَّ.

وَصيّة:

ما لك من عمرك إلاّ ما صفَا، وليس مع أخلاط الجماعات صفوة، ولا مع كثرة المال فراغ.

لا تسمح بأوقاتك للبطالة، ولا للبطّالين، ولو كبرت مرتبتهم. إن لم تَخْلُ من كلّ ما شغلهم لم تُشرق فيك أنوار الصَّفاء.

ليس في هذه الدّار موضع خلوة، فاتّخذهُ في نفسك. ليست الشَّواغل بضارّة لك إذا خلوتَ منها وأنت فيها، قد تحصل الخلوة في الجمع، لكن لمَن قُواهُ لا تفتر ولا تفترق، فلا تقفنَّ مع مألوف، ولا تثِقَنَّ بمعروف، ولا تتّكِلَنَّ على أحدٍ أو شيءٍ، وانظر إلى كُلّ كأنّه عدوٌّ لك ولا بُدَّ من صداقته، ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] ادْفَعْ بالّتي هِيَ أحْسَنُ، وكن واحداً كاتماً غنيًّا بذاتك لا من الخارج، واحذر أن يقيّدك حال أو قال أو مال أو آل، فإنّما تصل بالتّجريد عن كلّ ما تريد.

واعلم أنَّ كُلَّ مُرادٍ لك سوى رضوان الله تعالى هو بمنزلة إلهٍ، والسَّابق قد قطع العلائق، وإنّما التَّقرّب بالصُّور من شعار المشركين، إنّما نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبونَا إلى الله زُلْفَى، ومن تبرّأ من هواه شهد أن لا إله إلا الله، وهذا الفَخّار مصيره إلى الانكسار.

كشف مفضح ولفظ مفصح:

في سوس النُّفوس عشق كامن، هو سِرٌّ باطن، فمتى علّقته بمعلوم سَلبَ وجَذبَ، حتّى غلب وحجب، فاحذر التّقيّد بالصُّوَر ممّا بطن وظهر، ولو عَلا في حُسنه وبهر ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ [فُصّلَت: ٣٧].

حديث:

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أدْنَى أهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ ينظرُ إلى جِنانه، وأزواجِهِ، ونعيمِهِ، وخدمه، وسُرُرِهِ، مَسِيرة ألف عام، وأكرمهم على الله تعالى من يَنظر إلى وجهه بكرةً وعَشيّة**»[1].

تحقيق:

اعلم أنَّ المتأمّلَ لهذا الحديث من المؤمنين به لا يرضى أبداً أن يكون أدنى، وهو يقدر أن يكون أكرم، وتحقيق ذلك أنَّ ما هو هناك مبنيٌّ على ما هو هنا، فمن كان من المؤمنين هاهنا نَظَرُه إلى جِنانه وأزواجه ونعيمه، وغير ذلك، فهو هناك كذلك، ومَن كان قلبه مع الله تعالى، وهو دائم النَّظَر إليه، معتمداً رضاه فيما فرضَ عليه، فهو أيضاً هنالك على مثل ذلك، فاختر لنفسك ما شئت، فَستُرَدّ إلى ما رضيت، أو تهوي إلى ما هويت.

---

(١) رواه الترمذي في جامعه الصحيح، حديث رقم (٢٥٥٣) [ج٤ ص٦٨٨] ورواه أبو يعلى في مسنده، مسند عبد الله بن عمر، حديث رقم (٣٣٣٠) [ج٥ ص٤٣١] وحديث رقم (٢٥٥٣) [ج٤ ص٦٨٨]. ورواه غيرهما.

نظم: [دوبيت]

يـا مُـمْـتَـحـنـاً بـكُـلِّ مـا بـيـنَ يـديـهِ والأمـرُ مِـن الآمِـر قَـد رُدَّ إلَـيْـهِ
مـهـمـا كـسـبـتْ يـداهُ فـي عـالـمـهِ هذا فهناكَ يرجعُ الكسبُ عليهِ.

فصل:

اعلم أنّ إنساناً نام عن وِرْدِهِ، فرأى في منامه كأنَّ ولده سقط من علوّ، فانزعج واستيقظ مبادراً إلى الحمد والصَّلاة شكراً لكونِ ما أصابه إنّما كان في المنام، فَضُرِبَ له مثال اليقظة بما رآه في الأحلام، وتحقّق أنَّ مصائب الدُّنيا في الأهل والولد والمال، وفي سائر الأحوال، إنّما هي جواذب ودواع أنعم الله بها على الغافلين ليُجيبوا الدّاعي، وليس الأمر بالحقيقة في يقظته، إلاّ كما رآه في نومته، وكذلك حال مَن نُبِّهَ من غفلته، في نومه أو يقظته، بنعمته أو نقمته، كلّ ذلك الشَّيء داعيةٌ إلى الله، وجواذب إليه عمّا سواه، وهذا ممّا يجب أن يُشاهد في كُلِّ آن، فهو أنفع ما وَلَج في سمع إنسان، ولقد تكرّرت به أمثال كثيرة في القرآن.

نظم: [الكامل]

يـا مَـنْ شُـغِـلْـتَ بـهِ عَـنِ الأشْـيـاءِ وَحَـلَـتْ بـهِ لـي فـي الـهَـوى بَـلْـوَائِـي
كُـلِّ إلَـيْـكَ يَـقـودُنـي بِـجَـواذِبٍ عَـنّـي مِـنَ الـسَّـرّاءِ والـضَّـرّاءِ
طـابَ انْـتِـهـاكـي فِـي هَـواكَ ولَـذَّتـي جَـمْـعـي عَـلَـيْـكَ بِـفُـرْقَـةِ الأهـواءِ

مِثال:

اعلم أنّه كما تقدّم علم الرَّائي في منامه ما سيقع قبل وقوعه، ولم يَجُزْ أن يُقال: إنّ العلم أوجبَ وقوع الواقع، أو الواقع تبع العلم، فكذلك فُهِمَ بهذا المثال أنّ الموجب لوقوع الواقع من الإنسان ليس هو العلم القديم، بل العلم القديم تابع للمعلوم، وإن تقدَّم، كما أنَّ علم الرُّؤيا تابع للمعلوم، وقد تقدّم. فاتخِذْ ذلك ميزاناً، واجْعَلْهُ لك بُرْهاناً.

نصيحة شافية:

إذا اشتبه عليك أمر فلم تعلم هل هو ممّا يجب أن يُرْغَبَ فيه، أو عنه، فاخطر ببالك خطور باغت الموت، إذ لا محيص عنه، ولا مهلة، فإن كان ذلك الأمر ممّا يبقى معك في ذلك الآن، فابقَ معه، أو ممّا يفارقك ففارِقْهُ.

نظم في مثل ذلك: [السريع]

يا مَن تَقَضّى عُمْرُهُ في ضَلالْ ... ويَدَّعي ما تَدَّعيهِ الرِّجالْ
يَسيرُ سَيْرَ القَوْمِ في زَغْمِهِ ... وحالُهُ من غير شَكٍّ مُحالْ
عِنْدِيَ واللّهِ الدَّواءُ الّذي ... يَشفي مِنَ الدّاءِ الدَّوِيِّ العُضالْ
افرضْ بأنَّ المَوْتَ عاينتَهُ ... وقَدْ تَقَضّى كُلُّ قيلٍ وقالْ
وعَادَتِ الدُّنيا ولَذّاتُها ... حَقيقَةً بالمَوْتِ شبه الخَيالْ
فَكُنْ على ذلكَ واعملْ لَهُ ... في كُلِّ آنٍ وعَلى كُلِّ حالْ

تقوية:

إن عجزت عن ذلك لضعفٍ أو إلف أو غير ذلك، فعليك بالإخلاصِ في الدُّعاء إلى الله تعالى، الذي لا شكَّ تعرفه إذا وقعت في خطبٍ جسيم، وهولٍ عظيم، وتقطّعت بك فيه الأسباب، وغُلّقت دونك الأبواب، أوَما تراك كيف تدعو بحضورٍ لا غيبة به، وتَوَجُّهٍ لا التفات معه، ووُجهةٍ لا شركة فيها، فإنَّك لا تدعو معدوماً، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤١].

زيادة:

أُدْعُ الله الذي لم يتناهَ في الأوهام بتقدير، ولم يمثُلْ في الأفكار بتصوير، ولم تستخرجْهُ نتائج العقول بالأفكار، فتجعله شبحاً محدوداً لا شخصاً مشهوداً، ولا وقّتَتهُ الأوقات، فأجرت عليه الأزمنة، ولا أحاطته الجهات فتضمّنته الأمكنة، بل هو الفاطر أبداً، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

مَثَل وتفهيم:

الفِكر كالعبد إذا لم تكدُّهُ مَرَدَتْهُ البَطالة، وإنّما تنقسم الأفكار بتقسيم المآرب. والموحد بالفكر من جعل الهموم همًّا واحداً، ففكّرْ فيه.

فأوّل ذلك: أن يفكّر في عيوب نفسه ومساقط هواه، وما يحتاج إلى تكملتها به، فإنَّ الغرضَ سلوك سبيل الأنبياء؛ وسبيلهم سياسة البلدان والسُّكان، ومَن لم يَسُسْ نفسه كيف يسوسُ العباد، ومن لم يَسُس بَدَنَهُ كيف يسوس البلاد.

الثاني: إذا خلا بنفسه بعد معرفتها وإصلاحها فلا يفكّر في شيء من أمور الطّبيعة وليُمِتْ نفسه عن كُلِّ رذيلة ليَحيا بالفضيلة، وليعلم أنّه إذا خلا بنفسه، وتخلّى

بسوسهِ، تختال الطّبيعة في جذبه إليها، وكلّما لاح لطيف روحانيّ باقٍ جذبت بمثله إلى كثيف جثماني فانٍ، فليجذف ولا يظرف.

وليعلم المَغلوب بكثرة الوساوس والأفكار، أنّه لا يفيده الهرب منها، لأنّه إنّما يقطعها حيناً، وتقطعه أحياناً، وإنّما يفيده الهرب من الحظوظ، فإذا قطعها انقطعت عنه الأفكار، ولا ينال ذلك إلاّ بحزم، وعزم صادق على الموت.

مثال:

الصِّدق له وجهان؛ أحد وجهيه ما كسبه بالمجاورة، والآخر كبقيّة الأحجار، وكذلك القلب.

تعليم:

صور الأمور الدينيّة كصور المشمومات، فلا تحصل من صور المشمومات مهما قدرت، وأنت لا تفرّق بين رائحة كل واحد ورائحة الآخر، فإنّ المقصود بالصُّور الأرايح.

فصل:

إنَّ وراء نطاق النُّطق ما هو أدقُّ من أوتار العنكبوت.

نظم: [الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ الـبَـدْرَ يـنـظـرُ وَجْـهَـهُ بِصَـفْـوِ غَـديرٍ وَهْـوَ فـي أُفْـقِ السَّـمـا

مثال:

اعلم أن كشف الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ يُمثَّل بالسِّراج في آحاد البيوت ليلاً، وكشف الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ بمنزلة نور الشَّمس العام على الموجودات نهاراً. والنّاس بمنزلة الطُّيور المُستعلي بعضها على بعض بحسب القُوَّة المعطاة لكلّ واحد منهم من حيث جنسُهُ وخلقتُهُ، فشتّان بين النَّاظِر بالنُّور السُّفليّ جزئيًا، وبين النَّاظر بالنُّور العُلويّ كُليًا، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: ٤٠]. ومُرادُنا بالجَعْلِ هاهنا يرجع إلى النُّور الخارج، لا إلى نور البَصر، لأنَّ نورَ النَّارِ هاهنا من جَعْلِ البشر، ونور الشَّمس من جَعْلِ خالِقِ الشَّمس والقمر.

تلخيص:

الأُبُوَّةُ قسمان: أبٌ روحانيّ، وأبٌ جسماني، فلو كانت السَّعادة تحصل بالأب الجسمانيّ لسعد بها اليهوديّ والنَّصرانيّ، فالأب الرُّوحانيّ على التَّمام هو النبيّ عليه الصّلاة والسّلام، ونحن في بطن الكون كالجنين، والتَّكاليف الشَّرعيّة تكمل الصُّورة الرُّوحانيّة. ولهذا جعلت الصَّلوات الخمس على عدد الحواس الخمس، فلنحرص على أن تكون الصّورة كاملة ليفرح بنا أبونا عند الولادة.

تخصيص:

الإنسان لوح تنتقش فيه الملكوتيّة وما تحتها وما فوقها، فالملك جزؤه، وله بالجسم ملك آخر هو المتصرّف فيه بالاختيار، وبالعقل ملك آخر لا تحيط به الأفكار، يتصرّف به في الجسمانيّات، فبهذا سخّرت له، وتفضّل به على الرُّوحانيّات، ولهذا أُسجدتْ له، فهو بالذِّكر ملك، وبإحاطته لما دونه فلك. ولمّا فات الجسمانيّات، وفاق الرّوحانيات، تخصّص بأسماء الصِّفات، وبهذا شهد النبيّ الكريم، إذ ما في الملائكة مَن اسمه رؤوف رحيم، فسبحان من أبدع هذا البشر، وأقدره على التَّقمُّص بسائر الصُّور، ودلَّ عليه بالعيان والخبر، فبطنَ وظهر، وكشف وستر، وضعف وقدر، ونهى وأمر، وأطلقَ وأسر، وغاب وحضر، وجحدَ وأقرّ، فقفا الأثر، فعَلا وبهر، ودنا واستمرّ، فانقطع الخبر.

رسول:

كما أنَّ الله تعالى أوحى إلى رسوله الكلّيّات، وأحال عليه في بيان الجزئيّات، كعدد ركعات الصّلوات، كذلك ترتيب أصحاب الولايات، فيما يأتون به من الكرامات العلميّات والعمليّات، وذلك حوالة عليهم من أصحاب النُّبوَّات، تفصيلاً للوقائع الوجوديّات، ونسبة الهبات إلى النبوّات، كنسبة الجزئيّات إلى الكلّيّات، فلا يغلطَنَّ غالط تفرّد بإحدى الدّرجات فاستغنى بزعمه عن الشَّرعيّات، فليحذر السَّالك وليحترسْ، فالجزء في الكلّ، ولا ينعكس.

من ملخّص مظفر بن سنان في الرّدّ على الفلاسفة:

الفلاسفة قسموا الأمور إلى واجب وممكن وممتنع. فقالوا: البارىء واجب الوجود بذاته، والعالم ممكن الوجود بذاته، ووجوبه بواجب الوجود، والوجوب له كالظّلّ عن الصُّورة، والنّهار عن الشّمس، وهو علّة لوجوب الممكن، والعلّة غير

متقدّمة على المعلول الذي هو الممكن الواجب الوجود، بواجب الوجود إلا كتقدّم الصّورة على الظّل ملازمة له، وأنّ الممكن إمكانه هو بذاته، ليس لواجب الوجوب قدرة على إمكانه، إذ هو ممكن لنفسه، فليس إمكانه مقدوراً له، وإنّما وجوبه بوجوب واجب الوجود. وأنكروا أنّ الله تعالى فاعلاً على الاختيار، لأنّه لو كان كذلك، وفعل بعد أن لم يكن فعل، اقتضى مرجّحاً ومدّة.

النّقض:

نقول لهم: الوجوب في اصطلاحكم حالة غير حالة الإمكان، وهو أمرٌ طارئٌ على الممكن، والواجب واجب بنفسه، والممكن ممكن لنفسه، وهما قائمان متماثلان، فانتقال الممكن إلى الوجوب يوجب مرجّحاً لواجب الموجود، وهذا نقضٌ لما توهّمْتم، ومعارضة لما أسّستم، وانقلبت المطالبة لكم بحالها في الممكن كالمطالبة في المختار، وأنّه يوجب المدّة كما ادّعيتم من أنّ الاختيار يوجب المدّة، والتّرجيح يقتضي المرجّح. فبانتقال الممكن إلى الوجوب ألزمتم كما ألزمتم بزعمكم، وإذا كان الواجب واجباً بنفسه، والممكن ممكناً بنفسه، ولا قدرة له على إمكانه، لأنّ له المعيّة لا التبعيّة بعد المعيّة، وهذا تناقض لأنّ واجب الجود عندكم علّة لا فاعل بالاختيار، فكيف وجب وجود الممكن، وهو بمعنى المعيّة حتّى صار بمعنى التبعيّة، والبارىء علّة لا فاعل على الاختيار، وهذا يؤذن بقدم العالم، وأنّه مع واجب الوجود. وقولهم بوجوبه بعد إمكانه تلبيس منكم على من قصر فهمه عن دحض تمويهكم، فمن المحال أن ينتقل الممكن إلى الوجوب، والفاعل لا اختيار له في انتقاله، والواجب الوجود بذاته أعلى ممّن هو ممكن منتقل إلى وجوب، فذلك تغيّر من ذاته بذاته، موجب الوجود لذاته وهذا خلفٌ.

وبعد، فإن كان الممكن قديماً، فالقديم لا يؤثّر في القديم، وإن كان محدثاً فذاتُه مُحدثةٌ بإحداث القديم الفاعل بالاختيار، وبطل الوجوب، والعجب من الحدث الضّعيف أن يروم بذهنه أن يُشرف على قدرة المحدث القديم الحكيم. ليدركها بإحاطتها القاصرة، وعقله المحدث الضعيف المحجوب بحجاب الحدث، والعالم يشهد على ذاته بكونه مفعولاً لفاعل مختار، إذ حوادثه ظاهرة، وليست حوادثه سابقةً لحوادثه، وما لم يكن سابقاً للحوادث فهو حادث.

وأيضاً نقول: إنّ الممكن بذاته في الأذهان لا يخرجه إلى الأعيان إلاّ فاعل مختار، فهو في الأذهان واجب الإمكان، ولا واجب في الوجود العيني ولا الذهني،

وواجب الإمكان لا شكَّ أنه معدوم ذهناً وعيناً، وموجبه يتقدّم عليه ويختاره، ونَفْيُ ذلك يلزم ثبوت المعيّة والوهم، والحامل على تصوير كيفيّة إحداث المحدث محالٌ ممّن رامه، إذ ليس له وسيلة إلى الاطّلاع على كيفيّته، لأنّه فوق طور العقل، وإذا لزم العجز عن كيفيّة الإحداث، فكيف لا يلزم عن كيفيّة المحدث سبحانه في ذاته وصفاته إلاّ من طريق الأدلّة الموصلة إلى الإقرار بوجوده، بدليل صنعه الظّاهر الإحكام، المتقن التّقدير بغير إحاطة، ولذلك عجزوا عن إدراك محدث بغير مادّة ولا مثال، تعالى الله، لا إله إلاّ هو ربّ العالمين.

نظم: [الطويل]

شَفِيعي رَسُولَ اللّهِ والعَفْوُ حَاجَتي ولَيسَ إلى رَدِّ الشَّفيعِ سبيلُ

تعليق:

في بحث وقع مع من يدّعي أنَّ الوجود مظاهر الحقّ سبحانه، ويظنّ أنّه فهم المراد، وذلك إنّما قيل للإنسان: هو المحتجب بالقوّة النّاطقة، لكونها أدلَّ عليه من غيرها من بقيّة أفعاله، والأدلُّ على الشّيء يبقى حكمه حكم الجائز له، فكان المجوز فيه من جهة الدّلالة حالٌ فيه كحلول الأجسام في الأجسام، أعني اللّطيفة في الكثيفة، كالهواء في الإناء الفارغ، فأعلى العبارة هاهنا أن يُقال: هو محجوب بالقوّة النّاطقة، لدلالة النُّطق على موجود حيّ ناطق بالإرادة من غير شكٍّ. ولهذا أقسم الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وهذه عبارة إنّما جازت على الإنسان من جهة التّوقيف الّذي اضطررنا إليه ضرورةَ التّعريف، ونفس المراد إنّما هو غير ذلك، فالنُّطق حجابٌ للنّفس من جهة أنّه دالٌّ عليها لا من جهة حلولها فيه، إذ النُّطق صفة لها، وهو قائم بها، والشّيءُ لا يحلّ في صفته، أو يقوم بها، فلا يجوز لعاقل أن يفهم من قول القائل: الإنسان هو المحجوب بالقوّة النّاطقة حلولاً بحيث يجعلها جسماً لروح، أو إناء لريح، بل بفهم المدلول من جهة أنَّ النُّطق فعل ظاهر لفاعل بالإرادة، وكذلك احتجاب فاطر السّموات والأرض تعالى ممّا برأ، بل مُرادنا بهذه العبارة دلالة على الصّانع لا حلول، إذ المحسوسات أظهر للحسّ، وأوقع في النّفس، وأقرب إلى التّعريف، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ولم يقل للسموات، أو لمن في السّموات، وإن جاز أن يقال: إنّه تعالى في كُلِّ شيءٍ من ذرّةٍ أو خطرةٍ، لكن جواز دلالة على مبدع، وافتقار إلى صانع، إذ كُلُّ ذرّة باطنة أو ظاهرة، شاهدة ذاتها على ذاتها، بأنّ لها صانعاً،

ولا شكَّ أنّ الكتابةَ تدلُّ على الكاتب، ولكن ليس الكاتب في الكتابة بوجه، ولا الكتابة في الكاتب، إلاّ بالقوّة التي هي غيهب هذا، مع بعد المثل من الممثول لأنه فوق طور العقول.

وإذا كانت جزئيّات الكليّات دالّة بأنواع الدّلالات على صانع في سائر الحالات، وعلى افتقار مطلق إلى غنى مطلق ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [طه: ٥٠]، فلا غرو من هذا الباب أن يقال: هو المحتجب بخلقه، كما قلنا: إنّ الإنسان يحتجب بنطقه، وإنّما جاز هذا التّمثيل من جهة الدّليل، لئلا يفضي الأمر من جهة التّنزيه إلى التّعطيل، فسُبحان من ضرب بخلقه الأمثال، وتعالى عن المثال، وجلّ الذي جلَّ عن الحلول محتجباً بفعله، وهو الّذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وإذا تنزّه عن الاحتجاب بصفاته مخلوق ضعيف بهذا المثل الأجلى، فكيف لا يتنزّه عن مثل ذلك خالق لطيف، ولِلّهِ المثل الأعلى، فسبحان الباطن الخفيّ عن كلِّ ما يلاحظه من الصّفات والأسماء، وهو الظّاهر الجليّ بسائر جزئيّات ما في الأرض والسّماء، الّذي لا تتسلّط عليه أفكار العقلاء، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

إيجاز: [الكامل]

الكلُّ أَبْدَع هاهُنا من أَجْلِنا ... وهُناكَ والدُّنيا هي المفتاحُ
حُجُبٌ تُشيرُ إلى اللّطائفِ فاختَفَتْ ... أرواحُها وتَبَدَّتِ الأشباحُ
صُوراً ففي أشْبَاحِنا أشْباحُها ... مَثَلٌ وَفي أرْواحِنا الأرواحُ

علاج: [الخفيف]

يا ضَعيفاً أعْمالُهُ حَجَبَتْهُ ... بِهَواهُ عَنِ الإلهِ تَعالى
طَهِّرِ الفِكْرَ عن سِواهُ وَقُلْ ... قَوْلاً سَدِيداً يُصلح لَكَ الأعْمَالا

حال: [دوبيت]

ما أقلقني الشّوقُ إلى إيائي ... إلاّ ونظرتُ في زلالِ الماءِ
مُعنّايَ مولّهٌ على مَعنائي ... ما الكونُ وما وجودُهُ لولائي؟

عاشق: [السريع]

أَوْدِعْ فؤادي حُرْقاً أو دَعِ ... نَفْسَك تؤذي، أنتَ في أضْلُعِي

واحبسْ سهامَ اللَّحظِ أو فازمِها ... أنتَ بما ترمي مُصابٌ معي
مَحَلُّها القَلْبُ وأنتَ الَّذي ... مَسْكَنُهُ في ذلكَ المَوْضِع

دعوى:

[الخفيف]

مَن تخلّى ثمَّ استعدَّ رآني ... قد خَرقتُ الأفلاكَ بالتَّحديق
وخَلعتُ الأفلاكَ والملكَ جميعاً ... والهَوى والحظوظَ خلعيَ زيقي
وَنَوحَّدْتُ بافتِقاري غَنيًّا ... وتَرَكْتُ الوجودَ عَن تحقيقي
وجمعتُ المقالَ والحالَ والفعـ ... ـلَ وما يقتضونَ جَمْعِيَ ريقي
وجَعلتُ الجميعَ تحت جِذائي ... في مقامٍ للجَمْعِ والتَّفريقِ
عَبدُ حقٍّ والرَّبُّ حقٌّ تعالى ... مِنْ جميعِ الوُجودِ عَن تَدقيقِ
أنا لا أزالُ حَيًّا عليماً ... حَاكِماً بالمَجَازِ والتَّحقِيقِ

عجيب:

[البسط]

تَرَى عَلى يَقْظَةٍ ما في المنامِ تَرى ... أوْلَ فَما في غَدٍ تَلْقاهُ في النَّومِ
هَذا وذاكَ مَنَامٌ أنتَ نَاظِرُهُ ... لَكِنْ نَقَلْناكَ مِنْ نَوْمٍ إلى نَوْمِ

بيان:

[الطويل]

إذا نِمْتَ تلقى فيكَ ما كنتَ يقظةً ... تُشَاهِدُهُ جَهراً فتَشْهَدهُ سِرًّا
كذاكَ إذا ما متَّ مُغْرَى بِحالةٍ ... تُرَدُّ إلى ما كنتَ حيًّا به مُغرى
فأنتَ كِتابٌ فيكَ كلُّ مُسطّرٍ ... ألا فامْحُ منكَ الكُلَّ إنْ شئتَ أنْ تَقرا
وما ثمَّ إلاّ أنتَ فافقَهْ مَقالتي ... فظاهِرُكَ الدُّنيا وباطِنُكَ الأُخْرَى

أصل يجب علمه:

بيان القول في الله تعالى أراد من العالم ما هم فاعلوه، وهم مع ذلك غير مجبورين فيما يختارونه، نقول:

إنّ الله تعالى أبدع العالم، وأعني به ما سوى الله تعالى، وذلك لحكمة من أجلها كان ما لم يكن، والعالم محلّ الأضداد من خير وشرّ، وحلو ومرّ، ومثل ذلك، والكلّ مراد الله تعالى إذ لا يتصوّر في العقل أن يكون ما لا يريد، وأن لا يكون ما يريد كونه، فإن قيل: قد يريد العبد أموراً فتكون بإرادة العبد، وإن لم يرد

الرَّبُّ وقوعها، ولم يرد أيضاً أن لا وقوعها. قلنا: إرادته تعالى أن يكون العبد مريداً في بعض الأمور، وقد علم اللّهُ ما يريده العبد، فلم يمنع وقوع ذلك الأمر، وهو بعينه مراد لله، ولكن بإرادة زَيْد، فزَيدٌ غير مجبور عليه، وليس الأمر مفوّضاً إليه.

واعلم أنّ أعمال العباد عشرة؛ اثنان بدنيّة، وهي: الحركة والسّكون، وثمانية قلبيّة، وهي: العلم، والظَّنُّ، والشَّكُّ، والجهل، والفكر، والكلام، والنيّة، والاعتقاد.

وإيضاح ذلك أنَّ الكسبَ عبارة عن اختيار القلب، لا عن مطلق الفعل، فإنّ الكافرين أحدهما قلبه مطمئنّ بالإيمان، لا يؤخذ لكونه غير مكتسب فعله بقلبه اختياراً بل اضطراراً. والحالفين أحدهما يؤاخذ لكونه مكتسباً قوله بقلبه اختياراً ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٥]. فالكسب عبارة عن الاختيار لأنّه مبدأ الفعل.

فإن قيل: إنّه تعالى جبر المختار على أنّهُ يختار هذا بعينه، فقد عاد الاختيار جبراً، وهو محال شرعاً ولغةً وعقلاً. بل نقول: إرادته أن يكون المختار مختاراً، وعلم ماذا يختار فلم يمنع وقوعه، فصار الواقع بعينه مراداً للرَّبِّ، لكونه علم ولم يمنع، وكسباً للعبد لكونه لم يعلم مراد الرَّبّ فاختار، فقد بان أنّه متى أراد العبد ما أراد الله وقوعه بفعل من العبد، كان العبد هاهنا مكتسباً، ومتى فعل العبد ما أراد الله وقوعه بفعل من العبد فوقع بغير إرادة من العبد لم يكن مكتسباً، بل العبد حينئذٍ إمّا مجزيٌّ بذلك الفعل الواقع منه لما تقدّم أيضاً منه، وإمّا مجبورٌ عليه لحكمة أرادها الله منه، والمجبور غير مؤاخَذ إلاّ أن يكون ذلك الجبر أيضاً جبراً، كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ [الأنعَام: ١١٠]. . الآية، ويتحقّق ذلك كلّه من فهم قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإسرَاء: ١٨]. . الآية.

نظمٌ في ذلك ليحفظ بسهولة: [السريع]

مـن قَـبْـلُ شـاءَ الـلّـهُ مـا شَـاءَهُ ... فـي الـكَـوْنِ مِـنْ نَـفْـعٍ ومِـنْ ضُـرّ

لِـحِـكْـمَـةٍ مِـنْ أجْـلِـهـا أبْـدَعَ الـ ... أضْـدادَ مِـنْ حُـلْـوٍ ومِـنْ مُـرّ

فَـغَـيْـرُ مـا قَـدْ شـاءَهُ لَـمْ يَـكُـنْ ... ولَـوْ كـمِـثْـقَـالِ مِـنَ الـذَّرّ

فَـفِـعْـلُـهُ الأمْـرَ إذا اخـتـارَهُ ... لـكـوْنِـهِ بـالأمْـرِ لا يَـدْري

كَـسْـبٌ لَـهُ لا بُـدَّ مِـنْ كَـوْنِـهِ ... كـصُـورَةِ الـجَـبْـرِ بـلا جَـبْـرِ

فـالـكَـسْـبُ مـا يَـخـتـارُهُ قَـلْـبُـهُ ... مـمّـا أرادَ الـلّـهُ أنْ يَـجْـرِي

في القولِ وفي الفِعْلِ في نَفْسِهِ أو غيرِهِ في السِّرِّ والجَهْرِ
وكلُّ ما يَصْدُرُ من فِعْلِهِ بلا اخْتيارٍ كانَ في الصَّدْرِ
لا إثْمَ فيهِ وهوَ جَبْرٌ لهُ كعَابدِ الأصْنامِ بالقَهْرِ
وربَّما كانَ جَزاءً لِمَا قَدَّمَهُ في سَالِفِ العُمْرِ
فهذهِ السُّنَّةُ قد أسْفَرَت مِن ظلمةِ البِدْعَةِ كالفَجْرِ

بيان:

مشابه في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]. ثم تلاه بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، الثاني مبيّنٌ للأوّل، وذلك أنّه يجب أوّلاً أن تفهم الفرق بين قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ [النساء: ٧٩] فإنّه مُتَعَدٍّ، وبين قوله لو قال: ما أصبتَ فإنّه لازم. ثمّ اعلم أنَّ النّاس بين مؤمن وكافر، والواقع منهم أو عليهم خير أو شرّ، فالحسنة إذا صدرت عن المؤمن لا يجزيه الله عليها في الدُّنيا بل في الآخرة. والسَّيّئة، دون الكبائر، إذا صدرت من المؤمن لا يجزيه الله عليها في الآخرة، بل في الدّنيا لقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، والكافر بضدّ ما ذكرناه. دليل الأوّل: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]. ودليل الثاني: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [النحل: ٢٥].

ويجب أن تعلم أنّ جميع ما يُعَذَّبُ به الكافِرُ في الدُّنيا لا ينقص عنه من عذاب الآخرة شيء. وجميع ما ينعم به المؤمن في الدُّنيا لا ينقص عنه من نعيم الآخرة شيء.

ولا شكّ أن من علم هذا وحقّقه وصدّقه، تحقّق أنّه ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩]، لأنّ ذلك كلّه هبة في الدُّنيا لا جزاء ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، لأنّ ذلك جزاء، ولا فرق أن يكون ما أصابك بيد الله، أو بيد العباد، من خير أو شرّ، فهذا قسم ما أصابك، بقي قسم ما أصبت، وقد بيّناه من قبلُ نثراً ونظماً والله الموفّق.

زيادة فيما اشتبه من الألفاظ:

اعلم أنّ الأمر ينقسم إلى قسمين: أمر ندب يمكن مخالفته كقوله تعالى لإبليس: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [البَقَرة: ٣٤] وقوله لآدم وحوّاء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البَقَرة:

٣٥] وأمر حتم، كقوله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعرَاف: ١٨]، فلم يكن له أن يقول: لم أكن لأخرج، كما قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ [الحِجر: ٣٣]. فمن ظنَّ أنَّ كُلَّ أمر حتم غلط، وكذلك إرادة نَدْبٍ وتحسين، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]. وإرادة حتم وجبر، كقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يُونس: ١٠٧]، فمتى لم تفهم من الإرادة الجبرَ في موضع الاشتباه فقد سلمت.

ومن قال: إنَّ الكُلَّ بقضاء الله وقدره فهو صحيح، لأنَّ الله ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعَام: ١٢]، فلا يظلم مثقال ذرّة، وله أن يعفو ويجازي، فقضى بالفضل، والعدل، والحجّة الكبرى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١].

وقال: شعر: [الكامل]

لَكَ مِنْ فُؤادِي رُتْبَةٌ لا تُدْرَكُ ... وَسِواكَ مِنِّي ذَرَّةٌ لا يَمْلِكُ
وَلَقَدْ كَفَفْتُ خَواطِري عَنْ أنَّها ... تُومِي إليكَ مَخافَةً لا تُشْرِكُ
وَصَرَفْتُ وَجْهي عَنْ جَنابِكَ غَيْرَةً ... مِنّي إلَيْكَ فَلَسْتُ نَحْوَكَ أسْلُكُ
وَوَقَفْتُ عِنْدَ الأمْرِ مُعْتَرِفاً بِلا ... قَصْدِ اخْتِيارٍ لي لِئَلاَّ أهْلِكُ
حَسْبِي بأنْ عَرَّضْتَني لِرِضاكَ لي ... وَهَدَيْتَني كَرَماً فَبَانَ المَسْلَكُ

غيرة، مناجاة:

شعر: [البسيط]

إنْ كانَ يُونُسُ قَد نادَاكَ مُعْتَرِفاً ... بِذَنْبِهِ عِنْدَما أدْخَلْتَهُ الظُّلَما
فَالجَهْلُ كاللَّيْلِ، والبَحْرُ المُحيطُ هُوَ الدُّ ... نيا، وجِسْمي هو الحُوتُ الَّذي التَقَما
فَكُلَّ حِينٍ أنا العَاصِي المُغاضِبُ في ... بَحْرِ الحُظوظِ غريقٌ أشْتَكي الألَما
فَهَا أنَا يُونسُ والعَفْوُ يُؤنِسُني ... أدْعُوكَ مُبْتَهِلاً فامْنُنْ وَجُدْ كَرَما

حَلّ إشكال:

لمّا كان سُبحانه دائمَ البقاء، لا يعرض له شيءٌ من الفناء، صار من أجل هذا في جِبِلَّة الإنسان محبّة البقاء وشهوته، وكراهة الفناء، وبغضه، لأنَّ في جِبِلَّةِ المعلول توجد بعض صفات العلّة، دلالةً عليه، وإرشاداً إليه.

تفضيل التفضيل وتحصيل التنصيل: [الطويل]

يُخاطِبُني لي في مَواقِفِ قُرْبِهِ ... وأشْهَدُني غَيْري، وإيَّايَ أشْهَدُ
فقَال ولا غَيري يقولُ وإنَّني ... مُناجٍ، مُناجَى، واحِدٌ، مُتَعَدِّدُ
وما أنَا غَيْري، غَيْرَ أنِّيَ غَيْرُهُ ... وأقرب بي منهُ وفي القُرْبِ أبْعُدُ
تَعالى وأدْناني إليَّ بِوَحْدَةٍ ... يراهُ بها إيَّاي، والغيرَ يفقُدُ
وما عَدِمَتْ ذاتي بلى وَجَدَتْ بِهِ ... تَرقَّى بلا حَدٍّ هُناكَ وَتَخْلُدُ
هُنا وَقَفَ السَّيّارُ من غير وَقْفةٍ ... فزادَ وزيدَ، قال: لا يتزيَّدُ
بغَيْرِ اتحادٍ قُلْتُ: إنِّي مُوَحِّدٌ ... وإنِّي بما وَحَّدْتُ ذاتي مُوَحِّدُ
لأنِّي بِهِ غَيْري إذا لم أكُنْ بِهِ ... بذلكَ أشْقى أو بذلكَ أسْعَدُ
فَفِي وَحْدَتي بالذَّاتِ ضِدَّان جُمِّعا ... ووَحْدَتُهُ بالذَّات لا تتعدَّدُ
وتحقيق فصل الحكم بيني وبينَهُ ... قريبٌ إذا ما كُنتُ مَن لا يُقَيِّدُ
نَفيتُ مُرادي أنْ أردتُ مُرادَهُ ... فما هاهُنا إلاَّ المُرادُ المُجَرَّدُ
فعُدنا يقيناً فاعلينَ كواحِدٍ ... مُريدينَ مَوْصُوفينَ والفِعْلُ مُفْرَدُ
فإنْ قُلْتُ: فِعلُ اللّهِ فالقولُ صادقٌ ... وإنْ قلتُ: فعلي، فهو صِدْقٌ مُؤَيَّدُ
إرادَتُهُ تَجْري بأيْدِي عِبَادِهِ ... فأفْعَالُهُمْ أفْعالُهُ وَهْوَ يَشْهَدُ
رَمى بيدِ الرَّامِي فَلَمْ يَرْمِ إذ رَمى ... سِوى اللّهِ والرَّامي هُناكَ مُحمَّدُ
ولا شِرْكَ بينَ الرَّامِيَيْنِ ومَن دَرى ... حَقيقةَ إيضاحِي بأحمدَ يَحْمَدُ
ألا إنَّ قُطْبَ الشَّانِ أنَّ مُرادَهُ ... بِنَفْيِ إراداتِ العِباداتِ مُقَيَّدُ
فَمَهْما أرادوا لاعَنِ الأمْرِ أشْرَكوا ... وَمَهْما أرادُوهُ عَنِ الأمْرِ وَحَّدوا
ولَيسَ لِعَبْدٍ أنْ يُريدَ إرادَةً ... ولا نَفْيَها بل يأمُرُ العَبْدَ سَيِّدُ
فَمَنْ قامَ بالأمْرِ اسْتقامَ وهاهُنا ... هوَ المَطْلَبُ الأعْلى الأتَمُّ المُسَدَّدُ
لهذا إذا ما الأمْرُ فيهِ أقامني ... فما أنا بَلْ غَيْري لهُ القَوْلُ واليَدُ
وحينَ أُقيمُ الأمْرُ أنِّي عَبْدُهُ ... تعالى بما قد قالَهُ أتَعَبَّدُ
فَدأبي أقيمُ الأمْرَ حتَّى يُقيمَني ... طَريقٌ قَريبٌ للجميعِ مُمَهَّدُ
فَقُمْ تَحْيى بالأمْرِ الَّذي إن أقمتَهُ ... أقَامَكَ حَيًّا حينَ تغنى وتُوحَدُ
فلا تَكُ مَقْتُولاً بسيفِ خَيالِهِ ... ألا إنَّما سَيْفُ الخيالِ مُهَنَّدُ

قولنا: واحد سبحانه يلزم عنه أن لا يكون معه غيره، لئلا يلزم عنه التَّركيب، أو ما يغاير الوحدة أزلاً. والواحد: الأوّل له إطلاق الوجود والقدرة، والعالم بأسره مبدع لا من شيء، ولا يُقال: من عدم، لئلاّ يُظَنَّ أنّه شيء. بل العدم سابق لكلّ شيء من العالم، وهو الواحد بالقدرة المطلقة، وكلّ شيء مقدور للقدرة الأحديّة، والشَّيء في القدرة ليس ذاتاً، لئلاّ يكون من الواحد غيره قديماً، وتعود القدرة مقصورة على إبراز ما بها من الذَّوات للأعيان لا غير، وهذا حصرٌ مُنافٍ للقدرة المطلقة، والوحدة المحقّقة. بل قولنا: العالم كان في القدرة، والقدرة محيطة بالمقدور، وهو عبارة عن الإعلام بأن لا عجز هناك، بل قدرة مطلقة على إبداع الذَّوات، والتعيّنات، وسائر الممكنات، وإبداع ما شاء القادر من شيء متى شاء، كيف شاء لا من شيءٍ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]. والعلم محيط بما في القدرة لم يزل في الأزل، وإذا انتفى أن يكون المقدور في القدرة ذاتاً، فقد انتفى أن يكون في العلم، فكما ليس القدرة غيرها، كذلك ليس في العلم إلاّ العلم بالشيء المقدور عليه، لا ذات المقدور، ولا معنى للعلم القديم إلاّ الإحاطة بالمعلوم المعدوم، علماً قبل وجوده موجوداً ذاتاً وعيناً، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤].

وبهذا الاعتبار لزم أن يكون الله تعالى أقربَ من الشيء إلى نفس الشَّيء، لأنه تعالى متقدّم عليه، فهو أقرب منه إليه علماً، كما أنّه أسبق منه له وجوداً، وأقدر عليه منه إيجاداً، فلمّا كان الشَّيء معدوماً، كان الشَّيء جاهلاً بإيّاه علماً، وكان الله تعالى عالماً به إحاطة، فكما أنّ الله أقرب من الشَّيء إلى الشَّيء علماً، فكذلك هو أقرب إليه منه مطلقاً، أعني بكلّ وجه أزلاً وأبداً، إذ البَعديّة والقَبليّة من جهة البارىء واحدة في العلم والقدرة، ومن البيّن أنّ بالنور ظهر الوجود، ولكلّ شيء نوريّة باطنة، قابلها نور ظاهر، أظهر النّور، عيّن الشَّيء، ودلّ الشَّيء على نوريّته بعدت أم قربت.

ولمّا لزم عن نفس الأعيان نفس القدرة، كانت الأعيان مظاهر القدرة، ومحلّ تجلّياتها، وألسن دواعيها ومخاطباتها، والقدرُ سبحانه هو المتعالي عن كلّ شيء بذاته، والمُنزَّه عن الحلول بمصنوعاته، وعمّا يعقل من أسمائه وصفاته، لكنه تعرّف بكلّ جزء من مخلوقاته. ولمّا كان المعرّف أزلياً لا ينحصر ولا يتناهى، عاد التعرُّف سرمديًا لا ينقطع ولا يتناهى، فكُلُّ معلوم تصوّراً أو نطقاً، وكل مشهود معاينةً أو ذوقاً

بسائر تجلّياته، وجميع مخاطباته، داخل في باب تعرّفاته، وإليها الإشارة بأنواع العبارة، وهو الباطن بذاته، والظّاهر بآياته وسائر مبتدعاته، فلمّا كان أدنى من قولنا: جلّ وعلا من قولنا: جلَّ، قال له القائل واصفاً لمقامه في باب التَّعرُّف، كاشفاً بمقاله من باب التَّلَطُّف:

[المتقارب]

تَجَلَّى بِكُلِّ فَلي ناظِرْ ... يرى أنَّهُ نَاظِري والنَّظرْ
فَحَلَّ وجَلَّ فأينَ الحُلولُ ... وأين السِّوى عِنْدَ أهْلِ النَّظَرْ
يخاطب بالكُلِّ حينَ الخِطابِ ... وينظرُ بالكُلِّ حينَ النَّظرْ
فكُلٌّ لهُ ألْسُنٌ في الخِطاب ... وكلٌّ لهُ أعْيُنٌ في النَّظَرْ
وَطَوْراً يناظِرني بالخِطابِ ... وطَوْراً يُخاطِبني بالنَّظرْ
فَعادَتْ برؤيتِهِ رُؤيتي ... خِطاباً وعادَ خِطابي نَظرْ
وَعُدْتُ خَليفَتَهُ لي عَلي ... إذ عاد سَمْعِي بِهِ والنَّظَرْ
لهذا نظرتُ بِنَفْسي الحِجابَ ... وقد كانَ يحجُبني بالنَّظَرْ
تعرّفَ بالكُلِّ في الحَالَتَيْن ... فَرْداً فَوَحَّدَني بالنَّظَرْ
أرَى فأراهُ يَراني بِما ... أراهُ بِهِ وبِنَفْسِ النَّظَرْ
فَلَسْتُ أرى ناظِراً غيرَهُ ... ولم أرَ غيري لِغَيْري نَظَرْ

دقيقة فرقان في حقيقة إنسان:

[البسيط]

عَبْدٌ ومَوْلى أرادا كَوْنَ كائنةٍ ... كُلٌّ أراد لِمَقْصودٍ وأوطارِ
ولكنِ العَبْدُ لا يَدري إرادةَ مو ... لاهُ بدونِ وقوعِ الواقعِ الطَّاري
فإنْ هُما اختلفا تَجري إرادةُ مَوْ ... لاهُ بكونِ المرادِ الكائنِ الجاري
وإن هُما اتّفقا كان المرادُ لكلْ ... لٍ منهما وحدة مهن غَيْرِ إخْبَارِ
وينسبُ الفِعْلَ من أجلِ الإرادة لل ... مولى وللعبدِ تَحقيقاً بإقرارِ
فالفعلُ مِن ذا ومِن ذا واحدٌ وإذا ... نسبتهُ كانَ منهُ فِعْلَ مختارِ
وليسَ للعَبْدِ إلاّ أنْ يريدَ وبال ... إرادةِ العبدُ ذو فِعْلٍ وآثارِ
يَجري المرادُ لعبدٍ قَدْ أرادَ إذا ... ما وافقَ القَدَر الجاري بمقدارِ

وقد يريدُ ولا يَجري المرادُ وقَدْ ... يَجري وإنْ لم يُرِدْ بلْ محض أقدارِ
إرادةُ العبدِ كَسْبٌ فهيَ ما كَسَبَتْ ... قُلوبُكُمْ وعليهِ يؤاخذُ البَاري
فبالإرادةِ عادَ العَبْدُ مُنقَلباً ... يَجري إلى جَنَّةٍ إمّا إلى نَارِ

إرادة عندية في حكمة فردية:

شعر: [الطويل]

بَدا بالَّذي أبدى فكُلٌّ يريكَهُ ... ويَحجبُهُ كُلٌّ فَيَبدو وما يَبْدو
فليسَ يُرى بالعَيْنِ شيءٌ سِوى السِّوى ... وبالقَلبِ لا شيء سِواهُ لنَا يَبْدو
عِباراتُنا عنهُ ومنهُ إشارةٌ ... لها مَن بها يَبْدو لهُ منهُ ما يبدو
هو الظَّاهِرُ المَشْهورُ في كُلِّ مَشْهَدٍ ... ويَبْدو بما يَخْفَى ويَخْفَى بما يَبْدو
فيَبْدو ويَخْفَى بالسَّوادِ عَنِ السِّوى ... وحَاشاهُ أنْ يَخْفى وحاشاهُ أن يَبْدو

مطمئنة:

وقال: نظم أيضاً: [الطويل]

أشارَتْ بهِ فعلاً فبادرَ مُسْرِعاً ... وأوحَتْ لهُ قولاً فقالَ وأسْمَعا
وكانَ ما أبدَتْ إليه سِوَى القَنا ... فَقَطَّعَ ما في وُسْعِهِ فَتَقَطَّعا
تَجَلَّتْ فَكَمْ مُوسى يَخُر وما رَأى ... فتابَ وكَمْ طَورٍ لديها تَصدَّعا
وكَمْ مُدَّعٍ قد ذاقَ خَمْرَ رُضابها ... ولو ذاقَ مُرَّ الصَّدِّ صَدَّ وما ادَّعى
نَعَمْ فازَ مَن أضْحَى بها لا بِغَيْرِها ... يُرى واحداً في حَالَتيهِ لها مَعا
وقامَتْ بهِ في الكُلِّ وهو الَّذي بها ... يُشاهِدُها قَلْباً وَعَيْناً ومَسْمَعا

وقال غيره: نظم: [الخفيف]

أَنْتَ حَيٌّ ذو فِكْرَةٍ فاذْرِ من أَنْـ ... ـتَ وهذي الأجْسامُ كالأشكالِ
فهيَ ظِلٌّ يُرى، وذو الظِّلِّ يخفى ... وهو ربُّ الخطابِ خَلْفَ الظِّلالِ
قائلٌ فاعِلٌ لما شاءَ بالفِكْـ ... ـرَةِ قَبْلَ الأقوالِ والأفعالِ
فَلَئِنْ كُنْتَ لا تَرى الذَّنبَ إلاّ ... حينَ يَبْدو بالجِسْمِ فافْقَهْ مَقالي
أيَدِ الذَّوْبِ قَطْعُها أم يدِ السَّا ... رِقِ يُخْشَى في مَذْهَبِ العُقَّالِ
ومِثالُ المرْءِ يَظهرُ في المِرْ ... آةِ عندَ الإبْصارِ أم ذُو المِثالِ

ما عَلى الجِسْمِ عارٍ ما منهُ يَبْدو ... بَلْ عَلى مَنْ رَمى بهِ في الوَبالِ
وإذا ما عَصَى الخيالُ كما نعْصِي ... فلا ذَنْبَ عِنْدَنا للخَيالِ
وجميعُ الأمورِ يَقدمها الفِكْـ ... ـرُ فَثُبْ نَحْوَهُ بلا إهْمالِ
وابتَدِيء واجتَهِدْ وجاهِدْ وعاهِدْ ... وَاخْتَرِسْ وافْتَرِسْ بلا إمْهالِ
هوَ ينبوعُ كُلِّ قَوْلٍ وفِعلٍ ... فارْتَبِطْهُ في كلِّ آنٍ وحَالِ
تَنْجُ ممّا تخافُ سِرًّا وجَهْراً ... وتَنَلْ ما تُريدُهُ في المآلِ

وقال:

كشف:

نظم أيضاً: [الخفيف]

لا تَكُنْ واقفاً مع الأجْسامِ ... فَجسومُ الأنامِ غَيْرُ الأنامِ
إنّما الجسْمُ مَرْكزٌ لاحَ فيهِ ... كُلُّ شَكْلٍ وضِدُّه بالتّمامِ
فترى الجسْمَ واحداً فيهِ يَبْدو ... كلُّ قِسْمٍ من سائرِ الأقْسَامِ
مَلِكاً مثلَ لمحةِ العَيْنِ وَشيْطا ... ناً كالطَّيْرِ كالأنْعَامِ
[هو ظِلٌّ يبدو وذو الظِّلِّ يخفى ... بحجابِ الأوْهَامِ فافقَهْ كلامي]
[وَهْوَ حَيٌّ ذُو فِكْرَةٍ فاذرِ مَنْ أنْـ ... ـتَ، فأنْتَ المَخْلُوقُ للإكْرامِ]
وتَرى تارَةً سِواكَ كما أنْـ ... ـتَ، وهذا بابٌ مِنَ الأوهامِ
فإذا شِئْتَ كنتَ في كُلِّ آنٍ ... واحداً قائماً بأعْلَى مَقامِ
وتَرى ما تراهُ حقًّا عَلَى ما ... هُوَ في كُلِّ يَقْظَةٍ ومَنامِ
فَتَحَفَّظ وانْظُرْ بماذا تَرى الكُلْـ ... ـلَّ وما الكُلُّ مِنْكَ فافقَهْ كَلامي

أغلوطة:

كما أنّ الجسم المفروض كُلّيًا يجب أن يكون صحيحاً من سائر العاهات، ولا توجد الصِّحّة إلا منقسمة في الأجسام الجزئيّة، كذلك النَّفس الكلّيّة، تقال بطريق الفرض لذات تامّة، ولا يوجد لها إتمام في أحد الأنفس الجزئيّة، بل يوجد منقسماً مبثوثاً فيها، فسبحان من خلق الإنسان وأقامه لكماله متوسّطاً في الكون بين منائح ومصائب ومواهب ومكاسب.

إنسان:

نظم: [الكامل]

يَغْلو ويَسفلُ كُلَّ آنٍ دائماً ... في الكونِ بينَ مَنائحٍ ومَصائبِ
يَرْقَى فَيلْقَى ما بهِ يَرْقَى وأن ... يَهوى كذا بمعارفٍ ومَعاطبِ
فهُنا يرى وهنا يَراهُ بوصفهِ ... فَيَراهُ بينَ مَواهِبٍ ومَكاسِبِ

مناجاة:

نظم: [مجزوء الخفيف]

أنَا مِنّي عَلى خَطَر ... خَفِي الأمْرُ ثُمّ ظَهَرْ
فاحترسْ ويكَ ها أنا الـ ... ـقائمُ القاهِرُ الذَّكَرْ
لَسْتُ منّي ولَسْتُ مِنْـ ... ـكَ إذا خاطِرٌ خَطَرْ.

تحقيق:

نظم أيضاً: [الكامل]

ما في العَوالمِ ذَرَّةٌ أو خَطْرَةٌ ... إلاّ وقَدْ بعثتْ إليكَ تعمّدا
ليبينَ كَسْبُكَ كُلَّ آنٍ دائماً ... وإليكَ منكَ يَعودُ عائدُ ما بَدا
فالكُلُّ مَخلوقٌ لأجلكَ مِحنةً ... وعليكَ يَشْهدُ ما تَعامِلُهُ غَدا
ولَئِنْ تُفِقْ فعليكَ مُطَّلِعٌ يَرى ... ولهُ تعامُلُ بالعَوالمِ سَرْمدا

زيادة:

وقال أيضاً: [الخفيف]

عَوِّدِ النَّفْسَ في معاملةِ الحَقْـ ... ـقِ مُناها في سائرِ الأحْوالِ
إنّهُ في غَدٍ تعاملُ إيّا ... كَ بما اعتدْتَهُ على كُلِّ حالِ

الخير عادة:

شعر: [مجزوء الرمل]

كُنْ إذا أحْبَبْتَ عَبْداً ... لِلَّذي يهوى مُطِيعا
لَنْ تنالَ الوَصْلَ حتى ... تُلْزِمَ النَّفْسَ الخُضوعا].

سؤال: [السريع]

سَـألـتُ بـالـلّـهِ لـمـن قـد وَصَـل ... يُـخْـبِـرُنـي كـيْـفَ يـكـونُ الـعَـمَـلْ
فـي غَـفْـلـةٍ عـمَّـتْ وفـي شَـهْـوةٍ ... تـمـكَّـنَـتْ مِـنّـا تـذلُّ الـبَـطَـلْ

جواب:

نظم: [السريع]

لـو أنّ إنـسـانـاً أتـاهُ الأجَـلْ ... وعـايـنَ الـمَـوْتَ وقَـطْـعَ الأمَـلْ
واستـيـقـنَ الـفُـرقـةَ مـن عَـالـمِ الـ ... ـكَـوْنِ وأنْ يَـلـقـى الّـذي قَـدْ فَـعَـلْ
ولـم يـجـد زاداً ولـم يَـرْضَ مـا ... حَـصَّـلَـهُ بَـلْ سَـاءَهُ مـا حَـصَـلْ
فـاستـمـهـلَ الـلّـهَ لـيستـدركَ الـ ... ـفـارِطَ فـي أقـوالِـهِ والـعَـمَـلْ
فـأُعْـطِـيَ الـمُـهْـلَـةَ لَـكِـنَّـهُ ... لـم يَـذرِ مـا مِـقـدارُ ذاكَ الـمَـهَـلْ
بـلْ إنَّـهُ قَـدْ عَـادَ مِـنْ خَـوْفِـهِ ... يُـرَاقِـبُ الـمَـوْتَ كـأنْ قَـدْ وَصَـلْ
فـهـلْ سِـوى الـمَـوْتِ لـهُ شَـاغِـلٌ ... بَـلْ شَـغَـلَـهُ الـموتُ عـمّـا شَـغَـلْ
كُـنْ أنـتَ هـذا أيـهـذا الّـذي ... اسْـتَـنْـصَـحَـنـي جـاوَبْـتُ عَـمَّـا سَـأَلْ

وصية:

اعلم أنَّ جماع الخيرات، وأسَّ السَّعادات في التّقوى، والتَّقوى هي عبارة عن ترك المخالفة. فالمُتَّقي اتّقى مخالفة مولاه في أمر أو نَهي، ولهذا ضرب اللّهُ المثل بإبليس وآدم، فأمرَ إبليس، ونهى آدم فافهم هذا جيّداً، وابسُط في ذهنك هذا المختصر، وطالِعْهُ طول أيّام حياتك، واعلم أنّه لا تقوى على تقوى إلاّ بالصَّبر، فعليك به في كلّ آن، واسأل إعانتك بالصَّبر على ما تكرهه، وعمّا تهواه ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

نظم في ذلك: [المتقارب]

سـبـيـلُ الـنـجـاةِ وأقـصـى الـمـرامِ ... يـكـونُ بـصَـبْـرٍ عَـلـى الـمُـتْـعِـبِ
فـأيـنَ الـنـجـاةُ وأيـنَ الـمـرامُ ... وكـلٌّ يـمـيـلُ إلـى الـطَّـيِّـبِ

نهي:

لاَ تَرْدُدْ إليه بالقدرة ما ردَّه إليك بالكَسْب.

تعريف:

المُجرَّد من الأهواء يستخرج ودائع العقول بفكرة خالصة.

وصيّة مخلص ونصيحة متخلّص:

احضر الموت تَنْجُ من كلّ همّ، وذرِ الافتكار في كلّ فانٍ، والزم الصَّمت ما استطعت، وخذ بالصِّدق، واصبر في سائر الأحيان وإذا عَزَّ أو تشابه أمرٌ فتمسَّكْ بحكم القرآن.

زيادة:

من سوس النَّفس أنّك كلّما قتلتها بسيف المجاهدة، أحياها الله فنازعَتْك، وطلبت منك الشَّهوات لتعود فتقتلها ثانية، ثمّ تعود حَيَّةً، فيكتبُ لك ثواب دائم. وهذا هو الجهاد الأكبر، وهو معنى قوله عليه السَّلام: «**الدُّنيا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ**»[1]، وبابُ جِهادِها الجوعُ، وغاية جِهادِها مُخالفةُ الهَوى.

تكملة:

شهوة النِّساء سببٌ لقيام الوجود، ولظهور الأفعال الإنسانيّة والإلهيّة، إذ لولا وجود الإنسان الّذي له تظهر الموجودات، لكان حكمُها حُكمَ العدم بالنِّسبة إلى الإنسان المعدوم، فلولا الإنسان الموجود لما ظهر الوجود، ولولا الشَّهوة لما ظهر الإنسان، فتارك الشَّهوة تركَ الوجود بأسره، وقوي على الوقفة في الوحدة بفكره، وأعظِمْ بها صفةً لمن تركها للّهِ بقوّة دائماً، ورقي بفكره في معارج التّجريد ملازماً.

وصيّة:

صانوك فلا تتبذّل، أغروك فلا تتذلّل، جدّوا بك ولا تكبّل، واستخدموك فلا تكِلّ، علّموك فلا تجهل، أمّنوك فلا تَخُنْ.

اكتحل بالفكر وحَرِّم على بالك أن يُلِمَّ به الهُوينى والفتور، واملك عِنان الفكر كما تملك زمام الذِّكر، وعليك بالعلم المستفاد من النَّظَر في ضمائر القلوب، ومواقع الخطرات، وما يتّصل بكلّ خطرة وهاجسة، وما ينقدح في القلب من نورٍ، وصفاءٍ،

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير، فصل في ترك الدنيا ومخالفة النفس والهوى، حديث رقم (٢٦٧) [ج٢ ص١٣٩]، وهو من كلام سيدنا عيسى عليه السلام. وأورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٣٢٠ [ج١ ص٤٩٥] وأورده غيرهما.

وظلمةٍ، ورَيْنٍ، ممّا لا يكاد ينشرح به صدرٌ إلاّ عن موهبةٍ إلهيّة. اللّهمّ إلاّ أن تنكت من الله في قلب عبد مؤمن نكتة تفزعه لما هو الأهمّ، فيفزع حينئذٍ إلى النَّظر فيما راعه حتّى يتدرّج بذلك إلى أن ينال شرحاً لصدره بعد الجهد الجهيد، والتَّعب الشَّديد.

وليس يكاد التعجّب ينقضي ممّن يزن بالعقل، وينسب إلى العلم، ثمّ لا يغنيه النَّظر في ضروب ما يعرض في قلبه من الخواطر التي هي فواتح أفعاله، وبواعثها، ثمّ في منازل فكره.

وربّما تشتدّ عنايته في تعرّف أحوال عينه التي هي موضع بصره الظّاهر، وقد علم أنّه يعرض لقلبه ما يعرض لعينه من عَوَرٍ، أو ضعفٍ، أو عمى. كذلك يعرض لقلبه ما يعرض لسمعه من الآفات، وكيف يرى تعلّم ما يصلح به ظاهره من العلوم الظّاهرة، وقلبه جاهل بحاله، ولو عمل على إصلاح سِرّه، وإخلاص طويّته بمراقبة قلبه لدحض آثار وساوس تحدث فيه بتردّد واضطراب، إلى أن يقوى خاطر حقّ لا تردُّدَ فيه فسُمّي همّة، فإن بعث على فعل جزم سُمّي مشيئة. وللأدعية أثرٌ عظيم هاهنا، واللّهُ المُمِنُّ بكرمه.

الباب الثاني
في العامل

يا من هو الأقرب إليَّ منّي، يا قاطع كلّ قاطع، تكرّمت عليَّ بنفسي فبخلتُ بها عليك، وأنتَ الذي تملكها دوني، كأنّك من كرمك ذو حاجة إليَّ، وكأنّي من بُخلي ذو غَناء عنك، أنتَ الأكرم عاودَ الأبخلَ وناجاه في سِرّه، أنا ابتليتُك ليؤنسه بما يوحشه متعرّفاً إليه بما يتوب به عليك.

قال: إن خفتُكَ فما عرفت، وإن خفتُ غيرَك فقد أشركت، لكنّي لا أخاف إلاّ إيّاي، ولا أُؤاخذ إلاّ بهواي، أسألك بعفوك سؤال الآمنين، وَلِذَنْبِي سؤال الخائفين، أن تجعلني من الدَّاعين المخلصين لك الدّين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ [الفَاتِحَة: ٢] وتمام الفاتحة.

كلام في النَّفس وفيما هو من جملة الحكمة في إيجادها:

النَّفس مخلوق شريف لشرف موجدها سبحانه، أوجدها على هيئة قابلة لفيضهِ، يمكنها عرفانه بعرفانها إيّاها، ولا مطلقاً لأنَّ لها أوّلاً كانت قبله عدماً بذاتها، ووجوداً في العلم، فهي باعتبارِ ما معاني الصُّور الظَّاهرة، وصور المعاني الباطنة، وإنّما خلقت من عدم لتكون باقية من غير عدم، وإنّما تبقى بمعرفتها الواحد الأوّل سبحانه وتعالى، فلو أوجدها غير محجوبة بالجسم لحجَبَها رؤيتها إيّاها عن رؤيتها لمولاها، فتلطّف لها بحكمته، وحجبها لرحمته، وأراها إيّاها فيما عداها، فالتذّت بها وتألّمت في سواها، ثمّ أمرها بشرائعه ونهاها. فإذا تركت هاهنا لذّاتها، وتجرّدت عن إرادتها، فذلك أخصّ حالاتها، لأنها إنّما تركت ذاتها فلم تحتجب هناك بها عن رؤية ربها، وذلك هو نهاية المرام، وتمام الكلام، وإنَّ لها في عالم الجسم حالاتٍ لا تُحَدّ، ومقامات لا تُعَدّ، في دائرة أبداً ولا تُرَدّ، وكلّما دارت دورة منها ظهرت لذاتها بذاتها، واختفت عنها لعلوّ صفاتها، فربّما ظنّت إيّاها فاعلاً ومفعولاً، فليست من الكِبْرِ رداءً يرديها، ويحجبها بما فيها، فيطلع عليها بارئها فيهديها ويداويها، ثمّ يدبّرها ويريها، فإذا دارت ثانياً رأت ما رأته بادياً، لكنّه في رتبةٍ أعلى، ومَحلٌ أجلى وأحلى، فلمّا عَلت إذ دنت، قامت في مقامها، وادّعت فعاد سبحانه عليها برحمته عليها، وهداها بما لديها،

ثمّ سلّم زمامها إليها، فلم تزل على هذا المنوال دائرة بهذا الحال، وما ذلك إلاّ لأنّ من سوسها أنّها متى انفصلت عن لذّاتها، واتّصلت بذاتها، ونزعت إلى كمالها، وبزغت في جمالها، وتحلّت بصفاتها، وتجلّت على ذاتها، شاهدت إيّاها في كُلّ ما سواها، فاستلذّت لذّة عجيبة لا تحصرها الألسن، ولا تُشَاهَد بالأعين، ومع هذا كلّه متى لم تكن معصومة بالنبأ العظيم، مهديّة إلى الصِّراط المستقيم، فإنّها على ما هي عليها محجوبة عن معنى المعاني، قد اشتبه عليها الأوّل بالثاني، ثمّ إنّها رُبّما رَقَّت، فترقّت، فدارت بادية، وعادت غادية، فدخلت من غير الباب، ولبست غير تلك الثّياب، ثمّ نظرت فيما قطعت فوجدته الآن جرعةً من شرابها بل سِنَةً من سرابها، فتوارت في أحلامها، وقامت كما قامت قبل في مقامها، ولكنّها فتنت بأنّها تُشاهد في سائر الصِّفات، ومجموع الحالات صور المثالات مجموعة ومفرقة، كليّة وجزئيّة، ظاهرة وباطنة تنطق بالأحديّة، وتشهد بالأزليّة الأوليّة، فلمّا شهدت شهاداتها في مرآة ذاتها، مالت حينئذٍ إليها، ووقفت ذاتها عليها، فتقدّمت أسماؤها، وتعالى علاؤها، وإنّها في سائر هذه المثالات المضروبة، والحالات المحبوبة، مطرودة بها، محجوبة بسببها، ولا تزال كذلك في سائر المسالك، وكلّما علت في الممالك هوت في المهالك، إلا إن دخلت من الباب، واعتصمت بالكتاب، فهنالك توالجتها المحن، وتخالجتها الفتن، فإن استقرّت في سائر الحالات مستمرّة على الثّبات، ربما عطفها عاطف عنها إليها، ثمّ أخذها منها، وردّها عليها، فرادها رائد من الشّوق، وزادها مما يكاد لا يدرك إلاّ بالذّوق، فتغيّرت تلك الأغيار، وطمست تلك الآثار، وحالت الحالات وانخلعت الصِّفات والهيئات، وهاهنا أيضاً ربّما وقفت فانحرفت، أو انفصلت فاتّصلت، فإن استقرّت جاحدة، واستمرّت ساجدة، فهنالك لها الإيماء إلى ذلك، وقد كادت أن تقطع عنه المسالك. وعلى هذا التّقرير يجب أن يكون التّدبير، كلّما ظهرت عزّة ذلّت، وكلّما بهرت كثرةً قلّت، وهي أبداً تخلع ملابس الكبرياء، وتتقمّص بقمص الفقراء، وتتّبع مواطن الإسقاط، وتسلك سبيل الانحطاط، إلى أن تصل إلى الحدود، وتحلّ محلّ المولود، فتكون على فطرة الإسلام، فتلك رتبَتُها والسّلام.

وبعد هذا النّظام، والاعتصام بالإمام، قلبك أبداً إيّاها مردوداً عليها، وراجعاً إليها، لئلاّ تبرز اللطائف في الكثائف، والمعارف في المآلف، فتشتغل عن ورودها منها بما تورده عنها، فإنّ من المعاني ما لا يدرك بالمباني، ومن الباقي ما لا يمثل بالفاني.

نقل من الرَّوض الأُنُف:

الرُّوح هي النَّفس باعتبار، وهي العقل باعتبار. فالرُّوح مشتقّة من الرِّيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحِجر: ٢٩]، ولم يقل: من نفسي، ومثل ذلك أنّ الماء الّذي يسري في أصل الشَّجرة إنّما هو ماء، فإذا مازج جسمها صار حامضاً أو حلواً مثلاً، وكذلك نفخ الروح في الجنين. فإذا كبر واكتسبَ سُمِّي بعينه نفساً. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدّثّر: ٣٨]. ويعبّر بالنَّفس عن جملة الإنسان. تقول: عندي ثلاث أنفس، ولا تقول: ثلاثة أرواح وقد جاء في الكتاب العزيز مما يدلّ على هذا كثير.

وكذلك الكلام في العقل، إذا اتّصفت به النَّفس صارت عقلاً يعلم ذلك بالفكر مع الوقوف على مقتضى الألفاظ لُغةً.

صِلَةٌ:

شعر: [المنسرح]

واشتُقَّ عَقْلٌ من العِقالِ كذا ... كَ النَّفْسُ مشتقَّةٌ مِن النَّفَسِ

فالوصفُ كالذّاتِ قد أقيمَ كذا الـ ... وصفُ مجازٌ كالقَبْسِ والقَبَسِ

بيان:

ليس العقل شيئاً سوى التّصوّر والتَّمثُّل، وإذا عدمته النَّفس عدمت ذاتها، فهي ميتة.

من رسائل إخوان الصّفاء:

سَريانُ قوى النَّفس في مفاصل الجسد واختلاف أعضائه. كسريان أجناس الملائكة، وقبائل الجنّ والإنس والشّياطين في أطباق السَّموات والأرضين، من أعلى عِلّيين إلى أسفل سافلين. فانظر إلى هذا الهيكل المبني بالحكمة، وتأمّل هذا الكتاب المملوء من العلوم، وتفكّر في هذا الصِّراط المستقيم بين الجنَّة والنّار، وتأمّل هذا الميزان الموضوع بالقِسط. فكما أنَّ حياة الأبدان بالتنفُّس، فكذلك حياة النّفوس بالتفكّر، وكما أنَّ النَّفس لا تسكن في النَّوم واليقظة، كذلك النَّفس في الفكر والجولان، وكما يتصرّف المتكلّم في النّفس الطَّبيعي، فيجعله إراديًا، كذلك يتصرّف في الفكر. ولمّا كانت الحركة في جملة العالم، لزم أن يكون محدثاً للّزوم والاختلاف والتّغيّر، فسبحان الذي لا يتغيّر ولا يحول.

أمر:

لِيَكُنْ قَصْدُكَ من الأفعال غاياتها، فإنَّ الزَّرع لا يُطلَبُ للعُشب، بل لأجل الحَبِّ.

إيضاح شريعة بحكمة رفيعة:

إذا فارقت النَّفس هيكلها بقي لها ما اكتسبته من العلوم الرّبّانيّة والأعمال الدِّينيّة، والأخلاق الصّالحة الزّكيّة، فلذّتها بها مستمرّة، كلمّا لاحظت ذاتها امتلأت سروراً، وإذا كانت بالعكس ورأت جوهرها مظلماً فاسداً، امتلأت تَرحاً وغمًّا، وكيف الفرار لها من ذاتها، فهذا خلود في جحيم، وعكسه خلود في نعيم، فاحذر أن تقتصر على هذا فقط، لكنّه مثال ومن ورائه قبول ما بعده، وكلّ قابل إنّما يقبل بحسبه، ومن جنسه ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [هُود: ٢٠]، و﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سَبَإ: ٣٧]، و﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غَافر: ٥٢].

وقال: نظم: [الطويل]

تَوَخَّ سَبيلَ الرُّشْدِ واجْنَحْ إلى التُّقى ... وخَلِّ عن الآثامِ واجتَنِب الفُحْشا

تَفَرَّدْ عَنِ القَوْمِ الَّذينَ اتَّخذتَهُمْ ... لأُنسِكَ واستَبْدِل من الأنسِ الوَحْشا

فَلَسْتَ تَرى إلاّ مُسِيئَ عَداوَةٍ ... يُعِيرُكَ نُصْحاً وَهْوَ مُعْتَقِدٌ غِشّا

أرى باطِنَ الدُّنيا سُمومَ أرَاقِمٍ ... وَإنْ ملأت للعَيْنِ ظاهرها نَقْشا

مثال:

يجب أن تفقه من خاصيّة الدُّنيا أنَّ القَلْبَ يميل إليها، فمتى قابلها عن قُرب جَذَبَتْهُ جَذْبَ المغناطيس للحديد، وشفاؤه في البُعد، وكلّما بَعُدَ أمِنَ، ولا تنفعه شدّته وبأسُه، وكَسْرُه لسائر الأحجار عند القُرب، وذلك لعلّة عِشقيّة، وإنّما جعل القلب بهذه المنزلة ليميل بسهولة إلى الرُّوحانيّات عن الجسمانيّات، وكما أنّ الحديد إذا لازم المغناطيس زماناً صار فيه قوّته فجذب حديداً آخر، كذلك القلب إذا لازم الرُّوحانيات فعل في غيره كفعلها فيه. وكما أنّ ملازمة الصالح تؤثر الصَّلاح، فكذلك ملازمة الفاسد تؤثر الفَساد.

شريعة بحكمة:

النَّفس كالزُّجاجة الصَّافية، وقد ملكها اللّهُ اختياراً وإرادة تتمكّن بهما من المَيْل إلى الشَّيء وضدّه، وهو سبحانه يمدّها بما تريد لقوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسرَاء: ٢٠]. والثَّوابُ والعقاب إنّما يقع على ذاتها من جهة صفاتها، والشَّيطان عبارة عن مجموع الصِّفات الرَّديئة، فمتى اتَّصفَ بها عادت كذَّابة، متكبّرة، جاهلة، غلاظة، لا تحفظ عهداً، ولا تكتم سرًّا، ميّالة أبداً إلى الشَّهوات، فإذا استمرّت غلبت عليها العوائد وأَلِفت الفاني، وقيّدها حُبُّ الرَّاحة والتَّواني، فصارت هذه الأخلاق لها كالطَّبع، فلم تتأثّر بوضع ولا شَرْع، وعلاجها في سائر الأمر بما تكره لتلبس الصَّبر.

نظم في ذلك: [البسيط]

لِلنَّفْسِ وجهان لا تنفكُّ قابلةً ... مِمّا تقابل من عالٍ ومُستفِلِ
وَجْهٌ إلى الحَقِّ فيهِ الحَقُّ ثَمّ لها ... وَجْهٌ إلى الخَلْقِ لا ينفكُّ عن زللِ
كَنَحلةٍ طَرَفاها في مُقابلةٍ ... فيها من اللَّسْع ما فيها من العَسَلِ
والعَقْلُ يشهدها الأولى فكُنْ أبداً ... مقابلاً قابلاً في القَوْلِ والعَمَلِ

من رسائل إخوان الصفا:

النَّفس الكلّيّة تُسمى عند الحكماء طبيعة، وعند المُشرّعين هي ملك من ملائكة الله الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحريم: ٦]، وكما ينبثُّ النور والحرارة من الشَّمس التي هي بوسط الأفلاك في جميع العالم، ويمدّ كلاً بحسبه، وبه يحصل التّكوين وغير ذلك، كذلك في الإنسان من الحرارة الغريزيّة المنبثَّة من قلبه، المتّصلة بجزئيّات بدنه، ومن زُحل في العالم الأكبر، كما من الطّحال، ومن المرّيخ كما من المرارة [الصَّفراء] ومنه مالك، ومن المشتري كما من الكبد ومنه رضوان، وكما من الزّهرة كما ينبثّ من جرم المعدة شهوة الملاذ ومنها روحانيات الحوت، ومن عطارد، كما من الدِّماغ، ومن القمر كما من الرِّئة، ويعاون بعضها بعضاً في الأمر الواحد، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

نظم: [الكامل]

فالأرْضُ كالبَيْتِ العَتيق وحَوْلَهُ الـ ... أفْلاكُ والأمْلاكِ كالطُّوَّافِ
وَبِهِ الخَليفَةُ ظاهِراً وفؤادُهُ ... بَيْتٌ بِهِ ذاك الخَليفَةُ خافِ

حَيٌّ عَليمٌ قادرٌ مُتَكَلِّمٌ ... يختارُ يُبْصِرُ سامعٌ بتَنَافِ
ولأجْلِهِ كانَ الجميعُ لأنَّهُ ... هُوَ صَاحِبُ الأسْماءِ والأوْصَافِ
فاعْرِفْهُ مَخْلوقاً تعالى رَبُّهُ ... عَنْهُ وهذا في العَمارَةِ كافِ

موعظة:

العالم الغير عامل كالحاسب لغير حاصب، والتَّاجر إنّما يفتقر إلى الحساب من أجل أنّ له المال، وعدم الأعمال أشدّ ضرراً من عدم المال.

تجربة وعلم:

إذا طالبتَهُ لاطَفَكَ بكُلِّ شيءٍ، فإذا عَرَفْتَهُ قطع عنكَ كُلَّ شيء، فإذا لم تَرَ في كلِّ شيء غيره، أعطاك كُلَّ شيء.

تعريف:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

النَّفس ملك بالقُوّة، يمكن أن يكون ملكاً بالفعل، وشيطاناً بالقُوَّة يمكن أن يكون شيطاناً بالفعل، وأمرُها إليك، وزمامها بيديك، فإن أطعتها عَصَتْكَ، وإن عَصَيْتَها أطاعتكَ.

بيان وافٍ:

سائر المحسوسات في العالم الأكبر أمثلة لما في العالم الأصغر، وهو صاحب الأسماء المسخّر له ما في الأرض والسَّماء، الخادم لإيّاه، المخدوم فيما عداه. فكثيفه ظهر، ولطيفُهُ استتر، وهو المبسوط في العالم الأكبر ليعرفه بما جلَّ، والمجموع في العالم الأصغر ليثبته بما قَلّ. ولمّا بدا في المظاهر اختفى في الظّاهر، فيظهر في الخارج، ويرى ما وجب ظهوره من الباطن ممّا لا يرى، كما تبيّن للإنسان من إنسان أو حيوان أو معدن أو نبات أو هيئة من الهيئات في سائر الأوقات ما يحبّه ويكرهه، أو يعرفه أو ينكره، إعلاماً له في الظّاهر بحالة الكامن في الباطن. وكما أنّه يدرك في النَّوم بحواسّه الباطنة صوراً في خياله، فكذلك يُدرك بحواسهِ الظّاهرة ما ينطق بحاله، ونتيجة المدركين هدًى في المثالين ليظهر لأُولي الألباب فضيلة الاكتساب، والأتقى يرقى، وسيجنّبها الأشقى، فذو الفرقان بذاته ناظر في مرآته، مهديّ إلى صفاته. في سائر أوقاته، فإن نظر إلى سواه، لم يرَ إلاّ إيّاه، مثاله حاذاه، مقاله ناداه، فعاله باداه،

خياله عاداه، فليترفقْ بنفسه في عقابه، وليتلطَّفْ بإيّاه في سؤالهِ وجوابه، إذ عائد كُلّ ذلك عليه، والأمر فيه إليه، والولد والآل، والحال والمال، فتنة في الخيال، والقال والفعال، والهجر والوصال، والحرام والحلال، والأضداد والأشكال، وبقيّة الأحوال ضربت له بها الأمثال، والحقائق على حالاتها، والدَّقائق على هيئاتها، وما خرج عن كيانه، أو تنحّى من مكانه، فذلك بحسب رأيه لا لحادث حدث فيه، بل كل حقيقة قائمة بذاتها، ثابتة في هيئاتها وإنّما يظهر لتغيّر مرآتها تغيّرٌ في صفاتها، وصاحب الدَّارين هو المسمّى باثنين أُنُثٌ أنثى. فسائر المعاني للواحد الثّاني، ولولا وجوب الأوّل لما انتهى السَّبر، ولولا تغيّر الثّاني لما علم أنّه غير.

زيادة:

كل مشاهد في عالم الكون تمثيلات معانٍ في عالم العقل، والحقيقة غير زائلة، ولا بائدة بزوال المثل، وإنّما يصوّر العقل ذاته في الهَيُولى، ثمّ ينظر بذاته إلى معاني ذاته، فيلتذّ لا بشيءٍ خارجٌ عنه لذّةٌ عجيبة سرمديّة، ونعني بالعقل هاهنا النفس العاقلة، وهذا هو التّرجمان الأعظم.

تتمّة:

كما أنَّ المرآة التي رسخ فيها الصَّدأ لا يؤثّر فيها الصِّقال، إلا أن تعاد إلى النّار، كذلك النَّفس المغمورة في حبّ الدُّنيا، لا يؤثّر فيها المواعظ، إلا أن تُرَدَّ إلى المصائب.

نظر:

الإنسان ناطق لا يزال فمهما لم يُشْغَل فينطق بالذِّكر نطق بالفكر، ومتى لم يقيّده العقل جرى في ميدان النِّفاق والجهل.

مضارع:

الإنسانُ مُسَخَّرٌ، ومُسَخِّرٌ له، فمتى لم يستعمل الملائكة استعملته الشَّياطين.

صحّة:

إذا قويت النَّفس على قهر هواها شغلت بمولاها، وهذا مع علاقاتها البدنيّة، وضروریاتها الدينيّة، فهنالك هي أولى بذلك لتمام التجريد، وانكشاف سرّ التوحيد.

حالة للنّفس:

النّفس ترى ظاهراً صور معانيها، وباطناً معاني صورها، فالوجود بما فيه، هو دخول صورها في متصوّرها.

هداية وكشف:

لمّا كان البارىء تعالى غنيًّا عن أفعال العباد، وقد خلقهم فاعلين مختارين بقدرة وهبهم إيّاها سبحانه، ولزم أن يكون عائد أفعالهم عليهم، وإذا كان كذلك لزم أن يُعرّفهم ما يضرّهم منها وما ينفعهم، ويدلّهم على استدراك ما فرط، وجلب ما يزيدهم من الخيرات، فعرّفهم سبحانه بالأوامر والنّواهي، ما يضرّ وما ينفع، وجعل ذلك بصورة الأمر منه، حتّى كأنّ العائد يعود عليه، ثمّ جعل الثّواب والعقاب تأكيداً، ثمّ علّمهم استدراك ما فرط منهم بالتّوبة، وجلب ما يزيد بالدُّعاء، وربَطَ الأمر بالصَّبر، وجعل هذا القدر رضاه منهم ترغيباً لهم فيه، فمن زعم أنّه يطلب الله، فغايته أن يطلب رضاه، ومن طلب رضاه فهو الذي عمل على مصلحته في دنياه وأخراه، فما ظهر منها حقّقه بالعقل في سائر الأبواب، وما خفي قلّده بالنّقل الصحيح عن الكتاب، ومتى تبرّأ العبد من هواه، وعمل على نفعه مقتدياً بكتاب الله، فقد بلغ رضاه، إذ لا يعود النّفع على أحد سواه، ومن علم أنّ إيجاد الوجود لا عن افتقار ولا عبث، فقد تحقّق ما قلناه.

واعلم أنّ الله تعالى قد خلق الأكوان، ووهبها للإنسان، وهداه ومكّنه فيما لديه، وجعل اختياره وأعماله عائدُها عليه، وجعل الأمر في ذلك إليه.

نظم في ذلك: [البسيط]

يـا نـائـمـاً عَـن هَـواهُ قـطّ لـمْ يَـنَـم ... قُـمْ واقْرَعِ البَابَ بينَ العَفْوِ والكَرَمِ

مـا كـانَ كـانَ فـلا تَـفْـكُـرْ بـهِ أبـداً ... إذا نـدمـتَ أضَـعْـتَ العُـمْـرَ في النَّدَمِ

نبأ:

جميع الملاذ والمحبوبات، بل سائر المعقولات والمحسوسات موجودة في النّفس مضافاً إلى ما فيها أيضاً، وإنما رأت في الخارج وأحبّت ما هو فيها، وإذا فارقته بالموت، إنّما فارقت علاقتها علاقته الصّورية، ثمّ وجدت ما شاءت من أهلٍ وولد، وغير ذلك أقرب إليها، وأيّ قرب، لأنّه لا مكان هناك فيعتبر فيه القرب بالنّسبة إلى بعد، ولهذا إنّما وسعت الأفهام هاهنا من ذلك ما جاءت به العبارة العُليا

بقوله تعالى: ﴿لَمْ نَا يَنَآءُونَ فِيهَا﴾ [ق: ٣٥]، ثمّ قال ما يدقّ فهمه عن إدراكِ البَصائر، فيحتاج إلى الإيمان بالغيب، وهو قوله سبحانه: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، ولا أعظم من هذا، وفي قُبالة هؤلاء ما أنبأ فيه بقوله: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، لأنَّ جميع ذلك في النَّفس مركز مبثوث، مشاهد لها فيها حيث ما تُشاهده في الخارج من جميع الجسمانيّات، فإذا زالت الحُجب الجسمانيّة رأت ذلك حاضراً، ولهذا مثال مشهود من المنام الصَّادق، وهاهنا للمتفكّرين في معراجهم يحسبهم فيه.

موعظة لهم وذكرى:

ومن ترقّى من هاهنا، ذائقاً بالعمل، مجاهداً لفكرته عن التَّقلقل، مستقيماً، رافضاً للحواسّ، ملازماً لحالة عشقيّة، ملاحظاً للحمد، رقي من محلّ الإنس إلى مقام التَّوحيد، ومن هنالك يسير إلى الوصول حتّى يصل إلى اليسير فافهم.

ولمّا كانت النَّفس لا تنال من القرب إلاّ بحسب تجريدها، ولا تجريد إلاّ باجتهاد، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العَنكبوت: ٦٩]، ولمّا كان زبدة الجهاد المطلق هو الصَّبر، كان حكم الصَّابر كحكم من حبس نفسه عن السَّير في سائر السُّبُل، إلا واحداً، ومن شأنها سير أبداً فسرت فيه ضرورة.

تقريب:

اخطر ببالك أنَّك إذا أدمت النَّظر في بركة ماء فيه أنواع الحيوان، وأشكال على الحيطان، ثمّ إنَّك إذا حقّقتَ النَّظر، وتوغّلت في التأمُّل والفكر، فوجدتَ أنَّ سائر ما شاهدته في ماء البركة من جميع معانيها، إنّما هو خيال لما في الدَّار التي أنت جالسٌ فيها، لكنَّك شغلت برؤية ما لديك عن الالتفات إلى ما هو حواليك، فإذا رفضت الفاني، وقلبت النَّظر، شاهدت الباقي كلمح البصر، فَخَلِّ اختلالات الخيال، وخذ على هذا المثال، قبل وصل القطع، وقطع الوَصال.

ترهيب وترغيب:

جماع الشُّرور والأضداد، في عالم الكون والفساد، لأنَّه مأوى كلّ نزر رذيل، ومتغيّر مستحيل، وصورة الإنسان هي نسخة الأوان في محل التغيّرات، ومقرّ الآفات والاختلافات. ولهذا أصل القبائح والشُّرور ينشأ عن الجسمانيّات، وكلّما قويت علاقة النَّفس بهما، كان بعدها عن الرُّوحانيات بحسبها، وتستمرّ العقوبة عليها متواترة، في الدُّنيا والآخرة، إلى أن تتحقّق الحقائق، وتنقطع العلائق. فإذا انتقلت من عالم

الأجساد، فارقت العوائق والأضداد، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. فمحبوب الأشباح مُتَغيّر مع الأحيان، ومحبوب الأرواح ثابت في كُلِّ آن، وحيث الفناء يكون المحبوب بحسبه، وحيث البقاء يكون المحبوب بحسب مُحبّه، وقد يُضرب المثال بما تصوّره الخيال من استحضار صور لطيفة عجيبةٍ في الجمال، وإذا وجدت ظاهرة رأيتها كثيفة متغيّرة المواد والأشكال، وظلمة الأجساد الموجبة للاختلال، فمن شهد المثال زهد في الأهل والمال، ولذّات الخيال. ومن عمل للمآل بلغ الآمال، ووجد ما فقد باقياً على أيسر حال، وأنعم بال، وكما هاهنا محلّ المتاعب، وعدم اللّذّات الفانيات، فهنالك مقرّ الرّاحات، ودوام اللّذّات الباقيات.

علاج:

كما أنَّ النَّفس في الظَّاهر إذا مُنِعَت محبوبَها ضاقت وغضبت، كذلك في الباطن قد يحتجبُ عنها أمرٌ حقّ، فيجد الإنسان انحصاراً وضيقاً لا يعلم له سبباً، فليبعد عن الفاني تُكشَفْ له المعاني.

كشف ردى وسبيل هُدى:

لا معنى للظُّلم إلاّ أن تمنع الغير شيئاً يستحقّه من الخير، فالّذي ظلم نفسه هو الذي منعها حظّها من الصَّلاح بميله إلى الفساد، وإنّما خُلِقَ ميّالاً إلى الطَّرفين ليميل عن الشُّرور والشَّهوات إلى العقليّات، فمن حيث مال إلى الأدنى فقد ظلم نفسه بمنعها عن حظّها من الأسنى، فهاهنا هو إنسان ظالم، وهنا هو إنسان عادل، وبهذا يعلم معنى قولهم: أوّل مراحلك أن ترحل عنك إليك، ثمّ ترحل إلى ما كنت به إليك عنك، ثمّ تصير إلى من به رحيلك، وهو الذي كان معك في الطَّريق، ولاطفك في كلّ حال، وأخبرك عنك ثمّ نبّأك بما لم يكن سرّه وعلانيّته إليك، فلمّا صفاك واستصفاك صافاك، ولمّا صافاك قطع كلّ ما بينك وبين غيرك، ثمّ قطع كلّ ما بينك وبينه، ثمّ جمع كلّ ما قطعك به، فجعله وصلة لك.

زُهد:

الشَّوق إلى الأشباح شوقٌ إلى الفاني، والعقل مُنَزَّهٌ عن ذلك لإيثاره الباقي وما لا بقاء له، فلا فرق بين كثيره وقليله، ومن خداع النّفس أنها توهم الشَّوق إلى الأرواح بواسطة الأشباح، فيقال لها: إنَّ من الجائز أن يكون المشتاق إليه قد مات، أو انقلب عدوًّا، أو هو حين الاجتماع به شيطان، أو كافر لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، فكيف يجوز الشَّوق إلى مَن لم يتحقّق من

حاله سوى صورة الجسم مع جواز عدمه، فلم يبقَ سوى ظنّ، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النّجم: ٢٨]، وما لا بدّ من مفارقته فلا فائدة في مواصلته ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التّغابن: ١٥]، وإذا كان كلّ ما يفعله العبد مع غيره، أو يفعله غيره معه من خير أو شرّ، ليس له أثرٌ في الآخرة إلاّ في فاعله، ولا يناله خير إلاّ من عمله، لقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصّلت: ٤٦]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النّجم: ٣٩]. فما الحزم أن تعمل لسواك، ولا أن تشتاق إلاّ إلى إيّاك.

وصيّة:

اجعل جسدك بيتك، وقلبك خلوة في البيت، واجتهد أن لا تبرح في خلوتك منتظراً لمحبوبك، فلعلّه أن يزورك فيجدك حاضراً، والمكان خالياً.

تعليم:

اعلم أن قيمة العمر ما يُكتَسب فيه، فمَن كسب الباقي فلا يقوم كسبه، ومَن كسب الفاني فلا قيمة لكسبه، ولا كسبَ أفضل من علم، فكثير العمر مع الجهل قليل فانٍ، وقليله مع العلم كثير باقٍ، وتطويل قصيره إنّما هو بالتّجريد، وتقصير طويله صرفه فيما لا يفيد، ومن استفاد علماً، ولو في لحظة أو في نوم أو يقظة ندم على ما من عمره فات، واحترز على باقيه من الآفات، فطالت بالعلم أوقاته، وطابت بالطّاعة حياته، والمعرضون عن الطّاعة ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الرُّوم: ٥٥].

شيطان:

الشّيطان اسم مشتقّ من شاط يشوط شوطاً في الأرض، وهو سرعة السّير، وهو في الإنسان كناية عن الخاطر الّذي لا يستقرّ به الفؤاد، بل يشوط دائماً في الأرض، ويهيم في كلّ واد.

والخاطر خاطران؛ علوي: وهو الملكوتي، وينقسم إلى أقسام هُنّ بمنزلة الملائكة، وسُفليّ: وهو الأرضيّ الذي أُهبط من الجنّة إلى الأرض، ومعنى الجنّة مأخوذ من الاستتار لِلُطفها وروحنتها، ومعنى الأرض الجسمانيّات، وما يتعلّق بها، فما كان من الخواطر علويًّا فهو روحانيّ ملكوتيّ، وهو من الجنّة، وما كان سفليًّا فهو جسمانيّ شيطاني، وهو من الجِنّة.

يا عاقل! هو أبى أن يسجد لك سجدةً واحدة وقد أُمِرَ، فكيف تسجد له دائماً وقد نهيت.

حقّ:

لو قدّرنا أنّ إنساناً تحقّق أنّ متاعبه في النَّوم تنقلب راحاتٍ في اليقظة، وبالضدّ، ثمّ رأى مناماً يتضمّن المتاعب، ويحتوي على المعاطب، مع علمه أنّه نائم، لما كان يبالي بما يراه من المصائب، ولا يأسى على ما فاته من الأطايب، لتيقّنه أنّ ذلك من باب الخيال، وتحقّقه بما يؤول إليه الحال، ومن أبلغ الكلام في هذا المقام، قوله عليه السَّلام: «**النَّاسُ نِيامٌ**»[1].

لمحة الجنان من ملحة الجنان:

سرت نسمة فسرت كرباً، وسرت قلباً، وجلت همًّا، وجلت مشاهدة وعلماً.

إنّ ذوات اللَّذائذ والطَّيّبات من المنظورات والمسموعات، وبقيّة المحسوسات، إذا تجرّدت منها الذَّات، وعلت بملكة التّجريد عنها عليها، رُدّت لطائفه إليها، فإن نظرتَ إلى ما فوقها من العقليّات أمدَّت بالهبات العليّات، وإن نظرت إلى ما دونها من الحسّيّات واللّذائذ الجسمانيّات، شهدت في ذاتها سائر مطلوباتها، واستمرّت في الحالتين خالدة في جنّتين، وقد تضرب الأمثال فيما يتصوّره الخيال، وإن جلّ عن المقال، كالنَّاظر إلى خضرة البستان، ونضارة الأغصان، وجريان الغدران، مع سماع ظريف الألحان، على لطيف العيدان، من طرائف الحسان في محلّ فيه الأماني والأمان، فهذا يجد في ذاته من إدراك لذّاته ما لا يخطّه البنان، ولا ينطق به اللِّسان، حتّى لو أغلقَ عينيه، وحجب عن السَّماع أذنيه، لبقيت لذّته تلك مستمرّة عليه، وربّما تلطّفت في مرآة الفكر، فزادت على لذّة النَّظر، فهذا اللَّذيذ الموجود مع الإعراض عن المشهود، منه جنّتان ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ۝٤٨﴾ [الرَّحمٰن: ٤٨]، موجودتان في كلّ آن، خباء في ذات الإنسان، فلو غاب لحضر، ولو نَسي لَذكر، وشهد في ذاته كلمح البصر سائر مطلوباته ممّا بطن وظهر.

إلحاق:

الطَّاهرات المقدّسات، والرّوحانيات الواصلات لم تزل ذاكرات، شاهدات حاضرات، وإنّما شغلك عنها الحسّ فظننتها غائبة، ولو قطعت شواغل الأجسام،

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير، من كلام سهل بن عبد الله التستري برقم (٥١٥) [ج٢ ص٢٠٧]، ولفظه: «**الناس نيام فإذا انتبهوا ندموا وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم**» ورواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء [ج٧ ص٥٢] من كلام سفيان الثوري.

كحالتك في المنام، كشف لك سرّ اللّطائف الرُّوحانية في الصّور الجسمانيّة، وخوطبت بأسرار الذّوات، وأسجد لك ما في الأرض والسّماوات.

نفس: [الطويل]

هيَ النَّفْسُ تَنْمُو دائِماً ونُمُوُّها ... دَليلُ حُدُوثِ العَالَمِ المتجدّدِ
زيادتُها عَن أمْسِ دَلَّتْ حَقيقةً ... عَلى أنَّها في اليومِ أنقَصُ من غَدِ
فَنُقصانُها بالذَّاتِ أصبح شاهداً ... لِرَبٍّ يَراها بالكَمالِ المُؤبَّدِ

إعانة وعلاج:

يُستعانُ على النَّفسِ بثلاث؛ الأوّل: بمنعها مشتهياتها، فإنَّ الحمار إذا مُنعَ بعض قضمهِ انقادَ. الثّاني: تحمّل أثقال العبادة فإنّ الحمار الّذي يُذلَّلُ حِرانه إنّما يذلّ بثقل ما يُحمل عليه. والثالث: التَّضرُّع إلى الله من شَرِّها دائماً.

ويُستعان على الشَّيطان بثلاث: تَعرُّفُ مكائده، وتركُ الاعتناء بوسوسته، وإدْمانُ ذكر الله.

أصل:

زَيْدٌ لا يمكن أن يصوم، أي مع قدرته على الصَّوم. زَيدٌ لا يمكنه أن يصوم أي لعجزه، فافهم الفرق بين الإمكان والتّمكين. فنقول: أبو لهب لا يمكن أن يؤمن، ويمكنه أن يؤمن، فأمره الله تعالى، فلزمته الحجّة من جهة التّمكين، ولا يكون مجبوراً لأجل انتفاء الإمكان، لأنَّ انتفاءه إنّما وقع باختياره لنفسه مع قدرته، فعلمه الله سبحانه من قبل.

تهذيب:

إنّما يؤجَر الأجير على قلع ما ينبت من الشَّوك في روضة المالك، وكلّما تكرّر عَوْدُ الشَّوك، عادت الأجرة للأجير. ونفسك روضة أنت أجيرها، فهل يحزن بما يجب أن يفرح به إلاّ كسلان يُحرم الأجرة.

معراج:

القُرآن فهرست الكلّ، فاستعرض من العوالم مهما أمكن بقرآن الفجر، مُترقّباً ما يوحي إلى فكرك من المعاني بالمباني، فإذا تألّق برق فكرك في معراج فاحفظ أوّل نهارك بالفكر فيما بدأت به، يحفظ لك النّهار كلّه.

كشف:

كما أنّ مادّة الحيوان الاسطقسات، كذا العالم السُّفلي مادّته من العالم العلويّ، ومتى تشبّه المفعول بالفاعل صار واسطة بذاته في تدبير العالم، وإيجاد ما يجب وجوده فيه، وذلك بعد المفارقة، وله قبلها بحسب التَّشبّه بالصِّفات إيجادٌ تأليفيّ في الجسمانيّات، وإبداع في بعض الرُّوحانيات.

فالإنسان عالم سفليّ، وسائر الأشياء قُشوره، والجسم أرض، والنّفس نواة في أرض الجسم، يلحقها من نور الحقّ كما يلحق النَّواة في الأرض من حرارة الشَّمس، فمتى برزت النواة من الأرض صارت نخلة، ورأت العالم وعجائبه، وطلعت الشّمس عليها كفاحاً.

ولمّا كان النَّوم بعض الموت وقد رأينا النفس تدرك فيه من الغيب ما لا تدركه في اليقظة، علمنا أنّها في الموت أشدّ إدراكاً، فلا مطلوب أبلغ من الموت، وكُلُّ طريقٍ، ورياضةٍ، وتجريدٍ لا يؤدّي إليه، فليس له ثمرة.

شعر: [السريع]

سَعَتْ تَؤُمُّ المَوْتَ أقْدامُ ... قَضْداً بِهِ جِدٌّ وإقْدامُ
الموتُ بابُ اللّهِ لو لم يكُنْ ... ما فازَ بالمَطْلوبِ أقْوامُ
فراقِبِ الموتَ تَرَ واحداً ... وكلُّ ما في الكونِ أصنامُ
فالكونُ للإنسانِ بدءٌ إلى ... غايَتِهِ والمَوْتُ إتْمَامُ

ومثله: [الطويل]

إذا رُمْتَ أنْ تَحيَا فَمُتْ عن علائقٍ ... منَ الحِسِّ خَمسٍ ثمّ عَنْ مُدْرِكاتها
وقابِلْ بعينِ النَّفسِ مرآةَ عَقْلِها ... فتلكَ حَياةُ النَّفسِ بعدَ مَماتِها

كمال:

الكامل من كان طريقاً لجريان النُّعوت الإلهيّة، وهو يعلم الفرقان بينها وبين العلم بها.

مضارع:

النفس:

للنّفس مواطن؛ فهي في كلّ موطن غيرها في غيره. ومع ذلك هي هي، ومواطنها لا تُحصى، وحالاتها وأسماؤها لا تُستقصى، فهذا حالها مع موجود موجودات سواها، وواجب سوّاها. فإذا استقامت في موطن صدق، وقامت على قدم عشق، في باطل وفي حقّ، تجلّت لها ذاتها، وقد تجلّت بصفاتها، فخاطبها معناها كأنّه سوّاها، فظهرت في صورة جسمانيّة كثيفة، أو معانٍ روحانيّة لطيفة، فتراها في منامها، وتخاطبها في أحلامها بأنواع الغرائب، وتخبرها عن الغائب، وإذا قويت عوائدها، وأثمرت فوائدها، سمعت تلك المخاطبات يقظة من الصّور الإنسانيّة وغيرها جهرةً، فتارةً يناطقها غيرها من النّاس بما تفهم، والمناطق لها لا يعلم، كما أخبر المستيقظ العالم، إذا سأل فأجابه النّائم. وتارةً يخاطبها المستيقظ لأمرٍ له عرض، فتفهم من خطابه ما لها فيه الغرض، كما نَبَّه على ضيعة العمر أرباب القلوب.

ثلاَج:

يُنادي: ارحموا مَن رأسُ مالهِ يذوب، فاضطربوا وصاحوا وتباكوا وراحوا.

وتارة يخاطبها الطّفل الصّغير بخطاب العاقل الكبير، كما أخبر من عاهد ونكث، أنّ الطّفل أكذبه، وفي وجهه نفث، فكان يسأله عن ذلك ويلاعبه، والطّفل لا يلوي عليه ولا يقاربه.

وتارة يخاطبها بعض أولي العقول وهو غافل، فلا يدري ما يقول كما أخبر السّائل عقيب قول القائل، لماذا لفظت؟ وماذا أردت؟ فأجاب: تاللّهِ إنّي غيّبت الآن عنّي، فلم أعلم أني نطقت، حتّى أذكرتني ذلك فأفقت، لكنّي لا أعلم بحالي، ولم أدرِ لماذا كان مقالي.

وتارة يخاطبها العالم العارف، فيكون لها كالمُكاشف.

وتارة تتخلّى عن الظّواهر، فتتجلّى في السّرائر، فيشاهدها الرّجل الحاضر، ويكلّمها بها على الخاطر، وهذا هو نصيبها الوافر، وبحرها الزّاخر، وهي في سائر هذه الأحوال المذكورة، والأقوال المسطورة، تناجي إيّاها وتناطقها في سواها، وذلك من أعجب العجائب، أن يكون المجيب هو المُجاب وهاهنا ظنَّ أنّ الملحد هو الموحّد، ولمّا لم يَرَ شيئاً سواه، وأعماه هواه، وظنَّ أنّه الله، فأبطل فضيلة الإنسان والقرآن، وحجّة الرّحمٰن، فنَسب القبائح كُلّها إليه، وأحال فعل الطّاعات عليه، فلزمه أن يكون البارىء تعالى محتاجاً إلى المخلوقات، لأنّها مظاهره في استحالة دائمة،

يخلع صورة ويلبس أخرى، ولو فكّر هذا البشر فيما له خطر، لعلم أنَّ هذا أيضاً موطنٌ من مواطن النَّفس، أدّاه إليه النَّظَر، فتنحّى حينئذٍ عن الخطر. وما غلق عنه باب الصَّواب، إلاّ لعدم فهم الكتاب، فظنَّ أنّه وصل إلى التوحيد، فأطلق نفسه فيما يريد، وكلّما قاده هواه، قال: هذا مراد الله، وهل من فاعل سواه، فأصبح عطلاً أعوجاً لا يستوي، وغفلاً جاهلاً لا يرعوي، واعتقد أنَّ الجميع من باب القسميّات والمواهب، فترك المكاسب، وخرج عن الواجب. وله بعد هذا المقام غلطات وأوهام. ولقد أعذر من أنذر، بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٨٥]، ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسرَاء: ٧٢].

نبأ عجيب ووعظ غريب:

المحصور في سجن رغباته، إذا مات في السّجن، سُجنَ فيها بعد الموت أبداً بصورة العطشان الّذي كلّما عطش شرب، وكلّما شرب عطش، فاستمرَّ أبداً في سجنه سرمداً، وإنّما كان في الآخرة كذلك لأنّه إنّما كان في الدُّنيا قد يثنيه عن استمرار تناوله من تلك الشّهور ضعف للآلة، كمن توجعه أسنانه من المضغ من وجود الشَّهوة، فلو فرضنا أنَّ الآلة لا تكلّ لما تصور النُّزوع، فكيف والآلة تزداد قوّة وضعفاً، فالقاطعون الشّهوات في الدُّنيا يستمرُّون في الآخرة بمثل هذه الآلة لا تكلّ. فهم الخارجون من كلّ سجن، والدّاخلون في كلّ أمن، فهذا حالهم أبداً، ولهم ملكة التَّرقي سرمداً.

فيا مَن جعل قلبه بيتاً لشياطين شهواته، فهو يمدّهم بما يطلبونه منه، حتّى متى تعبد الجنّ، ومتى تخرج من السّجن.

شعر: [السريع]

السّجنُ سِجنُ الشّهواتِ الّتي ... قَدْ أوْقَعَتْ في الهَمِّ والحَزَنِ
فكلُّ مَن يخرجُ مِنْ سِجْنِها ... يَخرجُ لا شكَّ من السّجنِ
والجنُّ محجوبونَ فينا لهمْ ... أغذيةٌ في الخَوْفِ والأمْنِ
مِنْ شَهواتِ النَّفسِ ذاتِ الهَوى ... فَقُلْ لمَنْ يَفهمُ ما أعْني
مَن كانَ موقوفاً على شَهْوةٍ ... فذاكَ عِندي عابدُ الجنِّ

وخلق الله العالم، وشرع ترك الشَّهوات، وترك الوقوف مع الجسمانيّات إلاّ ما لا بدّ منه، وهو الطَّريق الموصل إلى الغرض باللّذيذ لا عين اللّذيذ، فمن قويت نفسه

هاهنا على ترك المنهيّ عنه كلّه، قويت هناك على ترك مثله، فقطعت فسارت، وهذا السَّير هو جنّة النَّفس والواقفات جنّاتها الشَّهوات التّي وقفت معها، فمن لم يحتجب هاهنا لم يحتجب في الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القِيَامَة: ٢٢، ٢٣] فقد بان لك أنَّ النَّفس تكون مترقّبة أبداً، إذ مطلوبها ليس له آخر، وأنَّ الشَّهوات حجابٌ، وظهر سرٌّ من أسرار الشَّريعة.

غاية ما في الباب لمن عنده علم الكتاب:

صفتكَ الحقيقيّة هي التي أُمرتَ بها، وهي ما أراده بك لك، وسمّاه له كرماً عليك، وذلك هو المثبوت في كتابه إليك، بحسب الكتاب، لا بحسب فهمك من الخطاب، وإلى هذا يُشار بقول القائل: للّهِ وباللّهِ فافهم، والله أكبر، فمتى قمت به في حالٍ من أقوال أو أفعال، ولم يبقَ شيءٌ من هواك، لم يبقَ إلاّ إيّاك، وهذا غاية مُناك، ومتى عدتَ إليك، فقد رجعت عنك الّذي هو بهِ، وكذلك فانظر في الكُلّ مثالَهُ:

مُخاطبٌ خاطبَ غيره بحكم الكتاب، فقامت حقيقة المخاطِب في ذات المخاطب صورة تعطي ولا تُخطىء، فمتى مال المخاطب ذرّة عن حقيقة إيّاه، تغيّرت فيه حقيقة سواه، فظهر منحرفاً عن الكتاب، فوقع عليه الإنكار في الجواب، فحصل الخلاف والجدل، وسقط القول والعمل، لتغيّر الحقيقتين المطلوبتين من الاثنين، التي هي غاية المتخاطبين. فانحراف الثّاني لانحراف المقدّم، فإن تكافيا في الانحراف سقط الإنصاف، والّذي ترك هواه عاد إلى إيّاه، فارتفع الخلاف بالخلاف، وتلافى غيره فأنقذه من الثّلاف، وأدنى الغضب خروج عن الأدب، والخروج عن الأدب سبيل إلى العطب، وعلامة الوسواس تغيّر الأنفاس. وغَضُّ الأصوات فرض في المناجاة، وكما أنّ رفع الأصوات يمنع الأذن من السَّماع الظاهر، فكذلك يمنع القلب من النَّظر في الباطن، وأنبياء الله في الباطن هي العقول: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحُجرَات: ٢].

بيان:

الإنسان مُنطوٍ على سائر المخلوقات، فليتفقّد أفعاله دائماً وينسبها، فمهما استمرَّ على فعل، ورضي به، فهو من قبيل صاحب ذلك الفعل، كالشَّهوة للخنزير، والفساد للشَّيطان، والتَّسبيح للملائكة، وما شاكل ذلك، وهو معنى قول موسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القَصَص: ١٥].

موعظة وتعليم:

يا من ابتُلي بكُلِّ ما لديه، فطولِبَ بالصَّبر في حاليه، وكلَّما عجز عن حمل حمله زاد عليه بطَلبِ الباقي بالإيماءِ إليه، ويتمسّك بالفاني بكلتا يديه، وإذا دُعي تصامم، وإذا بصر غمّض عينيه.

شعر: [السريع]

مُكْنَتَ مِنْ أمْرٍ عَظيم عَجيبْ ... قالَ لكَ اللّهُ: ادعُ إنّي أستجيبْ

وَصْفَكَ تُجزى كُنْ كما تُرْتَضى ... غَيْرَ أُغَيِّرْ، ادنُ إنّي قَريبْ

لكَ اختيارٌ ثمّ لي قُدرةٌ ... مُحدثةٌ عندكَ مِنها نَصيبْ

ومَنْزِلي فيهِ شِفاءُ الوَرى ... والعَقْلُ يهديك كالطَّبيبْ

بيان: [الكامل]

فيكَ العوالمُ كُلُّها موجودةٌ ... والكُلُّ نحوكَ مستكينٌ قانِتُ

ولأجْلِ كونِكَ كانَ كُلُّ مُكَوّنٍ ... والحيُّ أنتَ، وكُلُّ شيءٍ مَائتُ

والجنُّ فيك مَقامُهم وقِيامُهم ... وكذا الملائكُ ناطِقٌ أو صامتُ

فإذ غَفِلْتَ فعالَمٌ متبايِنٌ ... وإذا عَقلتَ فما هُناكَ تفاوتُ

وتغايُرُ الرَّأي يُريكَ تغايُرَ الـ ... مَرْءِ وهو على الحَقيقةِ ثابتُ

زيادة نظم: [الرجز]

في رُوحِكَ الأرواحُ والعَوالمُ ... ألا تَرى ذاكَ وأنتَ نائمُ

فَفيكَ كُلُّ حاضِرٍ في غَيْبَةِ ... والكُلُّ أنتَ عالَمٌ وعالِمُ

جهل: [البسيط]

لمّا غَدَتْ جُملةُ الأفعالِ عائدُها ... عليكَ من كُلِّ فِعْلٍ أنتَ فاعِلهُ

ظَنَنْتَ إذْ أنتَ مَعبودٌ لذاتِكَ أنْ ... نّ اللّهَ أنتَ، فأنتَ الآنَ جاهِلُهُ

إيضاح: [الطويل]

ومَخجوبةٍ فيها الملاحاتُ كلُّها ... وقَدْ زَارَ وَهْناً طيفُها في دُجى الحُجْبِ

لها الحُسنُ سِربالٌ ومَعنى جَمالِها ... تجلّى من المعشوقِ للعاشقِ الصَّبِّ

حكَتْ كُلَّ ما في الكونِ والكونُ كلُّه ... حَكاهَا فأضْحَتْ للدَّوائرِ كالقُطْبِ

مظاهرُها حُجُبٌ لها ولغَيْرِها ... هُدًى فَتُريهِ البُعْدَ في غَايَةِ القُرْبِ
إذا قَطَعَتْ سُبُلَ المظاهِرِ وانثنَتْ ... إلى ذاتها بالصِّدْقِ في مَوْطِنِ الحُبِّ
أُشَاهِدُها في مَسْمَعي وَبِنَاظِري ... وفي سِرِّ سِرِّ الرُّوح منّي ومِنْ لُبّي
بَدَتْ ذَاتُها تُجلَى لَها أحديّة ... تخرُّ لها ما في السَّمواتِ والتُّربِ
لِهذا تَرَقَّتْ في المظاهِرِ واختَفَتْ ... وعَادَتْ بأَنْواعِ العَجائبِ والعُجْبِ
ومِن سُوسِها ضِدّانِ في واحدٍ لهُ ... يقولُ، وعنهُ القولُ في العُذر والعَتْبِ
فَعاشِقةٌ مَعْشوقةٌ ذَاتُها لها ... مُحِبٌّ ومَحبوبٌ على البُعْدِ والقُربِ
هي العَبْدُ عَبْدُ اللّهِ جِبريلُ عَالِمٌ ... أُخَاطِبُها غَيري وأغني بها قَلْبي
إذا عَدِمَتني كُنْتُ مَعْنى وُجودِها ... وإنْ لَمْ أكُنْها قَدْ رَجِعْتُ بلا رَبِّ

إيضاح:

النَّفس حقيقة تنمو كُلَّ آن، فهي غيرها لتغيّرها مع الأحيان، ولها تصوّر ويمثّل ما يكون، ويحفظ ما كان ودوام سير الفلك يعطي أن لا وقفة للزَّمان، فإذا تصوّرت ذاتها في الماضي والآتي من الأزمان، وإن كانت واحدة فالمخاطب والمخاطَبُ اثنان.

شعر: [الطويل]

هيَ النَّفسُ تَنمو دَائماً ونُموُّها ... دَليلُ حُدوثٍ العَالَمِ المتجدّدِ
زِيادَتُها في أمْسِ دَلَّتْ حَقيقةً ... على أنَّها في اليومِ أنْقَصُ مِن غدِ
فَنُقْصانُها بالذَّاتِ أصْبَحَ شاهِداً ... لِرَبٍّ بَراها بالكَمالِ المؤبَّدِ

تنبيه:

اعلم إنّما ترى الأشياء بحسب نظرك، فيقال: إنَّكَ الرَّائي والمرئيّ، وليس لاتحاد الحقيقتين. واعلم أنّ المرئيّات كلّها لها اعتباران، أحدهما من جهة الرَّائي، والآخر من جهة المرئيّ في ذاته، فالمرئيّ في ذاته له حقيقة غير حقيقته الحاصلة له وَصْفاً من حيث الرَّائي، فمن قطع إيّاه رأى الأشياء على حقائقها من جهة ذواتها، لا بحسب نظره. وهذا محلّ نظر الأنبياء عليهم السَّلام، وأمّا غيرهم من سائر الخلق فإنّما يرى ما يراه باطناً وظاهراً، نوماً ويقظةً، بحسب نظره لا بحسبِ المرئيّ في ذاته، فدرجة العوام رؤية الواحدِ كثيراً، ودرجة الخواصّ رؤية الكثيرِ واحداً، وأعني بالخواصّ هاهنا المنفردين عن الأنبياء، وكلاهما مَرَضٌ، إذ يعرض للبصيرة ما يعرض

للبصر، كما يعرض من تغيّر المرائي لتغيّر لون الجليديّة، فتارة يتغيّر المتغيّر ألواناً، والمرئيُّ واحدٌ في لونه، وهو مثال درجة العوام، وتارة يثبت التّغيّر على لونٍ واحد، فيثبت المرئيّ ضرورة، وهو مثال درجة الخواصّ، ومن هاهنا قالوا: إنّ الكُلَّ واحد، وقد علمت أنّه من تغيّر لون جليديّة عينه إلى الصّفرة، فشاهد الأصفر أصفر، لا يُقال: إنّه صحيح النَّظر لكونه وافق لون المنظور إليه في ذاته، لون النّاظر في صفاته إلاّ عند غير الحكيم المعتبر، فقد علمت أنَّ مرض أرباب الدّرجتين، وهو من قبيل واحد، وهو فساد النَّظر، ولا صحّة إلاّ مع الأنبياء عليهم السَّلام، وأتباعهم الّذين تركوا أهواءهم، إذ نظروا إلى اختلاف الأشياء في ذواتها، وهو الاختلاف الذّاتي للمنظور، لا الاختلاف العرضي للنّاظر، ورأوا للجميع فاطراً واحداً، ولم يروا الكُلّ واحداً، بل عن واحد، ولهذا قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، واكتفى ذكرهما عن ذكر ما فيهما.

واعلم أنَّ درجة العوام أشبه بدرجة الأنبياء من درجة الخواصّ بزعمهم وإن كانوا خواصًّا بالنّسبة إلى العوام، فلاختصاصهم بمرض واحد دون أمراض شتّى.

صفتان:

رُبَّ عابدٍ هواه رأى خياله في المرآة وحسبه إيّاه، فترك ما عداه ولم يتعدّاه، ظنًّا منه أنَّ ذاته مولاه، إذ لم يرَ شيئاً سواه، وقامت بشبهة شكوكه دعواه، فأعمته عن عماه، فقال: أنا الله. وإذا نام هذا المصاب تقطّعت به الأسباب، فكيف به عند الانتباه، يوم كشف الغطاء، وزوال الاشتباه.

ورُبَّ عابد بايع مولاه على ترك ما سواه، والرِّضا برضاه، ورأى الإيمان بالغيب أولى من كشف الحجاب، فقطع الأسباب، ولم يطرق الباب، ومن أراد غير الله، فقد عبد هواه. ومن أراد رضاه لم يعبد إلاّ إيّاه، وإقدام ذي الإقدام على المقام بهذا المقام، قامت على قمّة الاصطبار، وعلت على متون الجنّة والنّار.

نظم: [الطويل]

تَحَيَّنْتُ وَقْتاً إذْ تَخيّرتُ مَنْزِلاً ... لِتَهيئةِ المصباحِ والزَّيتِ أوّلا
وبالَغْتُ في حُجْبِ الهواءِ مُحَدِّقاً ... إليهِ زَماناً ما بِصِدْقٍ فأُشْغَلا

تعريف وتوقيف:

إنَّ من كشف له من الجمال لمحة الخيال، جدير به أن يهيم طرباً، ويتقطّع إرْباً، ولعلّة لو تبرقع بالأكوان، وتمزّق في كلّ آن، كما وُفي حقّ لمحبّة، ولا عني

بقدر نشأته، وهذا حجب بكشفه، فوقف لضعفه ينحت له من ذاته آلهة دون الله، أو يتّخذ منعه إلهاً سواه، لأنّه يشهد بقدر ذاته، ويرى بمقدار مرآته، والّذي تحقّق قصده تقدّم وحده، فهو الصّبّار السّيّار من وراء الأستار، في غيب الأسرار، لا يختار إلاّ أن يختار حتّى يطلع النّهار، وتستقرّ به الدّار.

نظم: [الطويل]

أُحِبُّكَ والأستارُ تَحجِبُ بيننا ... فكم مرّةٍ عَنّي تستَّرْتَ بالكَشفِ

ولمْ أرَ غَيْري في المظَاهِرِ كُلّها ... فَلَمْ أرْضَني لي بَعْدَ ذَاكَ عَلى ضَعْفي

وإنّكَ فوقَ الفَوْقِ مِن كُلِّ ناظِرٍ ... فدونَكَ ما أُبديهِ عَنْكَ وما أُخْفِي

تنبيه ووصيّة:

اعلم أنّ الله تعالى جبل في جبِلّةِ الإنسان سائر الأشياء، فمن ذلك ما يستخرجه الإنسان من ذاته بالفكر والتّعقّل، والتّصوّر، والاستنباط. ومنه ما يُلقى إليه وحياً من ذاته، إمّا بأمثال، وإمّا على صورته، وذلك إمّا نوماً وهو عند ركود الحواس وقطع العلائق والعوائق الطّبيعيّة، وإمّا يقظة متى أدّته الرّياضة، إلى مثل ذلك بعينه، والفرق بين الأنبياء وغيرهم، أنّ الأنبياء يوحى إليهم من ربّهم، وغيرهم من أنفسهم، أعني بقدر استحقاقها، يُفاض عليهم بحسب القابليّة لا القدرة، ولهذا عمّ نفع الأنبياء، فغير النبي إذا صفت ذاته، وأدركت شيئاً من الحقّ الصحيح، كان ذلك الإدراك من قبل إيّاها بوجه، ومن قبل ربّها بوجه آخر، والمدرك واحد لا يتغيّر.

كما أنّ العبد ملك لزيد، وهو بعينه ملك لله تعالى، ولا شركة، فالمركوز في جبِلّة النّفس ثابت فيها من حيث الخلقة، وهو مستور عنها بعوائق الحواس الباطنة والظّاهرة، وقد جعل الله لظهور ما فيها شروطاً عائدها تارة إلى العبد بإرادته، وتارة بغير إرادته كما في النّوم، ويرجع إلى كسب، أو هِبَة، فإذا قيل: علم زيد كيت وكيت، فهو علم من جهة نفسه، وهو بعينه من جهة ربّه، فما كان بغير إرادته فهو إمّا هبة، ولا يكون إلاّ حقًّا، كما يكون للأنبياء، وإمّا جزاء ويكون حقًّا وباطلاً، فما تعلّق للعبد به، فلا حاجة إلى ذكره، إذ لا يُجْزَى إلاّ بكسبه. وكلّ ما هو راجعٌ إلى العبد، فإنّما هو من نفسه لنفسه، وكلّ ذلك دون رتبة الأنبياء عليهم السّلام، ومن طالع ذاته مستقرئاً، رأى ما لا عين رأت مخلوقاً بها حاضراً مجبولاً في جبلّتها. ومن تحقّق أنّ ذاته مأوى الكلّ من الماضي والمستقبل، فإنّه لا يحزن على شيء من الفائت عند مفارقته له، إذ هو وغيره موجود معه فعاد غنيًّا بذاته، وهذا علامة الذّائق دون العالم

فقط، وهذا الذّائق إذا تحقّق أنّ ذاته محدثة، وإنّ المحدث لا يدرك محدثه بوجه أنف من نفسه لنفسه، إذ كلّ ما وصل إليه إنّما هو منه فهو محدث مثله، فلم يرضَ لنفسه بنفسه فضلاً عمّا يرد عليه منها فقام ينفي علومه، وينكر معارفه، ورجع عن الغنى المطلق إلى الفقر المحقّق، فاتّبع الأنبياء، وعبد، فلزمه القيام بالشّريعة فسجد.

شعر: [الكامل]

مَـرَّتْ لُـوَيـلاتٌ بـتـلـكَ الأرْبُـعِ ... بـيـنَ الـنُّـقـا والـمُـنْـحَـنى ولَـغـلَـعِ
أطـوفُ لَـيْـلـي ونَـهـاري هَـائـمـاً ... مـا بـيـنَ بـانـاتِ الـلّـوى والأجْـرعِ
حـتّـى سـمـعـتُ فـي الـجِـمى مُـنَـادِيـاً ... كـانَ بـهِ قَـلْـبـي يُـنـاجِـي مَـسْـمَـعـي
فَـعُـدْتُ مِـن بـيـنِ الـطُّـلـولِ مُـغـلِـنـاً ... أنَّ الَّـذي أطْـلُـبُ مِـن غَـيْـري مَـعـي
ثُـمَّ انـثَـنَـيْـتُ بـعـدَ ذاكَ زَاهِـداً ... فـيَّ لأنّـي مُـبْـدِعٌ لِـمُـبْـدِعـي

نظم: [المجتث]

خَـرَجْـتُ مِـن حَـضـر حَـبْـسِـي ... مِـن حـيـن فـارَقْـتُ حِـسّـي
فـكـنـتُ أنْ سـهـدُ ذَاتـي ... فـي كُـلِّ جِـنٍّ وإنْـسِـي
حَـتّـى بَـدا لـي حِـجـابٌ ... فـلاحَ لـي كَـشْـفُ لَـبْـسـي
فَـعُـدْتُ أنـفـرُ مـنّـي ... مِـن بـعـد بـي كـانَ أُنْـسـي
فـصِـرْتُ أنـفـي عُـلـومـي ... عـنّـي وأُنـكـرُ حَـدْسِـي
رَجِـعْـتُ عَـبْـداً ولـكـنْ ... قَـدْ كُـنـتُ ربًّـا وبـسّـي
فـغـايـةُ الـكـونِ كَـوْنـي ... فـي الـكـونِ أعـرِفُ نَـفْـسـي
ولا أرَى لـي عُـلُـوًّا ... إلاّ الـدُّنُـوَّ لـرَمْـسِـي

رضا: [الوافر]

ولـمّـا أنْ جَـفـانـي بَـعْـدَ وَصْـلٍ ... وبـاعَـدَ كـلَّ مَـحـبـوبٍ قـريـبِ
رضـيـتُ رضـاهُ حـتّـى عـادَ بـعـدي ... لـمـنـزلـةِ الـوِصـالِ مـن الـحـبـيـبِ
فـصـار نَـصـيـبـهُ مِـنّـي رِضـاهُ ... وصـارَ الـبُـعْـدُ مـنـهُ لـي نَـصـيـبـي

نظم: [الكامل]

لَـذَّ الـبَـلاءُ لَـهُ إلـى أنْ ذاقَـهُ ... مـنـح الـنّـعـيـم أتـى بـغَـيـرِ حِـسـابِ

مثله: [الخفيف]

كَيْفَ أشكو ضَرَّاءَ تَفْنَى وبالصَّبْـ ـرِ عَليها أغدو لديْكَ كَريما
كُلَّما ازْدَدْتُ مِن شَقاءٍ شقاءً زُدتُ في حَالةِ النَّعيمِ نَعِيما

مثله في المعنى: [مواليا]

ألقَيتَني في بحارِ الخوفِ والهِجران وَحْدي ومنكَ بَلائي غايةُ الإحسان
زِدْني إليكَ صَباباتٍ مع الأحيان ولا أقولُ أقِلْني كانَ مهما كان

ذوق:

العاشق اشترى رضا معشوقه بكلّ الأشياء، فمن الأشياء ما يملكه، ومنها ما لا يملكه. فأمّا ما يملكه بذله بطيبة نفس بين يديه، وأمّا ما لا يملكه فإنّه لم يحزن عليه، وكيف يحزن المشتري على ما بذل في بضاعته، وهو أربح الرابحين في تجارته، فمهما خطر في السِّرّ والعَلن، قال: وهذا من جملة الثَّمن، وعلامة صدق هذه الدَّعوى عدم الشَّكوى:

[الوافر]

ولـيـسَ الـغـدرُ مـن شـيـم الـكـرام

﴿۞ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

فطرة:

لمّا كان الطِّفْلُ لا يعرف عند الولادة شيئاً كان على الفطرة، وإذا وصل الكبير إلى حَدٍّ أن لا يعرف أنه لا يعرف عاد إلى الفطرة.

تجريد:

نظم فيه: [السريع]

تُبْ هارباً مِن كُلِّ مُؤذٍ فما يؤذيكَ إلاّ كُلُّ ما تعرفُ
وَفارِقِ المَحْبُوبَ مِن كُلِّ ما يوصَفُ فالمَحْبوبُ لا يوصَفُ

في المعنى: [مجزوء الكامل المرفّل]

يَـا جَـاذِبِـي عَـنِّـي إلَـيْـ ـهِ بِـكُـلِّ مَـا لِـي عَـنْـهُ جَـاذِبْ
أنـتَ الـحِـجَـابُ عَـنِ الـحِـجَـا بِ فَكَشْفُ حُجْبِ الكَشْفِ حَاجِبْ

إشارة: [البسيط]

إنّـي ظَـهَـرتُ إيَّـايَ عَـلـى عَـدد الـ أنفاسِ مُختَجباً في سائرِ الصُّوَرِ
والكُلُّ غَيْري ولا غَيْري يُعاملني خَاطرتُ إنْ كُنتَ مِنْ غَيْري عَلى خَطرِ
وأينَ غَيْري ولو أنّي نظرتُ إلى إيّايَ غَيري فإنّي فاسدُ النَّظرِ
ناجيتُ سِرّي وناجاني فما شَهِدَت بَصِيرتي عينَ ما شاهَدْتُ بالبَصَرِ
والأمْر بالعكسِ أيضاً إنْ فطنتُ له فهاكَ يا أنا لُغْزي وادرِ ما خبري

مثل هذا يقول العبد العارف، وهو صادق، ومثله يقول الغالط، فيقال له:

[البسيط]

هذا نهايَةُ مَن رامَ النِّهاية في الـ ـعرفانِ ثمّ انثنى من سائرِ البَشَرِ
فظنَّ لا غيرَ إذ لا غيرَ شاهدهُ فظلَّ يهدرُ في التّوحيدِ بالقَدَرِ
والحقُّ من بعدُ فوق الفوقِ لم يرَهُ إلاّ النّبيُّ ومن يقفوهُ في الأثرِ
فدَقّقِ الفِكْرَ يأتِ العقلُ معترفاً بالجهلِ فالجهل هادي العَقْل بالفِكرِ
إنَّ الّذي فطرَ الأشياءَ فاعترَفَتْ بهِ وإنْ ضلَّ عنهُ سائرُ الفِطرِ
فانهضْ وسِرْ عنكَ يا مَن لا سواهُ إلى سواكَ بالغَيْبِ إيماناً على حَذَرِ
فالكلُّ منك وأنتَ العبدُ مقتدراً بالكَسْبِ قد جئتَ بين الجَبْرِ والقَدَرِ

صاحب الوقت من صحبه: [السريع]

مـن صـحـبَ الـوقـتَ فـذاك الّـذي مـن كـلِّ مـحـذورٍ لـهُ الأمْـنُ
فالخوفُ في الماضي وفيما مضى الـ ـحُـزْنُ فـلا خـوفٌ ولا حُـزْنُ

في معناه:

الحزنُ تَحيُّرُ القلب، وشغله بالفكر، والتأسّف على ما فات من الدُّنيا.

وقيل: هو شغل القلب وفكرته في ما يُخاف ويُرجى في المستقبل من غنى أو فقر، وغير ذلك من الحوادث الطّارقة المتوقّعة.

وقيل: الحزن والهمّ بمعنى واحد، وقيل: الحزن على ما فات، والهمّ على ما هو آت.

معراج وغاية: [الخفيف]

إنَّ خيرَ الدَّارينِ في الفِكْرِ فالفِكْـ ـرُ إلـى كُـلِّ غـايـةٍ مِـعـراجْ
فاحرسِ الفِكْرَ ذاكراً وارصُدِ المَطْـ ـلوبَ تَـظْـفَـرْ بـكـلِّ مـا تـحـتـاجْ

إطّلاع:

عُد إلى سِرِّك عند حدوث الحادثاتِ متخلّياً عن سائر الموجودات، مقابلاً بذاتك ذات الذّات، ثمّ قف هُنيئة تجد هيئة تدلّك على ما سيكون من الكائنات.

عقل:

العقل الغريزيُّ كالسِّراج، والمكتسب كالدُّهن يمدّه.

مثال:

لو أنَّ ملكاً من ملوك الدُّنيا واعدك أن يحضرَك لديه في بعض الأيّام، لكُنتَ ليلَتك لا تنام، بل تهجر الأنام، وتتجنَّب ما لا يجوز من الطَّعام، وتستعدّ بأحسن الكلام، وبكُلِّ حالة تبلغك المرام. وقد علمت أنّ الموتَ آتيك، وبكلّ حالة يناديك، فاجعل فكرك فيك، وخذ ممّا تحبّ ما يكفيك، فإنّ الملك داعيك، وأعمالك تلاقيك. فتأمّل هذا المثال، وخُذ بهِ في كُلِّ حال، واعمل للمآل قبل أن يبغتك قاطع الآمال.

موعظة ووصيّة:

كن في جسدك كَمَيتٍ في قبره، لا يؤنسه إلاّ ما عمله، ولا يوحشه إلاّ ما قدّمه، وإنّما تشاهد في رمسك ما تُشَاهده الآن في نفسك، فانصرف بفكرك إلى ما يؤنسك في قبرك، فإنَّك وحدك ساكن لَحْدَك، فإن اشتبهت عليك المعاني فاعرفْكَ بميلكَ إلى الفاني، فإنّما لك من حالك ما تصحبه بعد ترحالك.

معراج:

نظم: [مخلع البسيط]

يـا أيُّـهـا الـشَّـاعِـرُ الـمُـجـيـدُ إنّـي لـكَ الـنَّـاصِـحُ الـمـفـيـدُ

دَعْ كُـلَّ وادٍ تـهـيـمُ فـيـه ... وهِـمْ إلـى مـا بـهِ الـمـزيـدُ
فـيـكَ مِـثـالٌ يُـريـكَ مـا لا ... تـرى، ونـحـو الـجِـمـى يـقـودُ
كـأنَّـهُ قـال فـيـك حـالاً ... يـكـفـيـك مـا مـنـكَ تَـسـتـفـيـدُ
مِـعـراجُـكَ الـفِـكـر فـاصـنـعْ واصْـ ... ـعَدْ فـهـا هـنـا الـوَجْـدُ والـوجـودُ
مـن هـاهُـنـا عِـلْـمُ كُـلِّ شـيءٍ ... فـاطـلُـبْ مِـنَ الـلَّـهِ مـا تُـريـدُ

قيل لمن أكل حشيشة الفقراء: من أمّ مرامه بالوسائط، من المركّبات والبَسائط فقد أخطأ الصَّواب، ودخل من غير الباب، ومن كانت غايته جلاء مرآته، وتكميل ذاته، فهو الاسم والطِّلسم في الحال والمآل، وهو صاحب الأقوال والأفعال، البالغ غاية الآمال.

محدود وغير محدود:

للعقول حدٌّ تقف عنده من حيث هي مفكّرة، لا من حيث هي قابلة، وليس لها حدٌّ من جهة القبول، إلا ما هو فوق طور العقول.

موت: [السريع]

قَـدْ خِـفْـتُ مِـن مَـوْتـي عـلـى غـرّةٍ ... فـلـمْ أخَـفْ إلا مِـنَ الـفَـوْتِ
حـتّـى لـقـد أوقَـفَـنـي دَائِـمـاً ... خَـوْفـي مِـنَ الـمـوتِ عـلـى الـمـوتِ

بيان:

الذَّاتُ تشهد ولا تعلم، فالعقل من جهة العلم دونها، والمعرفة بالسَّلب غير المعرفة بالإثبات، فلم يبقَ غير الإيمان بالغيب أو الشَّهادة كما تقدم، والشَّهادة لا تكون في هذه الدَّار.

غلطة الجبريّة ظنُّوا أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسَان: ٣٠] وما تشاؤون إلا ما يشاءُ الله، فافهم.

نظم: [الرجز]

أبْـدَعَ مَـخْـلـوقـاتِـهِ فَـمِـنْـهـمُ ... خـلائـقُ بَـيْـنـهـمُ الـخُـلْـفُ فَـشـا
قـالُـوا: لـهُ مـشـيـئـةٌ سـابـقـةٌ ... فـيـنـا ونـحـنُ مـا لـنـا أنـا نَـشـا
قـلـنـا: صـحـيـحٌ سَـبـقـتْ مَـشـيـئـةٌ ... وكـلُّ مـا نـشـاءُ فـيـهِ يَـشـا

فـشـاءَ مـا شـاءَ عـلـى مـا شـاءَهُ وشـاءَ أن يـخـلـقَ مـخـلـوقـاً يـشـا

تحقيق:

فما أنت به أنت هو، وهو بما هو به هو أنت، إلا أنَّ إحدى الغايتين في الأخرى مدرجة مُدْمَجة، من حاول تميّزها منها حاول عسيراً، ومن شعر بالوجد منها بقي حسيراً، وكلّ بشريّ نال هذه الحالة فقد برىء ممّا كان به منقوصاً ورقي إلى ما صار به مخصوصاً.

ضلال:

القلوب بمنزلة الأرض، تنبتُ ألواناً من العقائد، والقرآن بمنزلة الماء يمدّ الكلّ، فافقه جيّداً.

في المَيل:

إنّما أنت ما ملتَ إليه.

نبأ:

وكما أنه لا سبيل للجنين أن يدرك ما في هذا العالم، كذلك لا سبيل للمتعلّقين بالأجسام أن يدركوا ما في ذلك العالم، ولمّا غمض الأمر أُمِرْنا بالإيمان بالغيب، وإذا كان التَّرقّي مستمرًّا في الكلّ من عَدَم إلى وجود، ونسبة الثاني إلى الثّالث، كنسبة الأوَّل إلى الثَّاني، فكيف يدرك المعدّوم وجوده قبل أن يوجد فيه، وهل إلا ضَرْبُ المثل، فبهذا جاء الكتاب المنزل، والمراد من إبداع ما يفنى هو غاية تبقى، ومن رام أن يطّلع على الغاية الباقية في الذّاتية الفانية، فقد خرج عن الطَّريق، إذ سِرُّ الدُّنيا يُعلم في الآخرة. فكيفَ يُعلَم سِرُّ الآخرة في الدُّنيا. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧] وليست السَّعادة هي اللَّذَّات، بل اللَّذَّات تابعة للسَّعادة، وإنّما السَّعادة اللّقاء، وليس اللّقاء حقيقة المعرفة، بل أن تتلاقى في حقيقة الصِّفة، ومن اتّصف فهو الّذي عرف.

وصيّة:

اجعل دأبك احتمال الأثقال، وارتكاب الأهوال في كلّ آنٍ وحال، فمهما أنت كذلك، فأنت السَّالك، ومتى جنحت إلى اللّذّات والرّاحات، والفتاوى والمسامحات، فأنت مستدرج لقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ [الأعرَاف: ١٨٢].. الآية.

شعر: [الخفيف]

خُلِقَتْ نَفْسُهُ لِحَمْلِ المَشَقّا ... تِ فيلتذّ حينما تَعتريهِ
وإذا ما خلا من الهمّ في حيـ ... ـن يرى أنّهُ بلا شكّ فيهِ
ويرى المُتعباتِ فيها مِنَ الرّا ... حاتِ للقَلْبِ كلّ ما يرتجيهِ
ذا لمنْ رامَ وَصْلَ مِثْلِكَ في دُنـ ... ـياهُ يا مُفرداً بغيرِ شَبيهِ
قَدْ رأى الصَّعبَ في المحبّةِ سهلاً ... وأمَرَّ الأشياءِ حُلْواً بِفيهِ

فكر:

الفكر السَّيّال المبتدر هجماً في كلّ وادٍ، هو جاسوس الفؤاد الآخذ لصاحبه إلى الإلحاد، وهذا هو الأولى بالجهاد من سائر الأضداد، فانفهِ عن البلاد، واحذر منه التّرداد، فإن عاد فقف له بالمرصاد، حتّى تبلغ منه المراد، وإن عجزتَ عن طرده، فاشغله وإلا شغلك، واقتله وإلا قتلك.

موعظة في وقفة:

كلّ شيء يؤذيك فهو رحمة عليك، لأنّه منبّه من رقدة الجهالة والغفلة، ألم ترَ من رحمته العُجاب في لدغ البراغيث وقرص الذُّباب. فما نبّه النّائم هو أولى أن ينّبه اليقظان، فكم هذه السُّنة بالانتباه، وطلب الهداية بالاشتباه، وكم هذا النّسيان بما يذكر، والغنى بما يفقر، والصحّة بما يُعلّ، والعزّ بما يذلّ، والرّيّ بما يُظمي، والنَّظر بما يُعمي، اقلب النَّظر قبل أن ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المُلك: ٤].

إذا أحببتَ الخروج من السِّجن، فقد أحببتَ الدُّخول إليه، وإذا كرهت الموت، فقد كرهت الحياة، فيا عجباه من عقل مقلوب، يحبّ المكروه، ويكره المحبوب.

موعظة:

يا هذا اخترط لك الحقّ لساناً لا يمرّ بصدعٍ إلا شعبه، ولا يقرع باباً إلا فتحه، فأعمله في الدُّعاء، فما كلّ وقت تحال على الماءِ والطّين، وعليك بصحبة من تخفّ برؤيته عن العالم السُّفليّ إلى المحل العلويّ، ويحلو بصحبته الحنظل الحوليّ، في قرآن تقرؤه، وتعلم غريبه وإعرابه، وتأويله وتفصيله، ومُتشابهه وأمّه، ولا تجد ذرّة إلا تدلّك على صفاءِ حالك، وإدراك كمالك، فعلمك لفظ، وعملك رفض، ووعظك خديعة، وعبادتك عناء، وكلّكَ هباء، فما أسخاك بحياتك، وأقلّ رحمتك لروحك،

فالرَّحيل عن هذه العَرَصة، التي قد تجرّعت فيها أنواع الغصّة. أما بك حاجة إليك، أما لك شفقة عليك، إلى متى ما تعرف إيّاك، ولا تحنّ إلى مأواك. أما تدري إلى من تنتسب؟ أما تعي من هو أوّلك وآخرك؟ فكم هذا الإنس بالوحشة، والمقام بالغربة؟ كم تكذب نفسك وتغضب إن كذبك غيرك؟

كم تخالف العقل وأنت تحتجّ به على سواك؟ كم تغرّ بهواك؟ كم تذلّ لشهوتك؟ هل لك خبر عنك فيما أريد بك يا مسلوب الإخلاص في العبادة؟ يا قليل النَّشاط في اقتفاء أثر السَّادة؟ إنّما عُمرك يومٌ لم تعص اللَّهَ فيه، إنّما مطالبك معاطبك، ومألفك متالفك، فقم للطبيعة عاصياً مجيباً مستجيباً داعياً: إلهي حُلْ بيني وبين ما يحول بيني وبينك، وأعدني إليَّ، وأعذني منّي وأعنّي عليَّ.

وصيّة:

يجب أن تكون تغذية البدن كعلف الدَّابة، إنّما تطعمها لتحملك، ولا لتقضي شهوتها.

تحذير:

النَّفس خزانة إبليس فيها سائر أمتعته.

في الموت:

يا هذا اخطر ببالك كأنك تشاهد ذاتك مجرّدة خالصة في أمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر يليه، وقوّة لا ضعف يخالجها، وقدرة لا عجز يمازجها، وعزّ لا ذلّ معه، وبقاء لا موت يقطعه، وكمال لا نقص يعيبه، وجمال لا شَيْن يشوبه، في ساحة لا أفق لها، وراحة لا نصب بها، وهي ملتذة بذاتها لذاتها، تنظر بنور لازم، وسرور دائم، وعلم مستقرّ، وشهود مستمرّ، ونعيم مقيم، وأمر عظيم. فكيف ترضى بعد هذا المقام في دار الآلام، وتقنع بِظلٍّ زائل، ولهوٍ عاجل، وتستلذّ سُمًّا قاتلاً في عيش باطل، مع صحبة الأموات، والتّقيّد بالفانيات، وعشرة الأضداد، والانهماك في الفساد، فَعُدْ عن هواك وأوِ إلى إيّاك، فما غيرك يرضيك، ولا فرصة لك إلا فيك.

نبأ:

ذاتُكَ فيك غيبٌ عنك، وذاتُه منك غيبٌ فيك، فهو معك أينما كنت، وبُرهانه عليك عجزك عنك، فإن لم تشهدك السَّرائر، فاشهدها بالنَّواظر.

نظم فيه: [الطويل]

فَذاتُكَ غَيْبٌ فيكَ والحَقُّ غَيْبُها وتأثيرُ غيبِ الغَيْبِ في الغَيْبِ ظاهِرُ
فإنْ لم تَرَ التَّأثيرَ بالغَيْبِ باطناً فَبُرْهانُهُ ما أشهدتْكَ النَّواظِرُ
وإدراكُ غَيْبٍ فيك ليسَ بِمُمْكِنٍ وأنتَ معَ الأهواءِ والجسمُ حاضِرُ

تشبيه:

إذا كان الذِّكر بنغمةٍ لذيذةٍ، فله في النَّفس أثر، كما للصُّورة الحسنة في النَّظر.

حكاية:

قال بعضهم: حُبستُ مرّة بصورة من البُهتان، فدخلت السِّجن، وقوتي وحالي عليّ، فكنت أدعو فأُجاب، وأتصرّف فيما أختار على عادتي وأُنسي خارج السِّجن باطناً وظاهراً. فلمّا أردت الخروج أُخرجتُ، ولم أعلم أنّي كنت مفتوناً بذلك كلّه، ثم حُبستُ بعد ذلك بسنين مرّة ثانية بمثل ذلك بعينه فلم أجد لي حالاً ولا وقفاً ولا قلباً، بل أفلستُ من كُلّ ما كنت أعرفه من قوّتي وحالي، فنظرت إلى ما كان من كسبي فعلمت أنّه قد ران على قلبي، وعلمت أنَّ حالي في الحبس الأوّل كانت فتنةً وحجاباً، مازجه لطف لضعفي أوّلاً عن حمل ما حملته، ثانياً: لأنني في الثّاني رأيت أنه حبس معي أعمالي وآمالي، والتّفكُر في حالي ومآلي، فاجتمع عليّ همّي بقدر تقسّم فكري، وعزَّ عليّ صبري حتى بقيت في سجن باطن، قاسيت منه ساعة أحسبها من النّار الموقدة، ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهُمَزة: ٧]، فلم أجد إلا أن حملت على قلبي وسْقاً من ذنبي، وتوجّهتُ به إلى عفو ربّي، فتلقّتني من كرمه سبحانه رحمة قبل الوصول، اطمأنّت بها نفسي، وقوي قلبي، كان ذلك ليلاً، فأصبحت وقد فُرِّجَ عنّي من الحبس الظّاهر إلى حبسٍ أنا فيه أرْوَح من الأوّل، حتّى كأنّي لم أبقَ فيه محبوساً، ثمّ ألهمت ألا أخرج بأفكاري، حيث اختياري، لئلا أكون مخالفاً، وكذلك لا أتوهّم الخلاص، ولا أفكّر فيه، ولا في أسبابه، وأن أقف مع الوقت ظاهراً وباطناً، وأن لا أكتب فيه بأفكاري ولا بأقوالي ولا بأفعالي إلا ما أحبّ أن أقرأه، فلمّا لزمت هذه الحالة، ورأيت السّجن معيناً عليها، كنت أخاف أن لا أخرج قبل أن تصير لي ملكة، فعاد المرهوب منه مرغوباً فيه.

معرفة:

رأس المعرفة حفظ حالك التي لا تقسمك.

شكر:

رؤية النّعم بنفس النّقم، شاغل بالشُّكر عن الصَّبر، فالعالم رأى العدل في العسر الذي وقع فيه، ومعه اليُسر، فضلاً عن بارئه، فاشتغل بالشّكر على اليُسر فضلاً عن النَّظر إلى الصَّبر على العُسر عدلاً.

واعلم أنَّ الصَّبر صبران، أحسنهما صبرك على ما ترجو عاقبته، والحلم حلمان: أشرفهما حلمك عمّن حزت رتبته، والصِّدقُ صدقان: أصحّهما صدقك فيما خفت مغيبته، والوفاء وفآن: أسناها وفاؤك لمن لا ترجو منفعته، ولا تخشى جريرته.

وقال: [السريع]

فالصَّبر في منزلةٍ فوقَها ... رُتْبَةُ عَبْدٍ مُبتلى شاكِرِ

وقال أيضاً، نظم في اليُسر: [السريع]

شغلت بالشُّكر عن الصَّبر ... لرؤيةِ اليُسرِ مع العُسْرِ
والعُسر عدلٌ مِنْ إلهي لما ... قدّمتُ مِن مَعصيةِ الأمرِ
واليُسْرُ فَضْلٌ منهُ سُبحانَهُ ... قابَلَهُ العَالمُ بالشُّكرِ
ومَنْ رأى في العُسْرِ إصلاحَهُ ... فشُكْرُهُ في العُسْرِ كاليُسرِ

نظير: [البسيط]

أنتَ الغَيورُ على قلبي تُقلّبُهُ ... كما تَشاء وهذا مُنيتي أبدا
جَعلتُ غيركَ في قَلْبي لأجعلَهُ ... وسيلةً لي إلى حبِّك مجتهدا
وأنتَ أقربُ منهُ فاطَّلعتَ على ... قصْدي فساعدتَ قلبي نحو ما قصدا
نَزَعْتُ كلَّ حَبيبٍ فيكَ نازَعني ... فيهِ فلمْ تُبْقِ فيهِ منهمُ أحدا
وقلتُ بالحالِ وَصْلي في مقاطعةِ الـ ... جميعِ والرُّوحُ أيضاً تهجرُ الجَسَدا
ومَنْ رَأى بعده عن كُلِّ واسطةٍ ... قرباً إليك ففي فُقدانهِ وَجَدا

غيره: [مجزوء الرجز]

يا واصلي بقَطْعهِ ... يا قَاطِعي عَنْ قَاطِعي
فَرَّقْتَني عَنّي وأنْـ ... ـتَ بالفِراقِ جَامِعي
جَعلْتَني أُحدوثَةً ... في سَمْعِ كُلِّ سامعِ

إنْ ذَاعَ سِـرِّي بَـيْـنَـهُـم سِـرُّكَ غَـيْـرُ ذَائِـعِ
فَـحُـبُّـهُ وَدِيـعَـتِـي وذِكْـرُهُ وَدَائِـعِـي

عمل يحذر:

إذا رأيت من قطع العلائق، وخلا من العوائق، وأصلح العقائد، وحصّل الفوائد، وقهر العوابد، وهو قويّ النفس، غزير العقل، صحيح الدِّين، ثابت اليقين، وأحببت أن تزيده لتفيده، فتوجّه مدّة إليه، ثمّ بعد ذلك حِلْهُ عليه، واحذر أن تدخل في هذا بهواك، فإنَّك لا تقدر على شيء من مُناك، بل رُبّما أهلكتَ أخاكَ، وإن كان صادقاً في ذاته هلكت بنجاته، فاحذر جيّداً أوّل الاعداد أن تريه ما فيه، من أنّه يقدر أن يستحضر المعلوم نظراً بخاطره، وسمعاً بقلبه، كما قد يغمض عينيه، ويستحضر صورة والده، أو صورتك مثلاً، وكما قد يستحضر في قلبه سماع لفظ قد قلته له، ثم يؤمَر بالذِّكر باسم أنت تراه الأولى به في وقته، وحاله كما ستعلم، فإذا رأى أو سمع يحكي لك، فإذا حكى عرفت توجُّهَهُ، وأمددته من قِبَله، وحافقتهُ على الزِّيادة فيما يروي، فإنّها تفسد عليه. وللصّدق سرٌّ منكما، لا بدّ إذا اجتمع ولّد العجب من ذلك، إنّه متى صدقت نفسه، وصحّ توجّهه إليك، فصوّرت أنت إيّاك في صورة أو ملبوس، ووقفت بفكرك فيه، أو صوّرتَ نفسكَ شيئاً كالفيل مثلاً رآه، فأخبرته بما رأى، فإن كان ضعيفاً استدرجته بالكلام، كما تعمل في المندل، تحدّثه بما يجب أن يرى، ثمّ تتركه فيرى بغير حديث، فإذا صحّ في الجماعة وتوجّهه إليك، نَحِّهِ عنك، وأمُرْهُ أن يسلك الطريق بعينه مع الله عزَّ وجلّ، فقد عرفه بحاله. وأوصه أن يتحفّظ من الغفلة في أقواله وأفعاله، فبذلك يبلغ نهاية آماله، ومن الضروريّ له إذا وصل أن يمحو من نفسه موضعك الّذي حصل، فإن لم يفعل، فقد طرقت له باباً، وصرت له بعد ذلك حجاباً، والسّلام.

خاتمة:

قد علمت أنّ للنَّفس حالاتٍ لا تحصى، وهيئات لا تُستقصى، فمنها ما يشبه حال أحد الحيوانات، أو المعادن، أو النَّبات، كالخنزير في الشَّهوة، والطَّاوس في التّزيّن، والثَّعلب في الحيلة، وغير ذلك. كذلك كالحشائش المرّة والحلوة، والتّرياقيّة، والأحجار ذوات الخاصيّة، وكذلك لها حالة ملك، وحالة شيطان، ولها ما فوق ذلك كلّه، وما تحته، ممّا يعلم وممّا لا يعلم، فمتى غلب عليها حال من سائر الأحوال ألحقت بما غلب عليها، فتعود النَّفس بذاتها، ملكاً، أو شيطاناً، أو حيواناً، أو نباتاً، أو معدناً، أو غير ذلك مما علا ودنا.

وكما أنَّ لكلّ موجود في الكون أثراً في الوجود بحسبه على قدر قوّته وضعفه، كذلك لكلّ حالة في النَّفس أثر إذا اتّصفت النَّفس بتلك الحالة، وتعود النَّفس مخاطبة لإيّاها بصورة ذلك الحيوان، أو الإنسان، أو الملك، أو الشَّيطان، أو ترى ما يوجب لها هيئة من الهيئات. وفي الشَّريعة في كثير من المواضع أسماء لحالات نفسانيّة، قد سمّيت كلّ حالة باسم، وكذلك ما جاء ظاهراً في الوجود إنّما ضرب لها به مثال، والمراد تلك الحالات لتستقرّ في النَّفس بالأمثال كما في قصّة آدم وإبليس، وغير ذلك، والمراد ما يستقرّ في النَّفس من المثل، لا نَفس المثل، فالكُلُّ في الدّارين أمثال أسماء لحالاتها، وتنبيه على الاتّصاف بأفضل صفاتها، وإذا استقرّ هذا فاعلم أنّه كانت أجزاء جسد الإنسان مثبوتة في العناصر، ولها نفس تخصّها، ثم انتقلت في الأطوار مترقيّة إلى هاهنا. فلما كملت البنية، وقفت ولم تقف النَّفس، فهي أبداً كما كانت تخلع وتلبس صورة تخصّها، كما كان القالب من حين العدم المطلق إلى أن وقف، وكما أنّه في كلّ طور يملك ما كان له قبله ويزيد على المقدّم تالياً، فكذلك النَّفس لا تزال حتّى تملك سائر الموجودات من الصُّور والهيئات، وسائر ما تعبّر عنه في المقولات، ثمّ تخلع ما في وسعها أن تخلعه من المعقولات، وتعود قابلة ما عليها، يرد من الواحد الأوّل كفاحاً، وهي أيضاً تخلع وتلبس مترقّية فقيرة إلى ورود الاستقبال، غنيّة عن الماضي والحال، ومن هاهنا جدّ السَّفر، ومُحي الأثر، وانقطع الخبر، والحمد لله والصَّلاة على رسول الله والسَّلام.

الباب الثالث

في المعمول

سبحان من أوجد من العدم موجوداً باقياً، وأبدع له عالماً يَعبرُ فيه فانياً، لينقله منه إلى عالم البقاء ثانياً، وجعله من أوّل الإبداع مترقّياً في العالمين دائماً سارياً، وزيّنه بالعقل فصار به مهدياً وهادياً، وجعل له الحواسّ الخمس مؤدّية إلى النّفس، فعاد بها الخفيّ عنه بادياً، وضرب له بكلّ أمثالاً، فجعل الكتاب العزيز أقوالاً، والمبين أفعالاً، ليظهر له بهما ما كان عنه خافياً، وجعل هذا العالم الأوّل المدركة معشوقاته مثلاً متفانياً، وصيّر معشوقات العالم الثاني مثلاً أعلى مضاهياً، فهناك أمثال معشوقات هي لطائف أشبهتها هنا معشوقات كثائف، فصار هذا لذاك محاذياً، ومن لدن الأول سبحانه فيض مشهود في ظلّ مبدعاته قد أصبح جارياً، حجب به المترقّي بمراقي الأذكار في سلّم الأفكار فانقلب إليه النّصر خاسياً، وجذب به كليم الأسرار إلى نور الأنوار، فلما قال: ارقَ خرّ صعقاً متلاشياً، فسبحان من احتجب بمعشوقات العالمين، وجعلها أمثالاً وصيّر كُلاً إليها داعياً، وتعالى في غيبه، وتفرّد بالوحدانيّة فهو على صراط مستقيم ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحَديد: ٣]، سبحانه وتعالى عالياً، وصلّى الله على الرّسول المعظّم محمّد، الحبيب المكرّم صلاة دائمة وسلاماً وافياً.

أصل:

لا يجوز على الأوّل تعالى لفظ البسيط، ولا الانحصار في مثله، لأنَّ ذلك إنّما ظهر بالوجود، والله تعالى قبل الوجود، وقبل البسيط، فهو الواجب بضرورة العقل لزوماً. وأمّا العبارات فبهِ صارت، وكذلك كلّ ملحوظ، لأنّه تعالى تقدّم الملحوظ واللاّحظ واللّحوظ، والدّاخل والخارج، فَحدِّق وانجمعْ واجمع أنوارك إلى لبّك، وانظر ممّن تطلب حاجتك عند الاضطرار، فإنّك لا تطلبها ممّن هو معدوم.

أصل:

شيئان لا يكونان واحداً من كلّ جهة، إذ لا بُدَّ من المميّز، ونفي المميّز نفي الإثنينية.

تدريج:

من لم يمت في صدر العوالم فهو محجوب، فإن وصل إلى هاهنا فهو حرّ، والعبودية فوق هذا المقام، فهي التّلقي والتّرقّي مما هو فوق العوالم.

تفهّم:

كلّ ما يبديه العلم فهو تحت العقل، فهو من العوالم.

إنجاز:

النّفس معبودة للجسم، فإذا اتّصف بصفاتها فهو هي، هو من غير اتّحاد، والعقل معبود للنّفس، فإذا اتّصفت بصفاته فهي هو من غير اتّحاد. والحقّ معبود للعقل، فإذا اتّصف بصفاته فهو هو من غير اتّحاد.

إعلام:

عالم الصّفاء حجاب، لأنّ به يكون الكشف، وهذا يشاركنا فيه الرُّهبان، وإنّما تفضل عليهم بعالم التّرقية.

تعريف:

كما أنّ الخلق لما يكون في زمن، فكذلك الإبداع هو لما لا يكون في زمن، فالعقل فوق الحسّ، فلا يدرك إلا مخلوقاً، فإذا الإبداع فوق العقل، فعادت مدركات العقل كلّها أصناماً.

نظم: [الكامل]

مَيْلُ القُلوبِ إلى سواكَ حرامُ ... ما كان غيرك كُلُّهُ أصنامُ
هذي المواهبُ باطناً أو ظاهراً ... فِتَنٌ لديكَ وكُلُّها أحلامُ
والعلم بالمعلوم جهلٌ شاغلٌ ... عمّا يُرامُ بهِ فكَيْفَ يُرامُ؟
سَجَدَتْ لكَ الأكوانُ والأزمانُ والـ ... أفنانُ والأذهانُ والأفهامُ
أنْتَ الّذي وإليكَ كلُّ إشارةٍ ... وعلى الجَميع تحيّةٌ وسَلامُ

رجعة:

المواجَه إذا لحظ رجع إلى العقل فقام بالشّريعة، وإذا رقى خرج عن الحسّ فرُفع عنه القلم، كالنّائم حتّى ينتبه.

مثال:

إذا كان التَّطهّرهو المراد بالماء، فما دام الطُّهر حاصلاً، فالغنى عن الماء حاصل.

وهم:

لا يقال: بطلت فضيلة الماء عند من حصل له الطُّهر، بل هو الذي لم يفارق الماء، وإن فارقه الماء، إذ الغاية من الماء معه، فلا يحتاج إليه إلا إن رجع إلى الحدث، وكذلك الشَّريعة.

خيال:

ربّما أخطر العلم بهذه الرُّتبة في بال العقل خيالاً شُبِّه له به أنّه قد نالها، وسقط عنه التَّكليف، فإن حاقق إيّاه وجده في تلك الحالة مكلّفاً، والتّكليف حيث كان هو من الشَّريعة.

سلامة:

ما دام للعقل وجود مع المحسوس لا يسقط عنه تكليف الشَّريعة، ولهذا لا يسقط عنه من حيث هو في النَّوم، وإن سقطت من حيث الشَّارع. وإنّما يسقط عن الميت.

محاققة:

إذا قال العقل: قد صحّ أنّه إنّما تُنال الحياة في الموت بالموت في الحياة، وهذه رتبتي، فليقل له العقل: إنّما حدّ العقل السَّماء، فما فوق السَّماء، فإمّا أنّه يعترف أنّه ما مات، وإمَّا أنّه ممّن لم تفتح له أبواب السَّموات.

تجريد:

من لم يملك ملكة الموت عن المحسوس من كلّ متعقّل ظاهراً وباطناً، لا يُقال له: مجرّد.

بداية:

من أراد ذلك فليبدأ بالموت عن الحظوظ، فإنّه ما دام حيًّا بها، فإمّا هارب أو عاطب.

سير:

من ماتت حظوظه فصبحها حيناً كان آمناً آنفاً، كما أراد أن يُركِّبَ ترياقاً من لحوم الأفاعي، فإنّه آمِنٌ من لسعها، ويأنف من مباشرتها.

وصول:

الواصِلُ من تَساوى عنده رؤية الضِّدّين، وكان واحداً في الحالتين، وهذه العبارة لا تقع عليه من حيثُه بل من حيثُنا لنعرفه بها.

شعر: [مجزوء الوافر]

رِجَالٌ إنْ وَصَفْتُهُمُ ... فَبِي عَنْ وَصْفِهِمْ لُكْنَهْ
هُمُ الأحْرارُ حِينَ رَأَوْا ... سِوَى مَحْبُوبِهِمْ فِتْنَهْ
مَتَى عَرَفُوهُ ما عَرَفوا ... وهذا عِنْدَهُمْ سُنَّهْ
مَعارِفُهُمْ مَعَ الجَنّاتِ ... عَادَتْ عِنْدَهُمْ جَنَّهْ
وعادَ الموتُ بينهمُ ... وبينَ حَبيبِهِمْ جُنَّهْ
فَقَدْ رَكِبوا جَوادَ الصَّبْـ ... ـرِ بينَ المَوْتِ والمِحْنَهْ
وَهُمْ للمَوْتِ ينتظِرو ... نَ وهُمْ عَليهِم المِنَّهْ

تعريف:

ومن كان إطلاق الجمال حجابه، ومشهوده في الجزء، وممّا يرى الكلّ، ولم يجعل الأشواق من كلّ جانب مطايا إلى المحبوب، تاهت به السُّبُل.

تحقيق:

العبودية في تنزيه الرُّبوبيّة.

نظم: [البسيط]

يَهيمُ شَوقاً وما تُخْفي سَرائِرُهُ ... وفيكَ باطِنُه أضحى وظَاهِرُهُ
عَبْدٌ بِحُبِّكَ قَدْ أفْنَى أوائلَهُ ... وفيكَ يا سُؤلَهُ تَفْنَى أواخِرُهُ
يا مَنْ يُشيرُ إليهِ القَلْبُ مُعْتَرِفاً ... بأنَّهُ فوقَ ما تحوي ضَمائِرُهُ
إنْ غِبتُ عنكَ فَعَنّي لا تغيبُ وهَلْ ... أنسى الذي أنا بالنِّسْيانِ ذاكِرُهُ
مَنْ كانَ أقربَ مِنْ ذَاتي إليَّ ففي ... طَرْفي أراهُ وفي قَلْبي مَخاطِرُهُ

يا فاطِرَ الكَوْنِ يَهواهُ بِفطْرَتِهِ ... مُشاهداً وحِجابُ الكَوْنِ ساتِرُهُ
ظَهَرْتَ في كُلِّ ما أظهرتَهُ فَغَدا ... يَراكَ بالعَيْنِ طَرْفٌ أنتَ ناظِرُهُ
وَغِبْتَ عَن كُلِّ ما أحدثتَ مُحْتَجباً ... فلا يحقّكَ قَلْبٌ أنتَ فاطِرُهُ
لمّا تعرّفتَ للأشياءِ أجمعُها ... قُلْنا بلا مِرْيةٍ: كلٌّ مُظاهِرُهُ
وهو المنزّهُ عن كُنهِ الحُلولِ وعَنْ ... طورِ العُقول فَقَدْ جَلَّتْ شَعائِرُهُ
مِنْ حيثُنا ظَهَرَتْ أسماؤه وله الْتـ ... ـتَنْزيهُ عَنْها فكلٌّ لا يجاوِرهُ
ألا تَراها حَديثاً قد تقدَّمها ... إنَّ القَديمَ حَديثٌ لا يُخامِرُهُ
وعن تعالى، تَعالى أنْ يُقالَ لهُ ... من خَلْقِهِ أبداً لولا أوامِرُهُ
يا مَنْ دنا وتعالى أن يُحاطَ بهِ ... فكيفَ تحويهِ من قلبٍ خواطرهُ
كلٌّ لقُرْبكَ منهُ قائلٌ أنا هو ... وبُعْدُهُ عنكَ يُغطيهِ تَغايرهُ
فَبُعْدُهُ عنكَ ساوى القُرْبَ مِنْكَ لَهُ ... فَقَدْ غَدا جَاهلاً تبدو معاذِرُهُ
وجَهْلُهُ بكَ ساوَى العِلْمَ مِنْكَ بهِ ... فالعِلْمُ عَاذِلُهُ والجَهْلُ عاذِرُهُ
لذاكَ أصبحَ لا يُخْشَى سِواهُ ولا ... يرجو سِواكَ لكسرٍ أنت جابره

الله أكبر، الله تعالى غنيٌّ عمّا في السَّموات والأرض، وله ما في السَّموات والأرض، وغنيّ عن المحدث، وله المحدث، وغني عن أن يحدث وعن أن لا يحدث. وله أن يحدث وأن لا يحدث. وله الأسماء والصِّفات، وغني عن الأسماء والصِّفات، فغناؤه بذاته من حيث هو، وله ذلك من حيثنا، ولا يُقال: اقتضت إلهيّتُهُ الإيجاد، فإلهيّتُهُ منفصلة عن الاقتضاءات، لأنّ لها الغناء المطلق، والإطلاق لا يثبت قيد الاقتضاء لإيجاد ولا لغير إيجاد، بل له الإطلاق عن التقيّد بالإطلاق، أو بقيد ما. وإنّما غلط العقل لما رأى مصنوعات الحقّ تعالى تقتضي اقتضاء ما، فظنَّ أن ذات الحقّ تعالى اقتضاء ما، وليس كذلك إذ قد ثبت أنّه الغني المطلق، فله إطلاق القدرة لزوماً عن إطلاق الغنى وله إطلاق الاختيار لزوماً عن إطلاق القدرة، وله إطلاق المشيئة فيما يختار، وإطلاق الاختيار فيما يقدر، وإطلاق الغنى عمّا يقدر ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

شعر: [الكامل]

أومَتْ إليكَ حَقائقُ الأشياءِ ... وعَلا عَلاؤكَ سائرَ الأنباءِ
فَتَقَطَّعَتْ عَنْكَ العُقولُ وأصْبَحَتْ ... مَسْجونَةً في ظُلْمَةٍ وعَماءِ

فالصَّمتُ أفصَحُ نُطقِها وكأنّها قالتْ لِيَضمتَ سائرُ النُّطقاءِ

وهم:

ما ليس بجسم هو منزّه عن الجهات، ولا يتصوّر أن تقع عليه الإشارات بالحسّيّات، والنّفس ليست بجسم، فهي تدرك ذاتها وما دونها، ولا تدرك البارىء تعالى. ولمّا تفطّن بعضهم إلى أنّها غير جسم ظنّ أنّها البارىء، فجعلها رهن الشّهوات، تحكم عليها الحركات السّماويات، والخواصّ الأرضيّات، وكيف يمتاز بعضها عن بعض في الأزل، وهي واحد في لا محل.

نظم قال فيه: [الطويل]

إليكَ إشَارَاتي بِنَفْيِ الإشارَةِ وعَنْكَ عِباراتي بسَلْبِ العبارَةِ
وكلُّ مقامٍ أو مقالٍ ومَشْهدٍ إليكَ وإن أوْمَى فدونَ الإمَارةِ

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعرَاف: ١٨٠]، لأنَّ من الأسماءِ ما عُبِّر به مجازاً على صورة الاستعارة ليفهم به المقصود بصيغة من العبارة، خطاباً للنّاس على قدر عقولهم، كما عبّر باليد والعين وغير ذلك، كالمعية والأين، ومن نُوّرت بصيرته وطُهّرت من رؤية الأغيار سريرته، وصَفَت مرآته، واتّحدتْ ذاته، رأى سائر أسماء الصّفات كذلك، ونزّه عما هنا ما هنالك.

تحقيق:

لمّا كانت ذاته لا تُمثَّل ولا تُعلم، وصفاته من لوازم ذاته، لزم أن صفاته أيضاً لا تُمثّل، ونحن لا نعرف ما لا نعرف إلا بالأمثال، ولا مثل لصفة من صفاته، فنحن إذا عارضنا إنّما نعارض صفاتنا فنظنّ أنّنا قد عارضنا صفاته، وكذلك إن عرفنا ولا شكّ أنَّ لنا قدرةً وعلماً وسمعاً وبصراً، وصفاتنا كلّها مخلوقة مثلنا، فنظنّ بمشاركة الإسميّة أنّا فهمنا أنّه سميع، بصير، عليم، قادر، وعلمنا ذلك، وليس كذلك، إنّما علّمنا صفاتنا ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

نظم: [المجتث]

ما قلتُهُ قُلْتَ عَنّي فَلا أرَى القَوْلَ يُغني
هَيهاتَ أدْركُ ذاتاً إلَيَّ أقْرَبَ مِنّي
لَمّا دَنا وتعالى أصْبَحْتُ عَنْهُ أُكَنّي

بـــغـــيـــرهِ وَلِـــهـــذا أقـــولُ لـــي عـــنـــهُ: إنّـــي
ولا سِـــــــوايَ وهـــــــذا حَـــقـــيـــقـــةُ الـــمـــتـــمـــنّـــي
فـــالـــصَّـــمْـــتُ أَوْلـــى وَمَـــهْـــمـــا نَـــطَـــقْـــتُ إيّـــايَ أعْـــنـــي

تصديق ما قبله: [الكامل]

يـا مَـنْ تُـخـاطِـبُـهُ حَـقـيـقـةُ ذاتِـهِ مِـن غـيـرهِ لـكـنَّـهُ لا يُـعـلَـمُ
وهـو الـمُـخـاطِـبُ ذاتَـهُ فـي غـيـرهِ فـهـو الـمـكـلّـمُ عـنـه والـمـتـكـلّـمُ
مِـرْآتُـكَ الأكـوانُ عَـنْـهـا صـادرٌ مـا تـسـتـحـقُّ فـنـيِّـرٌ أو مُـظْـلِـمُ
كُـنْ كـيـفَ شـئـتَ فـلا سـواكَ مُـعـامِـلٌ ومُـعـامَـلٌ، ومُـعَـلِّـمٌ، ومُـعَـلَّـمُ
أو مـا تـراكَ بـمـا تـقـولُ مُـحـدِّثـاً عَـنَّـا وأنـتَ مُـكـلِّـمٌ ومُـكـلَّـمُ
وإلـيـكَ عَـنْـكَ يـعـودُ مـا أبْـدَيْـتَـهُ عَـنَّـا ونـحـنُ حـقـيـقـةٌ لا نَـعْـلَـمُ

سِرُّ السِّرّ لا يكونُ أبداً إلا سِرًّا، فلو أمكن علمه لم يكن هو، وكذلك الغيب والجنّة، ونحن إذا عظّمنا أمراً استعرنا له من هذه الأسماء مجازاً.

إيضاح:

الأبرارُ يتّقون الجهل، والمقرّبون يتّقون العلم.

مثال:

ظِلُّكَ محجوب بك، فكيف يدرك النُّور الذي يظهره وهو محبوسٌ في ظلمة كونه.

تعريف:

أعرفك بالصِّفات الافتقاريّة، فليس لها محلٌّ غيرك، واعرف من أنت عبده بالاقتدار النَّافذ فيك.

رجل:

إذا وقف سمّر العبد مع من لا تظهر عنه الحركة والانتقال لم تظهر عنه كرامة أصلاً، وصار الأمر باطناً، ففي باطنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهذا يذهب الأنس والوحشة من قلبه.

عبد:

إذا كوشف العبد بالأمر، فذلك العلم، وإذا ثبت عليه من غير أن يتخلّله عقله، فذلك اليقين، وإذا حكم عليه وأثّر فيه أثراً تتصرّف النّفس على حكم ذلك الأثر فهو الطُّمأنينة.

حقّ:

أحاجة الكون إلى الله تعالى ذاتيّة؟.

عبودية:

أي عبد عيّن حاجة إلى الله تعالى، فقضاها له، زالت عبوديّته، وفقره إليه من حيث تلك الحاجة، ومن علم بأنّه تعالى أعلم بما له فيه الخيرة منه لم يبقَ له إليه حاجة سواه.

مثال:

ليس للشّمس في مقابلة شيءٍ من الأجسام كمال، بل هي في إشراقها كاملة، ومقابلها له من إشراقها نصيب بحسبه، وحسبه إليه لأنه هاهنا في هذا المثال الإنسان، وهذا مثال كافٍ، ومقالٌ شافٍ، ومن كان في باطنه التّوجّه إلى ما هو فوق طور العقل، فلو أفيضت عليه المقولات كلها جملة واحدة، لم تشفِ له غليلاً، بل ذلك كما لا يسكن الجوع بالماء والعطش بالخبز.

إظهار:

اعلم أنّ إظهار الفاعلية غير إظهار العقل، وإن دلّ عليها، فأظهر الله الفعل بإظهاره الوجود، وأظهر الفاعلية بإظهار فاعل مختار، ونضرب مثلاً بالشّمس والقمر الذي نوره من نورها.

بيان:

نور القمر من نور الشّمس، والحركتان مختلفتان، فكذلك فاعلية العبد من فاعلية الحق، لكن حركة القمر غير حركة الشّمس، فهو بحركته التي لو كانت إرادية له كحركة الإنسان لأوجد النّور حيث شاء، وإن كان من غيره.

تنزيه:

دلَّ على وجوده بمصنوعاته، وتعزَّز في ذاته الأعلى ذاته، فهو المنزَّه عن الكمال الذي لا يمكن إدراكه للخلق، فلمّا تقطعت دون إدراك حقيقته الأسباب، علم أنه هو بهذا الحجاب.

شعر: [الكامل]

عَقلتْ لكَ العقلاءُ عنكَ عُقولَها ... بَعثَتْ إليها منكَ فَهيَ رَسُولُها
وتحقّقتْ منكَ القصورَ فأصبحتْ ... وقصورُها عمّا ترومُ دليلُها
ومتَى رَأَتْكَ لها رأتْ فوصُولَها ... عينُ الحِجابِ وفي الحجابِ فصولُها

نثر فيه:

العقول والأفكار محدثات، وكلّ محدث حجاب، فكيف الوصول إلى الواجب والمدرك هو الحاجب.

في الدُّعاء:

الدّاعي يجب أن يُشهد، ويُسمّى داعياً، وهذا غير من سمّاه الحيّ بالنسبة إلى الأموات، والقديم لاضطراره إلى عالم المحدثات، فالمسمّى ليس فيه شيء من ذلك.

بيان:

الصِّفات عين الذَّات، إذا نظر إليها من الوجه الذي يلي الذَّات وهي غير الذَّات إذا نظر إليها من الوجه الذي يلي انقسام الوجود إلى الأقسام المتعددة، ولهذا مثال أن العشرة قائمة بنفسها فهي بنسبة الثلاثين ثلثها، والأربعين ربعها، مع أنّ العشرة واحدة، فالعزُّ والذلُّ مثلاً إنّما هو لنا بنسبة شيء إلى شيء، إذ المتغاير كلّه للمحدث، فإذا نسب إليه سبحانه أهل العزّ يسمّى مُعِزًّا، وأهل الذُّلّ يسمّى مُذِلاً، وإذا اعتبر ذلك المعنى مع نسبته إلى الماضي من الأزمنة استُعير له لفظ الأزليّة، وإلى الاستقبال استُعير له لفظ الأبديّة، فهو الموصوف بكلماته، والأحد المتعالي بذاته عن أسمائه وصفاته، فافهم كذلك سائر الصّفات، وإعلام أنّ الذَّات النّاقصة تكملها الصِّفات، والذّات الكاملة تكمل غيرها بالصِّفات. فمن حيث هو تعالى مكمل لنا بالصِّفات، صارت عندنا أسماء له، وأمّا من حيث ذاته تعالى فهو لا تغاير بين ما تسمّيه له علماً وإرادة وقدرة، فذاته كافية للكلّ في الكُلّ، وهي بالنّسبة إلى المعلومات علم، وإلى

المقدورات قدرة، وهي الموصوفة بالأحديّة، ولا مغايرة هناك، بل كما لا يحتاج في شيءٍ إلى شيء. وانطلاق هذه الأسماء عليه إنّما هو من حيث الاصطلاح المعروف المألوف عندنا، المبنيّ عن ذات مبدعة عاجزة، ولولا قوله لنا عنه تبارك وتعالى لما جاز لنا ذلك، بل تعالى عن قولنا تعالى، فاعلم أنّه تنمحق قوى العقول دون الوصول إلى إدراك أثر من آثار مبدعها، وكيف لا وعلمه الأوّل كان موجوداً قبل الزّمان كما هو الآن، لكنّها تدرك عجزها عن ذلك كما يدرك الوهم عجزه عن إدراك حقيقة موجود لا يكون داخل العالم، ولا خارجاً عنه، ولا مُتّصلاً به، ولا منفصلاً عنه، ولا يمكن أن يعبر عن حقيقة العلم الأزليّ إلا بهذه العبارة، ولذاك تتشوّش العقول دون إدراك ذلك، فهذا مُعْتَقَدُ قوم اعتقدوا بضع سنين في العلم القديم ما يعتقده الضُّلال حتّى هُدوا فضلاً من الله، والله تعالى يزيدهم معرفة بعجز عقولهم، فمن طمع أن يحيط علمه وعقله بحقيقة علم كان موجوداً قبل الكون، وقبل القَبْل، فقد طلب بيض الأنوق، وقد طمع في تناول العيّوق، وانخلع بالحقيقة عن غريزة العقل، وبالحري أن يُعَدَّ أمثالُه من المجانين. فعقولنا أعجز عن إدراك العلم الأزليّ من النّمل، بل من الجماد عن إدراك علمنا بدرجات كثيرة، ونسبة علمه إلى علمنا كنسبة قدرته إلى قدرتنا التي هي بالحقيقة عاجزة عن إبداع شيء من الأشياء، فضلاً عن إبداع السَّموات والأرض من لا شيء.

ولمّا كان العقل يدرك الفرق بين القدرتين، ولا يدرك الفرق بين العلمين من أوّل وهلة تاه في الحكم ووقع في هذه الأغلوطة، فسبحان من أرسل محمداً ﷺ، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ١١٥]، فهذه إشارة صريحة إلى علمه بالجزيئات، منبّهة بأنَّ كُلَّ موجود له نسبة ما إلى وجهه سبحانه وتعالى، ولولا تلك النسبة لما وُجِدَ، فكلّ شيء يعانيه لأنَّ وجهه إليه، فافهم.

شعر: [البسيط]

يا مَنْ تَعالى عَن الأفْكَار مَعْنَاهُ ... لكنْ أشارَتْ إليهِ وهي تخشاهُ
ناجَيْتُ فِكْري ونَاجاني بهِ فَغَدا ... مُطهَّراً عَنْ سِواهُ فهوَ مأواهُ
أنا أمثّل في فِكْري أُخَاطِبُهُ ... خَلقاً وفي الخَلْقِ ما خَاطبتُ إلا هو

حال: [الكامل]

هَامَتْ بِحُبِّكَ أنْفُسٌ وعُقُولُ ... وتَوَلَّهتْ بكَ أرْبُعٌ وطُلولُ

وتوجّهتكَ الكائناتُ فأصْبَحتْ تَضبو إليكَ بكُلّها وتَميلُ
فيكَ الوجُودُ مُتيّمٌ وجَميعُهُ لِجَميعِهِ عَنّي وعَنْكَ يَقُولُ
لَوْلا جَمالُكَ ما تَهَتّكَ عاشِقٌ بَلْ كُلُّ مَعْشوقٍ عَليكَ دَليلُ

تعليم:

الوجود يريد به هاهنا ما سوى الله تعالى، والقبليّة والبَعديّة من حوادث الوجود، فلا يُقال قبل إيجاده قبل ولا بعد حتّى يُقال: لو لم يوجد قبل، فإنَّ القبل والبعد عارضان من عوارض المكان، وما سوى الله مبدع له، وهو من جهة المبدع لا نسبة له إليه، وهذا معنى قوله عليه السَّلام: «**كانَ اللّهُ ولم يكن معه شيء وهو الآن على ما كان عليه**»[1] فأزليّته حاضرة مع أبديته. وحيث سلطانه فلا موجود غيره، وسبقه للوجود الماضي كسبقه للوجود المستقبل من غير فرق، بل هما كسبقه لما في هذا الطِّرس[2]. ونسبة الأزليّة إلى الأزمنة كنسبة العلوم إلى الأمكنة، إذ لا توصف العلوم بكونها قريبة من مكان، بعيدة من آخر، بل نسبتها واحدة إلى كل مكان، ومع ذلك فقد خلا عنها كلّ مكان، ولولا القول بالإبداع لكان الوجود فائضاً عنه. ومن زعم أنَّ كلا القولين واحد، فليس كذلك، إذ لا إبداع إلا لما لم يكن، والمُبدَع فقير، فالإنسان أبدعُ لهُ قدرةٌ على الكلام والسُّكوت، وتكون القدرة موجودة مع عدم الكلام على الكلام، لأنَّ ذلك مقرون بالمشيئة، والمشيئة من الإنسان مقرونة بغرض، ولمّا كان ذو الغرض، وهو الإنسان، فقير إلى غرضه، وقف العقل وانحطّ عن إدراك مشيئته من فاعل قادر لا عبثاً، وهو غنيٌّ إذ ذاك فوق قوّة العقل، وليس في قوته أن يدرك ما ليس في قوّته، ومن هاهنا تقدّم الأنبياء على العقول، فليتأخّر العقل هاهنا وليسجدْ.

مثال:

كما أنَّ البصرَ عاجزٌ عن إدراك كثير من الموجودات كالمسموعات والمشمومات مع قدرته على ما خلق قادراً عليه من المبصرات من حيث هو هو، فكذلك العقل يعجز عن إدراك كثير من الموجودات مع قدرته على ما خلق قادراً على إدراكه من حيث هو هو، فلا تغترّ، فإنَّ العقل مجبولٌ على التَّحلّي بكلّ كمال من منع التعرّي عنه، فلا يعترف بالعجز، بل يخوض فيما يجوز، وفيما لا يجوز له الخوض فيه.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) الطِّرس: الصحيفة، أو التي مُحِيَت ثم كُتِبَت.

برهان على ما تقدّم:

العقل عاجز عن إدراك عجزه الحقيقي، وأين هذا من إدراك العلم الأزليّ؟.

زيادة:

اعلم أنّ جميع الموجودات بالإضافة إلى العرش كالذّرّة، بل والذّرّة بالإضافة إلى العرش شيء ما، والموجودات كلّها بالإضافة إلى العلم ليست شيئاً أصلاً، فما للعميان والسُّؤال عن حقائق الألوان؟.

عذر وتفهيم:

قد علمت أنّ كلّ ما يدرك العقل بالألفاظ المشار بها إلى الصِّفات الذّاتية، فكذلك بعيد عن حقائقها أيّ بعد، وإنّما لولا هذه العبارات لتاهَ العقل وانقطع لأنّه في أسر الزّمان، وما لم يخلع صورته لا يخرج من ذلك الأسر، فجاءت الأنبياء بما هو فوق طوره، فكأنّه إن تبعهم قد خلع صورته في بعض الأمر، وخرج من الأسر، ولا يتمّ له ذلك إلا بالإيمان بالغيب، وهذا هو المراد، لأنّ شجرة المعرفة هي التي أكل منها آدم، وذلك أنّه مال إلى العقل عن الشَّرع، والذي أغواه بها هواه أكل منها قبله، إذ خالف الأمر بما ظنّ أنّه حقّ في العقل، فافهمه جيداً.

واعلم أنّه لمّا كانت المعاني جواهر، والألفاظ أصدافها، والحِكَم معادن، والقلوب أهدافها، وجب على كلّ من فتحت اليقظة عين بصيرته، وجلت الموعظة عين سريرته، أن يتبع من الكلام معانيه، ومن الحكم ما يبلغ به أمانيه، ولا يقنع من المعدن بدون كنزه، ولا من لفظ إلا بفهم رمزه.

وجود وإشارة وغاية:

كما أنّ السِّراج يتبدّل في كلّ طرفة عين لأنّه قائم بالمادة، وكلّ ذرّة منه غير الأخرى، فكذلك تبدّل الجود، وغير العارف يظنّ أنّه هو، والنّاظرون بعين العقل، يرون للموجودات في ذواتها ترتيباً، ويرون بعضها أقرب إلى بعض إلى الأوّل، وهو واحد، والموجودات منه كثيرة.

وأمّا النّاظرون بعين المعرفة، فلا يرون للموجودات ترتيباً أصلاً، ولا يرون بعضها أقرب إليه من البعض، بل يرون هويّته مع كلّ موجود مساوقة له حسب مساوقته للوجود الأوّل في نظر العلماء من غير فرق، وهذا لأنّ العلماء جاؤوا من خارج، ومن أسفل، والعارفين من داخل ومن فوق، فاجعل العلوم بذراً ثمراتها المعارف، فالمعارف من العلوم كالمعاني من الألفاظ، فمتى صارت العباراتُ

إشاراتٍ، فهذا باب المقصود، وقد قال عين القضاة رحمه الله تعالى: إنّ كلّ ما كُرِّر مرّة أو أكثر وعلمه غيرك، فهو علم. وما لا يفهم من جهة الألفاظ فهو معرفة، فعلوم الأنبياء لدنيّة، فمن كان علمه من الكتب والمعلّمين فليس هو من ورثة الأنبياء، ومن اختصّ بغير ذلك فله من الوراثة بحسبه، وهذا هو الذي لا يحصل إلا بالتّقوى، ومن لوازمها الصّبر، ولا يُهمل أمر العلم والمعلّم، لكن لا يقتصر عليهما، فليس في قوّتهما إلا الإرشاد إلى سبيل الموردة، فإذا عرفت فَسِرْ وردْ، ومن ظنّ أنّه يصل إلى هاهنا بغير جهاد وتجربة فهو ضحكة الشّيطان.

نبوءة:

واعلم أنّ الإيمان بالنُّبوءة إيمان بالغيب، فإن شبّه العقل هذا الغيب بشيء من الحاضر، فليس هو هو، فإن حصل لك مثل هذا الإيمان، وإلا فحرام عليك أن تأكل وتشرب أو تنام حتّى تعرفه.

تحذير:

احذر بأن تفهم من القول بأنّ الأوّل سبحانه وجوده مساوق لكلّ مبدع أنّه يلزم أن يكون شيء مساوقاً لوجوده. بل هو مع كلّ شيء وليس معه شيء، بل مساوقته لما لم يوجده كمساوقته للموجود من غير فرق، وهاهنا يكلّ العقل عن إدراك أنّه مع كلّ شيء، وأنّه قبل كلّ شيء، فقبليّته لا تتناهى مع كونه يسلم أنه لا شيء قبله ولا بعده ولا معه.

نظم: [البسيط]

طَيْفٌ أطافَ بقَلْبي أينَ مَغْداكا ... ها قَدْ حَلَلْتَ فدتك الرُّوحُ مأواكا
منّي المنى قد حللنا الأبراج وها ... سؤلي وسؤلُكَ تهواني وأهواكا
ناطَقْتَني بِلِسَاني فاسْتَمعتُ لَهُ ... فاللَّفْظُ لَفْظي ومَعْنى القَولِ مَعْناكا
أقولُ لي في مَقام القُرْب ها أنذا ... فَخَلْ غيري وذرْ احذَرْ وإيّاكا
إنّي أُحَدِّثُني عمَّن أُحَدِّثُهُ ... إيّايَ ناجَيتُ إذ ناجَيتُ إيَّاكا
بَيْني وبَيْنَكَ ذَاتي عَنْكَ تُخبرُني ... أنّي تَملَكْتُ أملاكاً وأفلاكا
فالكُلُّ لي وأنا المقْصُودُ عَنْ كَثَبٍ ... وأنتَ أعْلى على الأفْهَامِ إدراكا
ومَنْ رآكَ بِذَاتِ الكُلِّ مُتَّحداً ... فَقَدْ تَورَّط أشراكاً وإشْرَاكاً

وصيّة:

إذا تجرّدت عن الصّور والجهات، ووقفت معه بالذّات، وأحضرك حالك لديه، وغيّبك عن سواه إليه، فأصبحت مجاب الدُّعاء، مكاشفاً بغيب الأرض والسَّماء. مخاطباً بسائر الأسماء، فلا تَدْعُ إلا إيّاك إليه، ولا تستدلّ بغيره عليه:

نظم: [الكامل]

كُـنْ حَـاضـراً فـي كُـلِّ آنٍ دائـمـاً ... مُـسْـتَـخْـضـراً إيَّـاكَ بـيـنَ يَـدَيْـهِ

مُـتَـجـرِّداً مِـمَّـا سِـواهُ دَاعِـيـاً ... إيّـاكَ عَـنْـكَ وعَـنْ سِـواهُ إلـيـهِ

احتجاج:

لو جمع بين الواجب والممكن من وجه لجاز عليه الدّثور والاضمحلال من ذلك الوجه، لأنّ الإحاطة بالمعلوم تقضي بتناهيه، والتّناهي على الحقّ الأوّل محال، فالإحاطة مُحال، ومن علم أمراً من وجهٍ ما لأمِنَ جميع وجوهه، فما أحاط به، ولا يمكن أن تنسب إلى الذّوات صفات إلا بعد معرفة الذّوات، وحينئذٍ تعرف كيفيّة النّسبة، فلهذا لا جائزٌ أن يُوصَفَ سبحانه بما لم يصف به نفسه، كما يقال: القديم، وإن جاز عقلاً.

اعلم أنّ الممكن لا يعلم موجده إلا من حيث هو لا غير، فنفسه علم، وأمّا من حيث هو معلول عنه فغير ذلك، ولا يصحّ أن تكون هذه العلة معلولة لمعلولها، لأنّ العلم بالشيء يؤذن بالإحاطة به، والفراغ منه كما تقدم. وهذا في ذلك الجناب محال، فالعلم محال، ولا يصحّ أن يعلم منه، لأنه لا يتبعّض، فلم يبق العلم إلا بما يكون منه، وهو أنت، فأنت العالم والمعلوم هاهنا.

فإن قيل: علمنا بليس هو كذا علم به، قلنا: هي نعوتُك جرّدته عنها فتميّزت أنت عندك عن ذات مجهولة لك من حيث ما هي معلومة بنفسها.

وما تميزت لك هي، وذلك لعدم الصّلات النّبوتية التي لها في نفسها فافهم ما علمت، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طٰه: ١١٤]، لو علمته لم يكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت، فَبِعِلْمِهِ أوجدك، وبعجزكَ عبدته، فهو هو له لا لك، وأنت أنت لك وله، فأنت مرتبط به، وما هو مرتبط بك، والوجود هو الخير المحض، ومقابله العدم وهو الشّرُّ المحض، وله وحدة إطلاق الوجود، ولا لسواه، والضّدّان لا يجتمعان.

تفهيم وإيضاح وتفهم:

أنت معنى الكون كلّه، وأوّل القرب من المكوّن بعدك عن الكون.

نظم: [الكامل]

أخفيتَ إذْ أظْهَرْتَ معنًى كائناً ... ما لَمْ يَكُنْ فَخفيتَ في الإعلانِ
فإذا أرَدْتَ ظهورَ ما أخفيتَهُ ... فاخفِ الذي أظْهَرْتَهُ فَتَراني

مؤمن: [البسيط]

يا آخرَ الكُلِّ فيكَ الكُلُّ مُنْدَرِجٌ ... وقَوْلِيَ: الكُلُّ كافٍ إن تكُنْ فَطِنا
وأنْتَ جزؤكَ أو جُزْءُ الوجُودِ كما ... تكونُ عَيْناً إذا ما شِئْتَ أو أُذُنا
فالكُلُّ جُزءٌ أو ما فَوْقَهُ أبَداً ... أضحى بقَصْدِكَ مَغروقاً ومُرْتَهنا
[إن غِبْتَ غَابَ وإنْ تحضرْ تَجِدْكَ لَهُ ... ذَاتاً تَراها لما حاوَلْتَهُ وَطَنا]
فإنْ تَكُنْ فلكاً أو إنْ تكُنْ ملكاً ... أو كنتَ رُوحاً لروحِ الكُلِّ أو بَدَنا
أخطأتَ قَصْدَكَ فالمقصودُ كَوْنُكَ إنْـ ... ـساناً وعَبْداً ومَفتوناً ومُمْتَحَنا
هذا مقامُ رَسولِ اللّهِ قُمْ أبَداً ... بهِ تَكُنْ آمناً في الكُلِّ مؤتمنا

غيره: [الطويل]

مَتَى أغْتَني عَن ذا التَنَفُّسِ والنَّفَسْ ... وَيُبْدَلُ لي خَوفي وأخْرُجُ مِن حَبْسي
ويُطْلَقُ هذا الطَّيرُ من قَفَصِ البلى ... إلى مُطلقِ في مطلقِ النُّور والأُنسِ
فَدَعْنيَ مِنْ سعدى ولَيْلى وزَينبٍ ... فكَمْ وَحشةٍ تلقاكَ في الإنسِ بالأنسِ
[ودَعْ فلكاً يجري ودَعْ مَلِكاً عَلِيْ ... عَلى قمَّةِ العَلياءِ في عالِمِ القُدسِ]
ودَعْ جَنَّةَ المأوى معَ السّدْرَةِ الّتي ... هيَ المُنْتَهى في عالمِ العَقْلِ والحِسِّ
ولا تتّخِذْ غيراً دَليلاً على المُنَى ... سِواكَ تَصِلْ عَيْنَ اليَقينِ بلا لَبْسِ
فَنُوريّةُ الإنسانِ أغْنَتْ بِذَاتِها ... عَنِ الكَوْكَبِ الدُّرّيّ والبَدْرِ والشَّمسِ
مَقامُكَ ذا قُمْ فيهِ وَحْدَكَ حَاضِراً ... فيومُكَ يُغنِي عَن غدٍ لكَ أو أمسِ
وإنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَعْرِفُ الفَرْقَ هَاهنا ... يَقيناً بلا رَجْمِ بظَنٍّ ولا حَدْسِ
فَسِرْ عنكَ مفقوداً بوجدٍ إلى الذي ... تعالى عَنِ الأفلاكَ والعَرْشِ والكُرْسي
فَمَنْ نَالَ مِنْهُ الوَجْدُ ما الفَقْدُ عِنْدَهُ ... ومَنْ وَجَدَ الإكْسيرَ مَا قيمةُ الفِلْسِ

ران:

نظم: [الطويل]

عَلا الأمْرُ حَتَّى كَادَ يعدمُ عندَنا ... كذاكَ دَنا حتَّى مِنَ الكُلِّ يَظْهرُ
فأظهرَ ممّا تُبْصِرُ العَيْنُ ظاهراً ... لِذي العَقْلِ من للعَيْنِ والعَقْلِ يَظهرُ
ومن حيثُ أنَّ الكُلَّ دلَّ بكُلِّهِ ... على فاعلٍ قُلْنا لَهُ: الكُلّ مظهرُ
وقَدْ أظهرتْ منّا العُقولُ مظاهراً ... بما ظهرَتْ إذ حينَ تظهرُ تُظْهرُ
فمظهر كلّ مظهرٍ مُظهرٌ لنا ... بكُلٍّ، وكلّ مظهر هو مُظهرُ
ولكنّ هذا فاعِلٌ مُتَقدِّمٌ ... تعالى، وهذا فاعِلٌ مُتَأخِّرُ
كفُلْكٍ بنا تَجْرِي ونَجْرِي بها فَخُذْ ... مِثالاً لما في العَقْلِ للعَقْلِ يَنْهرُ

إيضاح:

نظم: [البسيط]

في ظُلْمَةِ الكَوْنِ كانَ المُلْتَقى بِهِم ... فأيُّ عَيْنٍ تَرى الأكْوانَ في الظُّلَمِ
نَعَمْ ولَوْلا حِجابُ الجِسْمِ لم تَرَ ما ... وَراءَهُ بينَ مَجْموعٍ ومُنْقَسِمِ
مَشيمةُ الجِسْمِ كُلٌّ كالجنين بها ... وهَذه كَرَةُ الأفلاكِ كالرَّحِمِ
والعقلُ في ظُلْمَةِ الأحْداثِ مَسْكَنُهُ ... ما زالَ في ساحةِ اللّذّاتِ والألَمِ
فالجسمُ في عَدَمٍ والعَقْلُ في ظُلَمٍ ... والكُلُّ في حَدثٍ والحقُّ في قِدَمِ
فليسجدِ العَقلُ مقصوراً عليهِ فما ... لهُ سِوى رُؤيةِ الأحْكامِ والحِكَمِ
وفوقَ ما فوقَ طَورِ العَقْلِ مُحْتَجبٌ ... عنهُ بهِ قَدْ تَعدّى مُقْتَضى الكِلَمِ
هُناكَ في عَالمِ العَقْلِ الجديد ترى ... بهِ ولَيْسَ هنا في الكون غير عمي
لو أدرك المرءُ قبلَ الكونِ غايتَهُ ... فيه تَساوَى وجودُ المَرْءِ بالعَدَمِ

جد: [الكامل]

لكَ مِنْ فُؤادي رُتْبَةٌ لا تُدْرَكُ ... وسِواكَ مِنّي ذَرّةٌ لا يَملِكُ
ولَقَدْ كَفَفْتُ خَواطِري عَنْ أنّها ... تُومي إليكَ مَخافَةً لا أُشْرِكُ
وصَرَفْتُ وَجْهي عَن جَنابِكَ غَيْرَةً ... مِنّي عَلَيْكَ فَلَسْتُ نَحْوَكَ أسْلِكُ
ووقفتُ عِنْدَ الأمْرِ مُعْتَرِفاً بلا ... قَصْدِ اختيارٍ لي لأنّي أهْلكُ
حَسبي بأن عَرَّضْتني لرِضَاكَ لي ... وهَدَيْتَني كَرَماً فبانَ المَسْلكُ

كشف وإرشاد: [الكامل]

عِلْمُ الحقيقةِ في الخَليقةِ ساري ... فاقرأْهُ فيكَ تجدْهُ عينَ القَاري
والكُلُّ حَرْفٌ أنتَ نُقطَةُ خَطِّهِ ... ألفٌ تألَّفَ منهُ باءُ الباري
وعليكَ تَنْعَطِفُ الحُروفُ فإنْ تَسِرْ ... فبها إليكَ شهدتَ سينَ السَّاري
واحذرْ تسير بها إليها فهيَ عَمْـ ... ـما منهُ كانَتْ حُجْبَةُ الأسْرَارِ
والكلُّ قَدْ أوْضَحْتُهُ لكَ فانقلبْ ... عن عَيْنها عَيْناً ترى المُتواري
هَذا مقامُك ثُمْ بهِ إنْ شئتَ يا ... ذا الاختيارِ سِواكَ ما في الدَّارِ
ولَئِنْ قَطعتُ الاختيارَ رأيتَ قَلْـ ... ـبَ العَينِ عَيْنَ القَلبِ للمُخْتارِ
وهُنا بِدايةُ ما النِّهايةُ دُونَهُ ... في غيرِهِ في السِّرِّ والإجْهارِ
ولَهُ تعاليهِ بهِ عَنْهُ فَقُمْ ... بالأمرِ واسجُدْ سَجْدةَ الإقرارِ

خاتمة: [الوافر]

تعرَّفَ بالتَّنَكُّرِ في المظاهِرْ ... ليَشْهَدَ بالبواطِنِ والظَّواهِرْ
علا ودَنا، وجَلَّ بلا مَحَلٍّ ... فأصْبحَ خَاطِراً في كلِّ خاطِرْ
فأبدى واختَفى عَن كُلِّ بادٍ ... ظُهوراً بينَ مَقْهورٍ وقاهِرْ
وخاطبَهم بهمْ وبكُلِّ شيءٍ ... فكُلٌّ سَامِعٌ منهُ وباصِرْ
بَدا بالكُلِّ مُحتجباً بكَشفٍ ... فكُلٌّ كاشِفٌ والكُلُّ ساتِرْ
وحيَّرهم بهِ وهَدى إليه ... فكُلٌّ مهتدٍ والكُلُّ حائرْ
رَأَوْهُ بمـا رَاَوْنَ بهِ رَاَوْهُ ... فكُلٌّ باطِنٌ، والكُلُّ ظاهِرْ
[وسَيَّرهُمْ بهِمْ عَنْهُمْ إليهِ ... فَكُلٌّ واقِفٌ والكُلُّ سائِرْ]
وأخضَرَهُمْ وغَابُوا عَنْ سِواهُ ... فكلٌّ غائبٌ والكُلّ حاضِرْ
فهذا حَدُّهُمْ والرَّسْمُ باقٍ ... فكُلٌّ عاجِزٌ والكُلُّ قادرْ
وإنْ رَفَعَ الزَّمانُ فلا حُدود ... فكلٌّ أوَّلٌ والكلُّ آخِرْ

تمّ بحمد الله في يوم الإثنين بإذن الله في العشر الأوسط من رجب المرجب بتوفيق الله في تاريخ كتبت ببكاء لحب الله، على يد الحقير محبّ الله غفره الله في بيت الله بجوار المصنّف قبلة المحققين شيخ محيي الملّة والدّين، ولي الله، رضي الله عنا وعن كلّ عبد لله بحرمة محمد وآله عليه وعليهم صلاة الله وسلام الله.

تهذيب الأخلاق

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن العربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

إعلم أن الإنسان ـ من بين سائر الحيوان ـ ذو فكر وتمييز، وهو أبداً يحب من الأُمور أفضلها، ومن المراتب أشرفها، ومن المقتنيات أنفسها، إذا لم يعدل عن التمييز في اختياره، ولم يغلبه هواه في اتباع أغراضه.

وأولى ما اختاره الإنسان لنفسه، ولم يقف دون بلوغ غايته، ولم يرضَ بالتقصير عن نهايته: تمامه وكماله.

ومن تمام الإنسان وكماله: أن يكون مرتاضاً بمكارم الأخلاق، ومحاسنها، ومتنزهاً عن مساويها ومقابحها، آخذاً في جميع أحواله بقوانين الفضائل، عادلاً في كل أفعاله عن طريق الرذائل، فإذا كان ذلك كان واجباً على الإنسان أن يجعل قصده اكتساب كل شيمة[1] سليمة من المعائب، ويصرف همته على اقتناء كل خِيم[2] كريم، خالص من الشوائب، وأن يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة ردية، ويستفرغ وسعه في إطراح كل خلة مذمومة دنية، حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقه، ويكتسي حلل الجمال بدمائة[3] شمائله، ويباهي بحق أهل السؤدد[4] والفخر، ويلحق بالذرى[5] من درجات النباهة والمجد.

إلاّ أن المبتدىء بطلب هذه المرتبة، والراغب في بلوغ هذه المنزلة، ربما خفيت عليه الخلال المستحسنة، التي يعنيه تحريها، ولم تتميز له من المستقبحة التي غرضه توقيها.

---

(١) الشِّيمَة بالكسر: الطبيعة. والشامة: علامة تخالف البدن الذي هي فيه. والشامة: أثر أسود في البدن، وفي الأرض. وشيمة الإنسان: خلقه.

(٢) الخيم: بالكسر: السَّجيَّةُ والطبيعة، بلا واحد.

(٣) الدمائة: سهولة الخلق.

(٤) السُّؤدُدُ: السيادة، والسّائد: السيد.

(٥) الذُّرى: بالضم والكسر ذروة الشيء: أعلاه.

فمن أجل ذلك، وجب أن نقول في الأخلاق قولاً نبين فيه:

ما الخلق؟

وما علته؟

وكم أنواعه، وأقسامه؟؟

وما المرضي منها المغبوط صاحبه والمتخلق به؟

وما المشنو[1] منها، الممقوت فاعله، والمترسم به؟

ليسترشد بذلك: من كانت له همة تسمو إلى مباراة أهل الفضل، ونفس أبية، تنبو عن مساواة أهل الدناء والنقص، وتدل أيضاً على طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه، والتدرب به، وتنكب المذموم منها وتجنبه، حتى يصير المرتاض به ديدناً وعادة وسجية وطبعاً ليهتدي به من نشأ على الأخلاق السيئة وألفها، وجرى على العادات الردية وأنس بها.

ونصف أيضاً الإنسان التام المهذب الأخلاق، والمحيط بجميع المناقب الجميلة، وطريقه التي يصل بها إلى التمام، وتحفظ عليه الكمال، ليشتاق إلى صورته من تشوق إلى الرتبة العليا، ويحن إلى احتذاء سيرته من استشرف إلى الغاية القصوى.

وقد ينتبه بما نذكره من كانت له عيوب قد اشتبهت عليه، وهو مع ذلك يظهر أنه في غاية الكمال.

فإن من هذه حاله إذا تكرر عليه ذكر الأخلاق المكروهة، تيقظ لما فيه من ذلك وأنف واجتهد في تركه والتنزه عنه.

وكذلك إذا تصفح الأخلاق المحمودة، من كان جامعاً لأكثرها، عادماً لبعضها، قدّم إلى التخلق بذلك البعض الذي هو عادم له، وتاقت نفسه إلى الإحاطة بجميعها.

وقد ينتفع بما نذكره أيضًا من كان في غاية الكمال، فإن المهذب الأخلاق الكامل الآلات، الجامع المحاسن، إذا مرّ بسمعه ذكر الخلائق الجميلة، والمناقب النفيسة، ورأى أن تلك هي عاداته وسجاياه، كانت له بذلك لذة عجيبة، وفرحة مبهجة، كما أن الممدوح يُسَر إذا ذكر المادح نفسه، ونشر فضائله.

وأيضاً فإنه إذا وجد أخلاقه مدونة في الكتب، موصوفة بالحسن، كان ذلك داعياً إلى الاستمرار على سيرته، والإصرار على طريقه.

---

(١) المشنو: مَشْنِئٌ ومَشحنُوٌ: أي مُبْغَض.

وهذا حين ابتدائنا بذكر الأخلاق فنقول:

«إن الخلق هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار».

والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلاَّ بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء، يوجد في كثير من الناس من غير رياضة، ولا تعمل، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة.

وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك بالرياضة.

ومنهم من يبقى على عادته، ويجري على سيرته

الأخلاق المذمومة

فأما الأخلاق المذمومة، فإنها موجودة في كثير من الناس، كالبخل، والجبن، والظلم، والشر.

فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس، مالكة لهم.

بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه، ويسلم من جميع العيوب. ولكنهم يتفاضلون في ذلك.

وكذلك في الأخلاق المحمودة، قد تختلف الناس ويتفاضلون، إلاَّ أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جداً.

وأما المجبولون على الأخلاق السيئة، فأكثر الناس، لأن الغالب على طبيعة الإنسان الشر.

وذلك أن الإنسان إذا استرسل مع طبعه، ولم يستعمل: الفكر، ولا التمييز، ولا الحياء، ولا التحفظ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم، لأن الإنسان إنما يتميز عن البهائم بالفكر والتمييز.

فإذا لم يستعملها، كان مشاركاً للبهائم في عاداتها، والشهوات مستولية عليه، والحياء غائب عنه، والغضب يستنفره، والسكينة غير حاضرة له، والحرص والأحقاد ديدنه، والشر لا يفارقه.

فالناس مطبوعون على الأخلاق الردية، منقادون للشهوات الدنية.

ولذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسنن، والسياسات المحمودة، وعظم الانتفاع بالملوك الحسنى السيرة، ليردعوا الظالم عن ظلمه، ويمنعوا الغاصب عن غصبه، ويعاقبوا الفاجر على فجوره، فيقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال في جميع أُموره.

فالأخلاق المكروهة في طباع الناس.

إلاَّ أن فيهم من يتظاهر بها، وينقاد لها، وهم شرار الناس.

وفيهم من ينتبه بجودة الفكر، وقوة التمييز لقبحها، فيأنف منها، ويتصنع لاجتنابها، وذلك يكون عن طبع كريم ونفس شريفة.

وفيهم من لا ينتبه لذلك، إلاّ أنه إذا نبّه عليه أحس بقبحه، فربما حمل نفسه على تركه.

وفيهم من إذا انتبه لما فيه من النقائص، أو نبّه عليها، ورام العدول عنها: تعذر عليه ذلك، ولم يطاوعه طبعه، وإن كان مريداً للعدول عنها مجتهداً في ذلك.

وهذه الطائفة تحتاج أن ترشد إلى طريق التدرب والتعمل للعادات المحمودة، حتى يصير إليها على التدريج.

ومن الناس من ينتبه للأخلاق الردية أو ينبه عليها، فلا يحن إلى تجنبها، ولا تسمح نفسه بمفارقتها، بل يؤثر الإصرار عليها، مع علمه برداءتها وقبحها.

وهذه طائفة ليس إلى تهذيبها طريق، إلاّ بالقهر والتخويف والعقوبة، إن لم يردعها الترهيب.

في الأخلاق المحمودة

فأما الأخلاق المحمودة فإنها وإن كانت في بعض الناس عزيزة، فليست في جميعهم، وإن الباقين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدرب والرياضة، ويترقوا إليها بالاعتياد والألفة.

ومع هذا الحال فقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة، ولا الخلق الجميل، وذلك يكون لرداءة جوهره، وخبث عنصره.

وهذه الطائفة من جملة الأشرار، الذين لا يرجى صلاحهم، وكثير من الناس من يقبل كثيراً من الأخلاق المحمودة، وينبو طبعه عن بعضها، وليس يعد هذا شريراً، ولكن رتبته في الخير بحسب محاسنه.

فأما العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق، وهي النفس، فللنفس ثلاث قوى، وهي تسمى أيضاً نفوساً.

وهي: النفس الشهوانية، والنفس الغضبية، والنفس الناطقة.

وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى، فمنها ما يختص بإحداهن، ومنها ما يشترك فيه قوتان، ومنها ما يشترك فيه القوى الثلاث.

ومن هذه القوى ما يكون للإنسان وغيره من الحيوان.

ومنها ما يختص به الإنسان فقط.

في النفس الشهوانية

أما النفس الشهوانية، فهي للإنسان ولسائر الحيوان، وهي التي يكون بها جميع اللذات والشهوات الجسمانية، كالإقدام إلى المآكل والمشارب، والمباضعة[١].

وهذه النفس قوية جداً، متى لم يقهرها الإنسان، ويهذبها ملكته، فاستولت عليه.

فإذا هي استولت عليه خسر تهذيبها، وصعب قمعها وتذليلها.

فإذا تمكنت هذه النفس من الإنسان وملكته، وانقاد لها كان بالبهائم أشبه من بالناس، لأن أغراضه ومطلوباته وهمته تصير أبداً مصروفة إلى الشهوات واللذات فقط، وهذه هي عادات البهائم.

ومن يكون بهذه الصفة، يقل حياؤه، ويكثر خرقه[٢]، ويستوحش من أهل الفضل، ويميل إلى الخلوات، وينقبض عن المجالس الحفلة[٣]، ويبغض أهل العلم، ويشنأ أهل الورع والنسك، ويود أصحاب الفجور، ويحب الفواحش، ويكثر ذكرها، ويلذ له استماعها، ويسر بمعاشرة السفهاء، ويغلب عليه الهزل، وكثرة اللهو.

وقد يصير من هذه حالة إلى الفجور، وارتكاب الفواحش والتعرض للمحظورات.

وربما دعته محبة اللذات إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها، وربما حملته نفسه على الغضب والتلصص، والخيانة، وأخذ ما ليس له بحق، فإن اللذات لا تتم إلا بالأموال والأعراض.

فمحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجهها، جسرته شهوته على اكتسابها من غير وجهها.

---

(١) المُباضَعَة: المجامعة وهي البضاع. ويقال: ملك فلان بُضْع فلانة إذا ملك عُقْدة نكاحها، وهو كناية عن موضع الغشيان. والمباضعة: المباشرة؛ ومنه الحديث الشريف: وبُضْعُه أهلَه صدقه: أي مباشرته.

(٢) خَرِقَ الرَّجل بقي متحيراً من هم أو شدة. وخَرُق يَخْرُقُ فهو أخرق إذا حَمَق. وخَرِقَ بالشيء: جَهِلَه ولم يُحْسِنْ عمله.

(٣) الحفلة: المليئة بالناس المجتمعين للاحتفال: مجالس الجماعات.

ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحد، فهو أسوأ الناس حالاً، وهو من الأشرار، الذين يخاف خبثهم، ويستوحش منهم، ويستروح إلى البُعد عنهم، ويصير واجباً على متولي السياسات قمعهم وتأديبهم، وإبعادهم ونفيهم، حتى لا يختلطوا بالناس، فإن اختلاط من هذه صفته بالناس مضرة لهم، وخاصة لأحداثهم، فإن الحدث سريع الانطباع، ونفسه مجبولة إلى الميل إلى الشهوات، فإذا شاهد غيره مرتكباً لها، مستحسناً للانهماك فيها، مال هو أيضاً إلى الاقتداء به، وإلى مساعدة لذته.

وأما من ملك نفسه الشهوانية وقهرها، كان ضابطاً لنفسه، عفيفاً في شهواته، محتشماً من الفواحش، متوقياً من المحظورات محمود الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات، فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم، وعفة بعضهم، وفجور بعضهم، هو اختلاف أحوال النفس الشهوانية، فإنها إذا كانت مهذبة مؤدبة، كان صاحبها عفيفاً ضابطاً لنفسه، وإذا كانت مهملة مرسلة، مالكة لصاحبها، كان صاحبها فاجراً شريراً.

وإذا كانت متوسطة الحال، كانت رتبة صاحبها في العفة كرتبتها في التأدب.

فمن أجل ذلك وجب أن يؤدب الإنسان نفسه الشهوانية، ويهذبها حتى تصير منقادة له، ويكون هو مالكها، فيستعملها في حاجاته التي لا غنى عنها، ويكفها عما لا حاجة له إليه من الشهوات الردية، واللذات الفاحشة.

في النفس الغضبية

وأما النفس الغضبية، فيشترك فيها أيضاً الإنسان وسائر الحيوان.

وهي التي يكون بها: الغضب، والجراءة، ومحبة الغلبة.

وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية، وأضر بصاحبها إذا ملكته وانقاد لها.

فإن الإنسان إذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه، وظهر خرقه، واشتد حقده، وعدم حلمه ووقاره، وقويت جراءته، وأسرع عند الغضب إلى الانتقام والإيقاع بمغضبه، والوثوب على خصومه، فأسرف في العقوبة، وزاد في التشفي فأكثر السب وأفحش فيه.

فإذا استمرت هذه العادات بالإنسان كان بالسباع أشبه منه بالناس.

وربما حمل قوماً على حمل السلاح.

وربما أقدموا على القتل والجراح.

وربما وثبوا بالسلاح على إخوانهم، وأوليائهم، وعبيدهم، وخدمهم عند الغضب من اليسير من الأُمور.

وربما غضب من هذه حاله، ولم يقدر على الانتقام من خصمه، فيعود بالضرر والسب والألم على نفسه.

فمنهم من يلطم وجهه، وينتف لحيته، ويعض يده، ويسب نفسه، ويذكر عرضه.

وأيضاً فإن من تملكه النفس الغضبية يكون محباً للغلبة، متولياً على من آذاه، مقدماً على كل من ناوأه، طالباً للترؤس من غير وجهة.

فإذا لم يتمكن من الرياسة من وجهها، توصل إليها بالحيل الخبيثة، فاستعمل كل ما يمكنه من الشر.

وهذه الأفعال تورط صاحبها، وتوقعه في المهاوي والمهالك.

فإن من وثب على الناس، وثبوا عليه، ومن خاصمهم خاصموه، ومن أقدم عليهم أقدموا عليه، ومن تشرر عليهم قصدوه بالشر.

وربما تسفه الإنسان على خصمه، وكان الخصم أسفه منه، فإن ناله بسوء، قابله ذلك بأكثر منه.

وقد يغلب على من هذه حاله: الحسد، والحقد، والقحة[١]، واللجاج[٢]، والجور.

وقد يحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرئاسة على اكتساب الأموال من غير وجهها، وأخذها بالغلبة والظلم.

وربما قتلوا على محبة الغلبة من يناوئهم.

وربما فعلوا ذلك من غير روية، فيؤول الأمر بهم إلى البوار والاستئصال.

فأما من ساس نفسه الغضبية، وأدّبها وقمعها: كان رجلاً، حليماً، وقوراً، عادلاً، محمود الطريقة.

فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في غيظهم وسفاهة بعضهم، هو اختلاف أحوال النفس الغضبية.

---

(١) القُحَة: الجفاء، والقُحُ: الجافي من الناس كأنه خالص فيه. والوقاح الحافر الصلب، ورجل وقاح الوجه صُلْبُه: قليل الحياء، وقد وقح وقاحة وقِحَة.

(٢) اللجاج: الخُصومة.

إذا كانت مذللة مقهورة: كان صاحبها حليماً وقوراً.

وإذا كانت مهملة، مستولية على صاحبها، كان صاحبها: غضوباً، سفيهاً، غشوماً.

وإذا كانت متوسطة، كان صاحبها متوسط الحال، رتبته في الحلم كرتبة نفسه الغضبية، حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها في المواضع التي يجب استعمالها فيها.

فإن لهذه النفس فضائل محمودة، وذلك لأن الأنفة من الأُمور الدنية، ومحبة الرئاسة الحقيقية، وطلب المراتب العالية، من الأخلاق المحمودة، وهي في أفعال النفس الغضبية.

فإذا ملك هذه بالتأديب والتهذيب، واستعملها في الأُمور الجميلة، وكفّها عن الأفعال المكروهة، كان حسن الحال، محمود الطريقة.

في النفس الناطقة

وأما النفس الناطقة، وهي التي بها تميز الإنسان من جميع الحيوان.

وهي التي بها يكون الذكر والتمييز، والفهم.

وهي التي بها شرف الإنسان وعظمت همته، فأعجب بنفسه.

وهي التي بها يستحسن المحاسن، ويستقبح القبائح، وبها يمكن الإنسان أن يهذب قوتيه الباقيتين، وهما: الشهوانية والغضبية، ويكفهما ويضبطهما وبها يفكر في عواقب الأمور، فيبادر باستدراكها في أوائلها.

ولهذه النفس أيضاً فضائل ورذائل.

أما فضائلها فباكتساب العلوم والآداب، وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش، وقهر النفسين الآخرين، وتأديبهما، وسياسة صاحبهما في معاشه ومكسبه ومروءته وتجمله، وحث صاحبها على: فعل الخير، والتودد، والرقة، وسلامة النية، والحلم، والحياء، والنسك، والعفة، وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة.

وأما رذائلها: فالخبث، والحيلة، والخديعة، والملق[١]، والمكر، والحسد، والتشرر[٢]، والرياء.

---

(١) المَلَق: الوُدُّ واللُّطف ظاهراً بأن تُعطيَ باللسان ما ليس في القلب.

(٢) التَّشَرُّر: في القاموس المحيط: قاذَحَهُ: شاتَمَه. وتَقَذَّح له بشَرٍّ: تَشَرَّرَ.

وهذه النفس هي لجميع الناس.

إلاَّ أن منهم من تغلب عليه فضائلها، فيستحسنها ويستعملها.

ومنهم من تغلب عليه رذائلها فيألفها ويستمر عليها.

ومنهم من يجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل.

وهذه العادات قد تكون في كثير من الناس سجية وطبعاً لا بتكلف.

فأما المطبوع على العادات الجميلة، فمنها ما يكون لقوة نفسه الناطقة عنصرياً.

وأما المطبوع على العادات المكروهة، فلضعف نفسه الناطقة، وسوء جوهره.

وأما الذي يجتمع فيه فضائل ورذائل، فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال.

وقد يكتسب أكثر الناس هذه العادات، وجميع الأخلاق جميلها وقبيحها اكتساباً.

وذلك يكون بحسب منشأ الإنسان، وأخلاق من يحيط به، ويشاهده، ويقرب منه، وبحسب رؤساء وقته، ومن يشار إليه بالنباهة، ويغبط على رتبته فإن الحدث الناشىء يكتسب الأخلاق ممن يكثر ملابسته ومخالطته، ومن أبويه، وأهله وعشيرته.

فإذا كان هؤلاء سيئي الأخلاق مذمومي الطريقة، كان الحدث الناشىء بينهم أيضاً سيىء الأخلاق، مكروه العادات.

وإذا لحظ الحدث أيضاً أهل الرئاسة، من فوقه، وغبطهم على مراتبهم: آثر التشبه بهم والتخلق بأخلاقهم.

فإذا كانوا مهذبي الأخلاق حسني السيرة، كان المتشبه بهم حسن الأخلاق مرضي الطريقة.

وإن كانوا أشراراً جهّالاً خرج الغابط لهم، السالك طريقهم شريراً جاهلاً.

وهذه حال أخلاق أكثر الناس، فإن: الجهل، والشر، والخبث، والشره والحسد، غالب عليهم.

والناس بالطبع: يقتدي بعضهم ببعض، ويحتذي التابع أبداً سيرة المتبوع.

وإذا كان الغالب عليهم الشر والجهل، كان واجباً أن لا يقتدي أحداثهم وأولادهم وأتباعهم بهم.

فالعلة الموجبة لاختلاف قوة النفس: اختلاف الناس في سياساتهم وفضائلهم، وغلبة الخير والشر عليهم، من اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم إذا كانت خيرة، فاضلة، قاهرة للنفسين الباقيتين، كان صاحبها خيِّراً عادلاً حسن السيرة، وإذا كانت شريرة، خبيثة مهملة للنفسين الآخريين، كان صاحبها شريراً خبيثاً جاهلاً.

فمن أجل ذلك، وجب أن يعمل الإنسان فكره، ويميز أخلاقه، ويختار منها ما كان جيداً مستحسناً جميلاً، وينفي منها ما كان مستنكراً قبيحاً، ويحمل نفسه على التشبه بالأخيار ويتجنب كل التجنب عادات الأشرار.

فإنه إذا فعل ذلك صار بالإنسانية متحققاً، وللرئاسة الذاتية مستحقاً.

في أنواع الأخلاق وأقسامها

فأما أنواع الأخلاق وأقسامها، وما المستحسن منها وما المستحب اعتياده ويعد فضائل، وما المستقبح منها وما المكروه ويُعد نقائص، ومعائب، فهي الأنواع التي نحن واصفوها:

أما التي تعد فضائل، فإن منها العفة، وهي: ضبط النفس عن الشهوات، وقسرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ويحفظ صحته، واجتناب السرف، والتقصير في جميع اللذات، وقصد الاعتدال، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب، المتفق على ارتضائه، وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها، وعلى القدر الذي لا يحتاج إلى أكثر منه، ولا يحبس النفس والقوة أقل منه.

وهذه الحال هي غاية العفة.

ومنها القناعة، وهي الاقتصار على ما سنح من العيش، والرضى بما يسهل من المعاش، وترك الحرص على اكتساب الأموال، وطلب المراتب العالية، مع الرغبة في جميع ذلك وإيثاره والميل إليه، وقهر النفس على ذلك، والتمتع باليسير منه.

وهذا الخلق مستحسن من أوساط الناس وأصاغرهم.

وأما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحباً منهم، ولا تُعد القناعة من فضائلهم.

ومنها التصون، وهو التحفظ من التبذل. فمن التصون: التحفظ من الهزل القبيح، ومخالطة أهله، وحضور مجالسه، وضبط اللسان من الفحش، وذكر الخنا والقبيح، والمزاح السخيف، وخاصة في المحافل، ومجالس المحتشمين.

ولا أبهة لمن يسرف في المزاح، ويفحش فيه.

ومن التصون أيضاً الانقباض عن أدنياء الناس وأصاغرهم، ومصادقتهم، ومجالستهم والتحرز من المعايش الردية، واكتساب الأموال من الوجوه الخسيسة، والترفع عن مسألة الحاجات للئام الناس وسفلتهم، والتواضع لمن لا قدر له، والإقلال من البروز من غير حاجة والتبذل بالجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير اضطرار.

فإن الإكثار من ذلك مخل.

وأعظم الناس قدراً عند الخلق: من ظهر اسمه وخفي شخصه.

وأما الحلم وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب، مع القدرة على ذلك، وهذه محمودة ما لم تؤدِّ إلى ثلم جاه أو فساد سياسة.

وهي بالرؤساء والملوك أحسن، لأنهم أقدر على الانتقام من مغضبيهم، ولا يعد فضيلة: حلم الصغير عن الكبير وإن كان قادراً على مقابلته في الحال.

فإنه وإن أمسك، فإنما يعد ذلك خوفاً لا حلماً.

ومنها الوقار، وهو الإمساك عن فضول الكلام، والعيب وكثرة الإشارة، والحركة فيما يستغني عن الحركة فيه، وقلّة الغضب، والإصغاء عند الاستفهام، والتوقف عند الجواب، والتحفظ عن التسرع، والمبادرة في جميع الأُمور.

ومن قبيل الوقار أيضاً: الحياء، وهو غض الطرف والانقباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه.

وهذه العادة محمودة ما لم تكن عن عي[1] ولا عجز.

ومنها: الود، وهي: المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة، والود مستحسن من الإنسان إذا كان وده لأهل الفضل والنبل، وذوي الوقار والأبهة، والمتميزين من الناس.

وأما التودد إلى أراذل الناس وأصاغرهم، والأحداث، والنسوان، وأهل الخلاعة، فمكروه جداً.

وأحسن الود ما ينتجه بين متآلفين: مناسبة الفضائل، وهو أوثق الود، وأثبته.

وأما ما كان ابتداؤه اجتماعاً على هزل أو لطلب لذة، فليس هو محموداً، وليس بباق، ولا ثابت.

---

(١) العَيّ: خلاف البيان، ويقال عَيَّ بأمره وعيي إذا لم يهتدِ لوجهه.

ومنها: الرحمة، وهو خلق مركب من الود والجزع.

والرحمة: لا تكون إلاّ لمن ظهر منه لراحمه خلة مكروهة.

إما نقيصة، وإما محنة عارضة.

فالرحمة هي محبة للمرحوم، مع جزع من الحال التي من أجلها رحم.

وهذه الحال مستحسنة، ما لم تخرج بصاحبها عن العدل، ولم تنتهِ به إلى الجور، وإلى فساد السياسة، فليس بمحمود رحمة القاتل عند القود، والجاني عند القصاص.

ومنها: الوفاء، وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه، ويرهن به لسانه، والخروج مما يضمنه، وإن كان مجحفاً به، فليس يعد وفياً من لم يلحقه بوفائه أذية وإن قلت. وكلما أضرّ به الدخول تحت ما يحكم به على نفسه، كان أبلغ في الوفاء.

وهذا الخلق محمود، ينتفع به جميع الناس.

فإن من عرف بالوفاء، كان مقبول القول، عظيم الجاه، إلاّ أن انتفاع الملوك بهذا الخلق، أكثر، وحاجتهم إليه أشد.

وإنه متى عرف منهم قلة الوفاء، لم يوثق بمواعيدهم، ولم تتم أغراضهم، ولم يسكن إليهم جندهم وأعوانهم.

ومنها أداء الأمانة، وهو التعفف عما يتصرف الإنسان فيه من مال وغيره، وما يوثق به وعليه من الأعراض، والحرم مع القدرة عليه، ورد ما يستودع إلى مودعه.

ومنها: كتمان السر.

وهذا الخلق مركب من الوقار، وأداء الأمانة.

فإن إخراج السر من فضول الكلام.

وليس بوقور من تكلم بالفضول.

وأيضاً، فكما أن من استودع مالاً فأخرجه إلى غير مودعه، فقد خفر[1] الأمانة، كذلك من استودع سراً فأخرجه إلى غير صاحبه، فقد خفر الأمانة.

وكتمان السر محمود من جميع الناس، وخاصة ممن يصحب السلطان، فإن إخراجه أسراره ـ مع أنه قبيح ـ يؤدي إلى ضرر عظيم، يدخل عليه من سلطانه.

---

(١) خَفَر: في اللسان: الخِفَارة: الذِّمة، وانتهاكها: إخفارها، وأخفر الذِّمّة: أي لم يفِ لمن يُجير.

ومنها: التواضع، وهو ترك الترؤس، وإظهار الخمول، وكراهية التعاظم والزيادة في الإكرام، وأن يتجنب الإنسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالجاه والمال، وأن يتحرز من الإعجاب والكبر.

وليس يكون حسن التواضع إلاَّ في أكابر الناس ورؤسائهم، وأهل الفضل والعلم.

وأما سوى هؤلاء، فليس يكونون متواضعين، لأن الضعة هي محلهم ورتبتهم، فهم غير متضعين لها.

ومنها البشر وهو إظهار السرور بمن يلقاه الإنسان من إخوانه وأودائه وأصحابه وأوليائه ومعارفه، والتبسم عند اللقاء.

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس، وهو من الملوك والعظماء أحسن.

فإن البشر في الملوك يتألف به قلوب الرعية والأعوان والحاشية، ويزداد به تحبباً إليهم.

وليس سعيداً من الملوك من كان متبغضاً إلى رعيته.

وربما أدّى ذلك إلى فساد أمره، وزوال ملكه.

ومنها: صدق اللهجة، وهو الإخبار عن الشيء على ما هو به.

وهذا الخلق مستحسن، ما لم يؤدِّ إلى ضرر مجحف، فإنه ليس بمستحسن صدق الإنسان إن سئل عن فاحشة كان ارتكبها، فإنه لا يفي حسن صدقه بما يلحقه في ذلك من العار والمنقصة الباقية اللازمة.

وكذا ليس يحسن صدقه متى سئل عن مستجير استجاره فأخفاه، ولا إن سئل عن جناية متى صدق عنها عوقب عليها بعقوبة مؤلمة.

والصدق مستحسن من جميع الناس، وهو من الملوك والعظماء أحسن، بل لا يسعهم الكذب، ما لم يعد الصدق عليهم بضرر.

ومنها سلامة النية، وهو اعتقاد الخير لجميع الناس، وتجنب الخبث، والغيبة، والمكر، والخديعة.

وهذا الخلق محمود من جميع الناس، إلاَّ أنه ليس يصلح للملوك التخلق به دائماً، ولا يتم الملك إلاَّ باستعمال المكر والحيل والاغتيال مع الأعداء.

ولكن لا يحسن بهم استعماله مع أوليائهم، وأصفيائهم، وأهل طاعتهم.

ومنها السخاء، وهو: بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق، وهذا الفعل مستحسن، ما لم ينتهِ إلى السرف والتبذير، فإن بذل جميع ما يملك لمن لا يستحقه، لم يُسَمَّ سخياً، بل يسمى مبذراً مضيعاً.

والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة، فأما في الملوك فأمر واجب، لأن البخل يؤدي إلى الضرر العظيم في ملكهم، والسخاء والبذل يرتهن به قلوب الرعية والجند والأعوان، فيعظم الانتفاع به.

ومنها الشجاعة، وهو: الإقدام على المكاره والمهالك، عند الحاجة إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف، والاستهانة بالموت.

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس، وهو بالملوك وأعوانهم أليق وأحسن، بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلة.

وأكثر الناس أخطاراً وأحوجهم إلى اقتحام الغمرات، هم الملوك، فالشجاعة من أخلاقهم الخاصة بهم.

ومنها المنازعة، وهو منازعة النفس في التشبه بالغير فيما يراه له وهو يرغب فيه لنفسه، والاجتهاد في الترقي إلى درجة أعلا من درجته.

وهذا الخلق محمود إذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العالية، وما يكسب مجداً وسؤدداً، فأما في غير ذلك من اتباع الشهوات، والمباهاة باللذات، والزينة، والبزة[1] فمكروه جداً.

ومنها: الصبر عند الشدة.

وهذا الخلق مركب من: الوقار والشجاعة.

ومستحسن جداً ما لم يكن الجزع نافعاً، ولا الحزن والقلق مجدياً، ولا الحيلة والاجتهاد دافعة ضرر تلك الحالة.

وما أقبح الجزع إذا لم يكن مفيداً.

ومنها عظمة الهمة، وهو: استصغار ما دون النهاية من معالي الأُمور، وطلب المراتب السامية، واستحقار ما يجود به الإنسان عند العطية، والاستخفاف بأوساط

---

(١) البِزَة: الشارة الحسنة من الثياب، والهيئة، واللِّبْسَة.

الأُمور، وطلب الغايات، والتهاون بما يملكه، وبذل ما يمكنه لمن يسأله، من غير امتنان ولا اعتداد به.

وهذا الخلق من أخلاق الملوك خاصة.

وقد يحسن بالرؤساء والعظماء، ومن تسمو نفسه إلى مراتبهم.

ومن عظم الهمة: الأنفة، والحمية والغيرة. والأنفة هو: نبو النفس عن الأُمور الدنية.

والحمية، والغيرة جميعاً هما: الغضب عند الإحساس بالنقص.

وإنما يلحق الإنسان الغيرة على الحرم، لأن في التعرض لهن عاراً ومنقصة، فإن المتعرض للحرم مهتضم لصاحبهن، ومتصرف في حق له.

والاهتضام: نقيصة.

ومن عظم الهمة الأنفة من الاهتضام، ودخول النقص.

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس.

ومنها العدل: وهو الوسط اللازم للاستواء، وهو استعمال الأمور في مواضعها وأوقاتها، ووجوهها ومقاديرها، من غير سرف ولا تقصير، ولا تقديم ولا تأخير.

فأما الأخلاق الردية التي تعد نقائص ومعايب، فإن منها: الفجور، وهو الانهماك في الشهوات، والاستكثار منها، والتوفر على اللذات، والإدمان عليها، وارتكاب الفواحش، والمجاهرة بها.

وبالجملة: السرف في جميع الشهوات.

وهذا الخلق أبداً يهدم الحياء، ويذهب ماء الوجه، ويخرق حجاب الحشمة.

ومنها الشره، وهو: الحرص على اكتساب الأموال وجمعها وطلبها من كل وجه، وإن قبح التعسف في اكتسابها، والكالبة عليها، والاستكثار من القنية وإدخار الأعراض.

وهذا الخلق مكروه في جميع الناس، إلاَّ من الملوك، فإن كثرة الأموال والذخائر والأعراض تعين على الملك، وتزين الملوك، وتزيدهم هيبة في نفوس رعيتهم، وأعوانهم، وأعاديهم وأضدادهم.

ومنها التبذل، وهو: إطراح الحشمة، وترك التحفظ عن الهزل واللهو، ومخالطة السفهاء، وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش، والتفوه بالخنا[١]، وذكر الأعراض والمزح، والجلوس في الأسواق، وعلى قوارع الطرق، والتكسب بالمعاش الرديء، والتواضع للسفلة.

وهذا الخلق قبيح بجميع الناس.

ومنها السفه، وهو ضد الحلم، وهو سرعة الغضب والطيش، من يسير الأُمور، والمبادرة في البطش والإيقاع بالمؤذي، والسرف في العقوبة، وإظهار الجزع من أدنى ضرر، والسب الفاحش.

وهذا الخلق: مستقبح من كل أحد، إلاَّ أنه من الملوك والرؤساء أقبح.

ومنها الخرق وهو كثرة الكلام والتحرك من غير حاجة، وشدة الضحك، والمبادرة إلى الأمور من غير توقف، وسرعة الجواب.

وهذا الخلق مستقبح من كل أحد.

وهو بأهل العلم وذوي النباهة: أقبح.

ومن قبيل الخرق القحة، وهو: قلة الاحتشام، لمن يجب احتشامه، والمجاهرة بالجوابات الفظة المستشنعة.

وهذا الخلق مكروه، وخاصة بذوي الوقار.

ومنها العشق، وهو إفراط الحب، والسرف فيه.

وهذا الخلق مكروه على جميع الأحوال، إلاَّ أن أقبحه وأشره: ما كان مصروفاً إلى طلب اللذة، واتباع الشهوة الردية.

وقد يحمل صاحبه على الفجور وارتكاب الفواحش، وكثرة التبذل، وقلّة الحياء، ويكسبه عادات ردية، وهو بكل أحد قبيح، إلاَّ أنه بالأحداث، والمترفهين والمتنعمين: أقل قبحاً.

ومنها القساوة، وهو: خلق مركب من: البغض، والشجاعة.

والقساوة هي: التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى.

وهذا الخلق مكروه من كل أحد، إلاَّ من الجندي وأصحاب السلاح والمتولين الحروب، فإن ذلك غير مكروه منهم إذا كان في موضعه.

---

(١) الخنا: الفحش، الخنا: من قبيح الكلام.

ومنها الغدر، وهو: الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه، ويضمن الوفاء به، وهذا الخلق مستقبح، وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة، وهو بالملوك والرؤساء أقبح، وبهم أضر، فإن عرف من الملك الغدر لم يسكن إليه أحد، ولم يثق به، وإذا لم يسكن إليه: فسد نظام ملكه.

ومنها: الخيانة، وهو الاستبداد بما يؤمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم وتملك ما يستودع، ومجاهدة مودعه.

ومن الخيانة أيضاً طي الأخبار إذا بدت مصلحة لتأديتها، وتحريف الرسائل إذا تحملها وصرفها عن وجهها.

وهذا الخلق ـ أعني الخيانة ـ مكروه من جميع الناس، يثلم الجاه، ويقطع وجوه المعايش.

ومنها إفشاء السر.

وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر له.

والسر أحد الودائع، وإفشاؤه نقيصة على صاحبه فالمفشي للسر: خائن.

وهذا الخلق قبيح جداً، وخاصة ممن يصحب السلاطين ويداخلهم.

ومن قبيل إفشاء السر: النميمة، وهو أن يبلغ إنساناً عن آخر قولاً مكروهاً.

وهذا الخلق: قبيح جداً.

وإن لم يستسر أيضاً بما يسمعه أو يبلغه، فنقله إلى من يكرهه: قبيح، لأن في ذاك إيقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه.

وذلك غاية التشرر.

ومنها: الكبر، وهو استعظام الإنسان بنفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له.

وهذا الخلق: مكروه ضار لصاحبه، لأن من أعجبته نفسه، لم يستزد من اكتساب الأدب.

ومن لم يستزد بقي عليه نقصه.

فإن الإنسان ليس يخلو من النقص، وقلما ينتهي إلى غاية الكمال.

وأيضاً فإن هذا الفعل يبغضه إلى الناس، ومن أبغضه الناس ساءت حاله.

ومنها العبوس: وهو التقطيب عند اللقاء، وقلّة التبسم، وإظهار الكراهية.

وهذا الخلق مركب من: الكبر، وغلظ الطبع.

فإن قلّة البشاشة، هي: الاستهانة بالناس، والاستهانة بالناس تكون من الإعجاب والكبر.

وقلّة التبسم أيضاً ـ وخاصة عند لقاء الإخوان ـ يكون من غلظ الطبع، وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والأفاضل.

ومنها: الكذب، وهو: الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه.

وهذا الخلف: مكروه، وما لم يكن لدفع مضرة، لا يمكن أن تدفع إلاّ به، واجترار نفع لا غنى عنه، ولا يوصل إليه إلاّ به.

فإن الكذب عند ذلك ليس بمستقبح، وإنما بمستقبح الكذب إذا كان عبثاً، ولنفع يسير لا خطر له، لا يفي بقباحة الكذب.

والقبح بالملوك والرؤساء أكثر، لأن اليسير من النقص يشينهم.

ومنها: الخبث: وهو إضمار الشر للغير، وإظهار الخير له، واستعمال الغيلة، والمكر، والخديعة في المعاملات.

وهذا الخلق: مكروه من جميع الناس، إلاّ من الملوك والرؤساء، فإنهم إليه مضطرون، واستعمالهم إياه مع أضدادهم وأعدائهم لا يستقبح.

فأما أوليائهم وأصحابهم، فإنه غير مستحسن.

ومن قبيل الخبث: الحقد، وهو إضمار الشر للجاني إذا لم يتمكن من الانتقام منه، فأخفى تلك الأحقاد إلى وقت إمكان الفرصة.

وهذا الخلق: من أخلاق الأشرار، وهو مذموم جداً.

ومنها البخل: وهو منع المسترفد مع القدرة على رفده.

وهذا الخلق: مكروه من جميع الناس، إلاّ أنه من النساء كمال.

وأما سائر الناس، فإن البخل: يشينهم، وخاصة الملوك، والعظماء، فإن البخل يغض منهم أكثر مما يغض من الرعية والعوام، ويقدح في ملكهم، لأنه يقطع الأطماع منهم، ويبغضهم إلى رعيتهم.

ومنها: الجبن، وهو الجزع عند المخاوف، والإحجام عما تحذر عاقبته ولا تؤمن مغبته[١].

وهذا الخلق: مكروه من جميع الناس، إلاَّ أنه بالملوك والجند وأصحاب الحروب: أضر.

ومنها الحسد، وهو: التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير، وما يجده فيه من الفضائل، والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما هو له.

وهذا الخلق: مكروه، وقبيح بكل أحد.

ومنها الجزع عند الشدة، وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن.

وهو يستقبح إذا لم يكن مجدياً ولا مفيداً، فأما إظهار الجزع لتعمل حيلة بذلك عند الوقوع في الشدة، واستغاثة مغيث، أو اجتلاب معين، فيما تغنى فيه المعاونة، فغير مكروه، ولا يعد نقيصة.

ومنها صغر الهمة، وهو: ضعف النفس عن طلب المراتب العالية، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات، واستكثار اليسير من الفضائل، واستعظام القليل من العطايا، والاعتداد به. والرضى بأوساط الأمور وأصاغرها.

وهذا الخلق: قبيح بكل أحد، وهو بالملوك أقبح، بل ليس بمستحق الملك من صغرت همته.

ومنها: الجور، وهو: الخروج عن الاعتدال في جميع الأمور، والسرف والتقصير، وأخذ الأموال من غير وجهها، والمطالبة بما لا يجب من الحقوق، وفعل الأشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها، ولا على القدر الذي يجب، وعلى الوجه الذي يجب.

ومن الأخلاق ما هو في بعض الناس فضيلة، وفي بعضهم رذيلة.

فمنها: حب الكرامة، وهو أن يسر الإنسان بالتعظيم والتبجيل، والمقابلة بالمديح، والثناء الجميل.

وهذا الخلق محمود في الأحداث والصبيان، لأن محبة الكرامة تحثهم على اكتساب الفضائل.

---

(١) المغبة: العاقبة. وغبَّ الأمر: صار إلى آخره. وغِبُّ كل شيء: عاقبته.

وذلك أن الحدث والصبي، إذا مدح على فضيلة ترى فيه كان ذلك داعياً له من الازدياد من الفضائل.

وأما الأفاضل من الناس، فإن ذلك يعد منهم نقيصة، لأن الإنسان إنما يمدح على الفضيلة إذا كانت مستغربة منه، وإذا كان من أهل الفضل، فليس ينبغي أن يسر، بأن يستغرب ما يظهر منه من الفضائل.

وكذلك الإكرام والتبجيل إذا كان زائداً على استحقاقه، فإنه يجري مجرى الملق، والسرور بالملق غير محمود، لأنه من جنس الخديعة.

ومنها: حب الزينة، وهو التصنع بحسن البزة، والركوب، والآلات، وكثرة الخدم والحشم.

وهذا مستحسن من الملوك والعظماء، والأحداث، والظرفاء والمتنعمين، والنساء.

وأما الرهبان، والشيوخ، وأهل العلم، وخاصة الخطباء والواعظين، ورؤساء الدين، فإن الزينة والتصنع: مستبح منهم.

والمستحسن منهم: لبس الشعر، والخشن، والمشي، والخفاء، ولزوم الكنائس[1]، وحبرهم، وكراهية التنعم.

ومنها المجازاة على المدح، وهو: مجازاة من يمدح الإنسان، ويشكره في المجالس والمحافل.

وهذا الخلق مستحسن من الملوك والرؤساء، لأن ذلك يدعو الناس إلى مدحهم، ويكسب الممدوح ذكراً جميلاً، يبقى على الدهر.

ومن فضائل الملوك والرؤساء: بقاء ذكرهم الجميل، فأما محبتهم سماع المدح مواجهة، فذلك غير مستحب، لأنه من جنس الملق، وحب الملق مكروه، لأنه من قبيل الخديعة.

وأما إيثارهم انتشار ذكرهم ومدحهم، وتداول الناس له، وبقاءه بعدهم، فإن ذلك محمود منهم.

فمجازاة المادح مستحسنة من الملوك، ومنعهم مستقبح وضار، لأن ذلك يدعو إلى ذمهم.

وذمهم يبقى أيضاً على الدهر، فينشر لهم ذكراً قبيحاً، وذلك مكروه للملوك والرؤساء.

---

(١) يقصد لزوم الخلوات للرهبان ومن هذه الخلوات كنائسهم.

وأما أصاغر الناس، فمحبتهم جزاء المادح محمودة، فإنه إذا مدح الدنيء من الناس فإنما يخدعه، فإذا أجازه اعتقد أنه استرق منه تلك الجائزة.

وكثير من الناس إذا مدحوا بما ليس فيهم: يبادرون إلى مجازاة المادح، فيكونون قد وضعوا الشيء في غير موضعه، وهم إذا صرفوا ذلك الشيء إلى الضعفاء، وأهل المسكنة كان أجمل بهم وأليق.

ومنها: الزهد، وهو: قلّة الرغبة في الأموال والأعراض والإدخار، والقنية، وإيثار القناعة بما يقيم الرمق، والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها، وقلّة الاكتراث بالمراتب العالية، واستصغار الملوك وممالكهم، وأرباب الأموال وأموالهم، وهذا الخلق مستحسن جداً، ولكن من العلماء والرهبان ورؤساء الدين والخطباء والواعظين، ومن يرغب الناس في المعاد والبقاء بعد الموت.

وأما الملوك والعظماء، فإن ذلك غير مستحسن منهم، ولا لائق بهم، لأن الملك إذا أظهر الزهد، فقد صار ناقصاً، لأن ملكه لا يتم إلاّ باحتشاد الأموال والأعراض وإدخارها، ليذب بها عن ملكه، وصار معدوداً من جملة النقص من الملوك الحائدين عن طريق السياسة.

فهذه الأقسام التي ذكرناها، هي أخلاق جميع الناس.

أما المحمود منها، المعدود فضائل، فقلما تجمع كلها في إنسان واحد.

وأما المذموم منها، المعدود نقائص ومعايب، فقلما يوجد إنسان يخلو من جميعها، حتى لا يكون فيه خلق مكروه وخاصة من لم يرض نفسه ويؤدبها، فإن لم يتعمل لضبط نفسه، ويفتقد من عيوبه، لم يخل من عيوب كثيرة، وإن لم يحسن بها، ولم يفطن لها، فإن كان الأمر على ما ذكرنا، كان الأجدر بالإنسان أن يتفقد أخلاقه، ويتأمل عيوبه، ويجتهد في إصلاحها، وينفيها عن نفسه، ويتبع الأخلاق المحمودة، ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها فإن الناس إنما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم، لا كما يعتقد الجهال والعامة: أنهم يتفاضلون بأحوالهم وأموالهم، وكثرة الذخائر والأعراض، فإن أكثر الناس إنما يتفاخرون بالذخائر والأموال، والآلات، ويعظمون أبداً الأغنياء وذوي الأحوال، ولا يترتب بعضهم على بعض إلاّ بكثرة الأموال، وبالجاه المكتسب بالمال.

وليس كثرة الأموال، مما تفاضل بها أحوال الناس، فأما نفوسهم، فليس تكون أفضل من نفوس غيرهم، بكثرة الأموال.

وذلك أن الفاجر السفيه الجاهل الشرير ـ وإن حوى أموالاً عظيمة ـ فليس يكون أفضل من الضعيف الحكيم العالم الخبير، وإن كان فقيراً.

بل إنما يكون بكثرة الأموال أغنى منه، فأما في الفضل فليس يكون أحد أفضل من أحد إلاَّ بكثرة الفضائل فقط.

فإن اجتمع للإنسان، مع أخلاقه الجميلة والعادات المستحسنة ـ الغنى والثروة، فلعمري أنه يكون أحسن حالاً من الفاضل المقتر، لأنه من سعادات الإنسان أيضاً ـ وخاصة إذا كان فاضلاً، عادلاً، عفيفاً، وأنه يصرف ماله في وجوهه، وينفقه في حقوقه، ويتفقد به من يجب تفقده، ويسعف به أهل المسكنة، ولا يقعد عما يجب فإن فارق صاحبهوسقطت منزلة صاحبه من نفوس الناس، وساوى العامة والسوقة لأنه إذا كان رأس المال المعظم له هو ماله: لا نفسه، فإذا زال ذلك المال، لم يبقَ له شيء يعظم من أجله.

وليس كذلك الفاضل النفس، المهذب الأخلاق، فإن هذا رئاسته بفضائله، وفضائله غير مفارقة له، فهو رئيس ما دام ومعظم لذاته لا لشيء من خارج، ولأن الراغب في سياسة نفسه، المؤثر تهذيب أخلاقه، إذا نبّه على خلق مذموم يجده في نفسه، وأحب اجتنابه، ربما صعب الانتقال عنه من أول وهلة، وربما لم ينل التخلص منه، ولم يطاوعه طبعه، وربما استحسن أيضاً خلقاً محموداً لا يجده لنفسه، وأثر التخلق به، ولم تستجب له عادته، ولم يصل إلى مراده، فوجب أن نرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرقاً يتدربون بها، ويتدرجون فيها، حتى ينتهوا إلى مرادهم من اعتياد الأخلاق الجميلة، والانطباع بها، وتجنب الأخلاق القبيحة والتفرغ منها فنذكر من أجل ذلك:

في طريق الارتياض بالأخلاق والتعمل لاعتيادها

وقد ذكرنا فيما تقدم: أن سبب اختلاف الأخلاق في الناس، هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم، وهي: الشهوانيّة، والغضبية، والناطقة.

وإن ملاك الأخلاق، هو تذليل الشهوانية منها، والغضبية، وتمييز عادات النفس الناطقة، واستعمال المحمود من أفعالها.

وطريق التدريج لاستعمال العادات الجميلة، والعدول عن العادات المستقبحة، هو التدرج في تذليل هاتين القوتين.

* * *

أما النفس الشهوانية فالطريق إلى قمعها أن يتذكر الإنسان في وقت شهواته، وعند شدة القدوم إلى لذاته، أنه يريد تذليل نفسه الشهوانية، فيعدل عما تاقت نفسه إليه من الشهوة الردية إلى ما هو مستحسن، من جنس تلك الشهوة، متفق على ارتضائه، فيقتصر عليه.

فإن بذلك الفعل تنكسر شهوته ثم يعللها ويعدها، فإن سكنت، وإلاّ عاود الفعل من الوجه المستحسن، فإنه إذا فعل ذلك وتكرر فعله، كفت النفس، وإن استمر على هذه الحالة ألفت النفس هذه العادة، وأنست بها، واستوحشت مما سواها.

وينبغي ـ لمن أراد قمع نفسه الشهوانية ـ أن يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنساك وأهل الورع والواعظين، ويكرم مجالسة الرؤساء وأهل العلم، فإن الرؤساء ـ وخاصة رؤساء الدين ـ يعظمون من كان معروفاً بالعفة ويستزرون من كان فاجراً متهتكاً[١].

وملازمته لهذه المجالس تضطره إلى التصون، والتعفف، والتجمل لأولئك لئلا يستزروه ويغضوا منه، وليلق برتبة من يعظم في المحافل.

وينبغي له أيضاً أن يديم النظر في كتب الأخلاق والسياسة، وأخبار الزهّاد والرهبان، والنسّاك، وأهل الورع، ويجب عليه أن يتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء، والمتهتكين، ومن يكثر الهزل واللعب.

وأكثر ما يجب عليه: تجنب السكر، فإن السكر من الشراب يثير نفسه الشهوانية، ويقويها، ويحملها على التهتك وارتكاب الفواحش، والمجاهرة بها، وبذلك إن الإنسان إنما يرتدع عن القبائح بالعقل والتمييز؛ وإذا سكر عدم ذلك الذي كان يردعه عن الفعل القبيح، فلا يبالي أن يرتكب كل ما كان يتجنبه في صحوه.

فأولى الأسباب لمن طلب العفة هجر الشراب بالجملة، وإن لم يمكنه، فليقتصر على اليسير منه[٢] ويكون في الخلوات، أو مع من لا يحتشمه، ويتجنب مجالس المجاهرين بالشراب والسكر، والخلاعة، ولا يظن أنه إن حضر تلك المجالس، واقتصر على اليسير من الشراب: لم يستضر به، فإن هذا غلط.

---

(١) متهتكاً: لا يبالي أن يهتك سِتْرُهُ أي يكشف. والاسم الهتك وهو خرق السّتر عما وراءه.

(٢) يعلمه الشيخ كيفية ترك الشراب لمن كان مأسوراً به ومدعياً أنه مبتلىً به ولا يستطيع تركه وكان ضعيف الإرادة قليل الإيمان وأما إذا كان قوي الإرادة والإيمان فإنه يجتنبه بمجرد معرفته لحكم الله تعالى فيه وهو التحريم.

وذلك أن من حضر مجالس الشراب، ليس تنقاد له نفسه إلى القناعة بيسير الشراب، بل إن حضر مجالس الشراب، وكان في غاية العفة، تاركاً للشراب، متمسكاً بالورع، حملته شهوته على التشبه بأهل المجلس، وتاقت نفسه إلى الفعل لما هو أكثر من ذلك، وتهتك بعد الستر والصيانة.

فسيمة أحوال من طلب العفة: عدم حضور مجالس الشراب ومخالطة أهلها والاستكثار من معاشرتهم.

وينبغي لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يقل من استماع السماع، وخاصة النسوان والشابات منهن، المتصنعات، فإن للسماع قوة عظيمة في إثارة الشهوة، فإذا انضاف إلى ذلك: أن تكون المسمعة مشتهاة متعلمة لاستمالة العيون إليها: اجتمع على السماع حوادث كثيرة، فربما لم يستطع دفع جميعها عن نفسه، والأولى لمن هم بقهر الشهوة: أن يتجنب السماع، وإن لم يكن منه بد، ولم تستجب نفسه إلى هجره بالكلية، فليقتصر على استماعه من الرجال، ومن لا مطمع للشهوة فيه، والإقلال منه خير وأصون للمتعفف.

فأما الطعام، فينبغي أن يعلم أن غايته هو: الشبع، لدفع ألم الجوع، فخير الطعام وردية جميعاً مشبعان، فليس للمبالغة في تجويد الطعام كبير حظ.

والأولى هو التوسط في أنواع المآكل، وأن يكون في الجنس الذي نشأ عليه الإنسان، واعتاده وألفه، على أن شهوة الطعام والنهم فيه، وإن كان من الأخلاق الرديئة فهو أسهلها وأهونها، وليس يكسب صاحبها من العار ما يكسبه محبة الشراب والمباضعة، ومعاشرة النسوان ومصاحبة الأحداث، المتهيئين للفواحش، فإن ذلك في غاية القبح، وشهوة المآكل أقل قبحاً منه، وأخف على فاعله، وهو مع ذلك قبيح، والاستهتار به وكثرة النهم والشره إليه مكروه، وطريق التدرج إلى الاقتصاد في الطعام، هو: أن يبادر ذو الشهوة إلى أي شيء وجده من المأكل، فإن كان المشتهي الذي تاقت نفسه إليه حلواً فإلى أي حلاوة وجدها، وإن كان غير ذلك، فإلى ما يشابهه في الطعم فإنه إذا تناول من الطعام ما يشبهه ذلك المشتهي في الطعم، فإن شهوته تسكن، ونفسه تكف.

وينبغي لمن أحب العفة أن يكون أبداً متيقظاً، ذاكراً لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار، ويجعل ذلك ديدنه وشعاره، فإن نفسه تبغض الشهوات، وتشتاق إلى التعفف والقناعة، وتطرب عند العدول عن الفواحش، مع

القدرة عليها، وترتاح لما ينشر عنها، ويبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها.

فهذا الذي ذكرنا هو: طريق رياضة النفس الشهوانية، وتذليلها وقمعها، وهو طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية، فيما يتعلق بالشهوات واللذات.

فأما النفس الغضبية فإن الطريق في قمعها وتذليلها هو: أن يصرف الإنسان همته إلى أن يتفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب في أوقات طيشهم وحِدَّتهم وتسفههم على خصومهم، وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم، فإنه يشاهد منهم منظراً شنيعاً، يأنف منه الخاص والعام، فإن تذكر ما شاهد في أوقات غضبه، وعند جنابات خدمه وعبيده، وعند ذنوب إخوانه وأودائه، وفي جميع محاوراته ومعاملاته، فإنه إذا تذكر ما كان استقبحه من السفهاء، انكسرت بذلك سورة[1] غضبه، وأحجم عَمَّا هَمَّ بالإقدام عليه من السب والوثوب، فإن لم يكف بالكلية أقصر، ولو أنه غاية الفحش.

وينبغي لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية، أن يذكر أوقات غضبه على من يؤذيه، أو يجني عليه، أنه لو كان هو الجاني: ما الذي كان يستحق على جنايته؟

فإنه بهذا الفعل يعتقد أن درك تلك الجناية، أو أرش[2] ذلك الأذى: يسير جداً.

فإذا اعتقد ذلك، كانت مقابلته للجاني، والمؤذي، بحسب اعتقاده، فلا يسرف في الانتقام، ولا يفحش في الغضب.

فإذا فعل ذلك دائماً، وجعله ديدناً، وتفقد معائب السفهاء، ومن يسرع إليه الغضب، لم يبعد أن تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد، فإذا استمر على ذلك مدة: صار خلقاً وعادة.

وينبغي لمن يرغب في تذليل نفسه الغضبية أن يتجنب حمل السلاح، وحضور مواضع الحروب، ومقامات الفتن، ومجالسة الأشرار، ومعاشرة السفهاء، ومخالطة الشرط، فإن هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظة، وتعدمه الرأفة والرحمة، فتقسو لذلك نفسه الغضبية.

---

(١) سَوْرَة الخمر وغيرها: حِدَّتُها، وسورة السلطان: سطوته واعتداؤه، والسَّوْرة في الرأس: تناول الشراب.

(٢) الأرش: دية الجراحات. والأرش من الجراحات: ما ليس له قدر معلوم. والأرش المشروع في الحكومات: هو الذي يأخذه المشتري من البائع إذا اطلع على عيب في المبيع.

فإذا كان يريد تذليلها وتسكينها، وجب أن يجعل مجالسته لأهل العلم، وذوي الوقار، والشيوخ، والرؤساء، والأفاضل، ومن يقل غضبه، ويكثر حلمه ووقاره.

وينبغي له أيضاً: أن يتجنب المسكر من الشراب، فإن السكر يهيج النفس الغضبية أكثر مما يهيج الشهوانية، وبذلك ربما يسرع إلى العربدة، والوثوب على جلسائه، والاستخفاف بهم وسبهم، وذكر أعراضهم، بعد أن كان يتحنن عليهم، ويتودد إليهم.

ولا يكون بين الوقتين إلاَّ بمقدار ما يستحكم عليه السكر، فالسكر مثير للقوة الغضبية، ومقولها، فمن أراد أن تسكن نفسه الغضبية، فلا بد أن يتجنب المسكر.

وإن تمكن من هجران الشراب البتة، فهو أصلح لقهر النفس الغضبية والشهوانية - جميعاً.

وينبغي لمن أراد تذليل قوته الغضبية والشهوانية أن يستعمل في جميع ما يفعله الفكر، ولا يقدم على الشيء إلاَّ بعد أن يتروى فيه، ويجعل الفكرة واتباع الرأي ديدنه وعادته، فإن الرأي وجودة الفكر، يقبحان له السفه وسرعة الغضب، والانهماك في الشهوات، واتباع اللذات، فإذا استقبح ذلك أحجم عنه، وعدل إلى ما يقتضيه الرأي والفكر، وإن لم يرتدع بالكلية، فلا بد أن يؤثر ذلك فيه، فيقتصر عما يريد الشروع فيه.

وملاك الأمر في «تهذيب الأخلاق» وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هي تقوية النفس الناطقة فإن بهذه النفس تكون جميع السياسات.

وهذه النفس إذا قويت متمكنة من صاحبها أمكنه أن يسوس بها قوتيه الباقيتين، ويكف نفسه عن جميع القبائح، ويتبع أبداً مكارم الأخلاق، وإذا لم تكن هذه النفس قوية في صاحبها، وكانت مقهورة خافتة، فأول ما ينبغي أن يعتمده في سياسة أخلاقه أن يروض هذه ويقويها، وتقوية هذه النفس إنما يكون بالعلوم العقلية، فإنه إذا نظر في العلوم العقلية ودقق النظر فيها ودرس كتب الأخلاق والسياسة، وداوم عليها تيقظت نفسه، وتنبهت، وانتعشت من خمولها، وأحست بفضائلها، وأنفت من رذائلها، وذلك أن هذه إنما تضعف وتخفت إذا عدمت الفضائل والمناقب، واستولت عليها الرذائل، فإذا اقتنت الفضائل، واكتسبت الآداب، تيقظت من غشيتها، وثارت من سكرتها، وقويت بعد ضعفها.

وفضائل هذه النفس هي: العلوم العقلية، وخاصة ما دقّ منها، فإذا ارتاض الإنسان بالعلوم العقلية شرفت نفسه، وعظمت همته، وقويت فكرته، وتمكن من نفسه، وتملك أخلاقه، وقدر على إصلاحها، وانقاد له طبعه، وسهل عليه تهذيبه، وأذعنت له القوة الغضبية والشهوانية، وهان عليه قمعها وتذليلها.

فأول ما ينبغي أن يبتدىء به من يحب سياسة أخلاقه: النظر في كتب الأخلاق، والسياسة، ثم الارتياض بعلوم الحقائق، فإن أشرف ما تكون النفس إذا أدركت حقائق الأمور، وأشرفت على هيئات الموجودات.

وإذا شرفت نفس الإنسان وعلت همته: ترقى إلى مراتب أهل الفضل.

ومما يصلح النفس الناطقة ويقويها أيضاً: مجالسة أهل العلم، ومخالطتهم، والاقتداء بأخلاقهم وعاداتهم، وخاصة أصحاب علوم الحقائق، والمتيقظين منهم، المستعملين في جميع أمورهم ما تقتضيه علومهم، وتوحيه عقولهم.

فأما تمييز عادات النفس الناطقة، واستعمال ما حسن منها وإطراح ما قبح، فذلك إنما يمكن ويسهل أيضاً إذا راض نفسه الناطقة فإن النفس الناطقة إذا ارتاضت بالعلوم الحقيقية، وتيقظت، وشرفت، أنفت من العادات المستقبحة وتنزهت عن التدنس بها، فيهون حينئذ على صاحبها تجنب ما يكره من عاداتها، ويتغلب عليه استحسان الأخلاق الجميلة، والتخلق بها، وقد تبين من جميع ما ذكرنا: طريق الارتياض بالأخلاق المحمودة: المرضي منها، والتصنع لاعتيادها، واتباع المحمود المرضي منها، واجتناب المذموم والمستقبح.

وتذليل قوة الشهوة الغضبية، وضبطها وقهرها هو: إصلاح النفس الناطقة وتقويتها، وتحليتها بالفضائل والآداب والمحاسن، فإن ذلك هو آلة السياسة، ومركب الرياضة، ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية والإمعان فيها، أو تعذر عليه ذلك، فليبذل جهده في تدقيق الفكر، ومجاهدة النفس، وتمييز ما بين عاداته القبيحة والجميلة، وينظر أيها أجدى عليه، وأيها أنفع له، وأيها أحمد عاقبة وأبقى على الأيام، فإنه إذا صدق نفسه، وجد شهواته ولذاته إنما هي ملذة وقت استعمالها فقط، فأما بعد مفارقتها، فليست باقية عليه، ولا نافعة له ويجد عارها وشينها باقياً على الدهر، متداولاً بين الناس يعاب به ويزري عليه بقبحه.

وكذلك شدة الغضب، والتسرع إلى الانتقام والسب، والفحش، فإنه إذا انجلت غمرته، وسكنت سورته، وتأمل أمر ما فعله: وجده قبيحاً، ولم يجده مجدياً ولا مفيداً.

وقد صار ما فعله عند الغضب نقيصة يوسم بها، ومعرة يسب بها.

وربما ارتكب في الغضب جنايات، يعاقب عليها، ويؤدب من أجلها.

وكذلك العادات المكروهة من عادات النفس الناطقة أيضاً يجدها غير نافعة ولا مجدية.

وذلك أن: الحسد، والحقد، والخبث، وأمثال هذه: لا ينتفع بها صاحبها، وإن انتفع بالخبث والشر، فشر منفعة.

ومع ذلك هو: ضار له، فإن من تشرر: قصده الناس واستعدوا لأذيته وتصدُّوا للإضرار به، وتوقوه، واحترزوا منه، وكرهوا نفعه، وقصروا وجوه الخير عنه، واجتهدوا في ذلك.

وما أسوأ حال من هذه صفته، فمستعمل الشر والخبث سيئي الحال، يضره شره أكثر مما ينفعه.

فإذا حاسب الإنسان نفسه، وأجال فكره، وتمييزه: علم أن الضرر في مساوىء الأخلاق أكثر من النفع، وأن الذي يعده منها نفعاً ليس هو بنفع على الحقيقة، وهو يسير جداً غير باق، ولا مستمر.

فإن هذا اليسير الذي يعده نفعاً لا يفي بالضرر الكثير، والعار الدائم المتصل.

ويعلم أيضاً أن: الشر والخبيث يجلبان عليه الشر، ويوحشان منه الناس.

فإذا أدام ذلك، وأكثر منه، قوي في نفسه اتباع محاسن الأخلاق، وسهل عليه اطراح مساوئها ومقابحها، وغلب عليه الخير والسداد، وفرغ من العيب والعار.

فإذا فعل ذلك دائماً: لم يلبث أن يصلح أخلاقه، ويحسن طريقته، ويهذب شمائله، ويلحق برتبة أهل الفضل، ويتميز عن أهل الدنس والنقص.

وينبغي لمن أراد سياسة أخلاقه، أن يجعل غرضه من كل فضيلة: غايتها ونهايتها، ولا يقنع منها بما دون الغاية، ولا يرضى إلاَّ بأعلى درجة، فإنه إذا جعل ذلك غرضه، كان حرياً أن يتوسط في الفضائل، ويبلغ منها رتبة مرضية؛ إن فاتته الدرجة العالية.

فأما إن قنع بالتوسط: لم يأمن أن يقصر عن بلوغه، فيبقى في أدون المراتب، ويفوته المطلوب، فلا يطمع أبداً في التمام.

فهذا الذي ذكرنا، هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق، ومنهج التدرج في محمود العادات.

فإذا أخذ الإنسان نفسه به، وأكثر مراعاته، وتعهده، صار له أمر الفضائل ديدناً، والمحاسن له خلقاً وطبعاً.

وقد بقي علينا أن نذكر:

في أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وطريقته التي بها يصل إلى التمام

فنقول: الإنسان التام، هو الذي لم تفته فضيلة، ولم تشته رذيلة، وهذا الحد قلّما ينتهي إليه إنسان.

وإذا انتهى الإنسان إلى هذا الحد، كان بالملائكة أشبه منه بالناس.

فإن الإنسان مضروب بأنواع النقص، مستولٍ عليه وعلى طبعه ضروب الشر، فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة، ويحيط بكل فضيلة ومنقبة.

إلاّ أن التمام ـ وإن كان عزيزاً بعيد التناول ـ فإنه ممكن، وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان، ونهاية ما هو منتهٍ له.

وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقه كان قميناً[1] بأن ينتهي إلى غايته التي هي منتهى له، ويصل إلى بغيته التي تسمو نفسه إليها.

فأما تفصيل أوصاف الإنسان التام، فهو: أن يكون متفقداً لجميع أخلاقه، متيقظاً لجميع معايبه، متحرزاً من دخول كل نقص عليه، مستعملاً لكل فضيلة، مجتهداً في بلوغ الغاية، عاشقاً لصورة الكمال، ملتذاً بمحاسن الأخلاق، متيقظاً لمذموم العادات، معتنياً بتهذيب نفسه، غير مستكثر ما يقتنيه من الفضائل، مستعظماً لليسير من الرذائل، مستصغراً للرتبة العليا، مستحقراً للغاية القصوى، يرى التمام دون محله، والكمال أقل أوصافه.

فأما الطريقة التي توصله إلى التمام، وتحفظ عليه الكمال فهي: أن يصرف عنايته إلى النظر في العلوم الحقيقية، ويجعل غرضه الإحاطة بماهيات الأمور

---

(١) قمين: حَرِيّ. والقمين السريع والقريب. وقمن وقمين: خليق وجدير.

الموجودة، وكشف عللها وأسبابها، وتفقد غاياتها، ولا يقف عند غاية من علمه إلاّ ورنا[١] بطرفه إلى ما فوق تلك الغاية، ويجعل شعاره ـ ليله ونهاره ـ قراءة كتب الأخلاق، وتصفح كتب السير، والسياسات، وأخذ نفسه باستعمال ما أمر أهل الفضل باستعماله، وأشار المتقدمون من الحكماء باعتياده، وينشد أيضاً طرفاً من أدب البيان والبلاغة، ويتحلّى بشيء من الفصاحة، والخطابة، ويغشى أبداً مجالس أهل العلم والحكمة، ويعاشر دائماً أهل الوقار والعفة.

هذا إن كان رعية وسوقه.

فإن كان ملكاً ورئيساً، فينبغي أن يجعل جلساءه ومناديه وغاشته والمطيفين به، كل من كان معروفاً بالخير والسداد، موصوفاً بالأدب والوقار، مخصصاً بالعلم والحكمة، محققاً بالفهم والفطنة، ويقرب مجالس أهل العلم، وينشطهم، ويكثر مجالستهم والأنس بهم، ويجعل تفرجه وتفكهه مذاكرتهم في العلم وفنونه، وسياسة الملك ورسومه، وأخبار الحكماء وأخلاقهم، وسير الملوك الأخيار وعاداتهم.

وينبغي للإنسان التام، ولمن طلب طريقته التي بها يصل إلى التمام: أن يجعل لشهواته ولذاته قانوناً راتباً، يقصد فيه الاعتدال، ويجتنب السرف والإفراط، ويعتمد من الشهوات واللذات المعتمدة له: ما كان من الوجوه المرتضاة المستحسنة، ويأخذ نفسه بذلك، ويحض عنها الطبع، ويهجر أصحاب اللذات ومعاشرتهم، وينقبض عن الخلفاء ومخالطتهم، ويشعر نفسه أن الشهوة عدو مكاشح[٢]، وخصم مكافح، يريد أبداً ضرره وأذيته، ويعتمد شينه وفضيحته، فيناصب شهوته بالعداوة، ويكاشفها بالمعاندة، ويقمع أبداً سورتها، ويكسر دائماً حدتها، ويقهر سطوتها، ويذلل ـ على التدريج ـ عزتها، ويسكن ـ على الترتيب ـ فورتها.

فإنه إذا فعل ذلك: كان خليقاً أن يملك نفسه، وتنقاد له شهوته، وتنطبع بالعفة، وتألف حسن السيرة.

ومتى أرخى لشهوته عنانها، وسمح لها في مرادها، وأهمل سياستها ومراعاتها، واستطالت وشمخت، ولم تلبث أن توهن صاحبها، وتقوده، وتحمله على ما يسوؤه، ويعرّه[٣] فيصير بذلك بعيداً من التمام، غير طامع في الكمال.

---

(١) رنا إليه: كجعل: نظر. والرُّنُوُّ: إدامة النظر مع سكون الطرف. ورنا له: أدام النظر.

(٢) الكاشح: المتولي عنك بوده: الذي يضمر لك العداوة، ويقال طوى فلان كشحه إذا قطعك وعاداك.

(٣) عَرّه: ساءه، وعرّه بشر: لَطَخَه به. وعَرّه بشرّ: ظلمه وسبّه وأخذ ماله، فهو معرور.

وينبغي لمن يطلب التمام، أن يعلم أنه لا سبيل له إلى بلوغ غرضه ما دامت اللذة عنده مستحسنة، والشهوة مستحبة، وهذه الحال صعبة جداً، متعسرة على طالبها، بعيدة المأخذ، وهي على الملوك والرؤساء أصعب وأبعد، لأن الملوك والرؤساء أقدر على اللذات، وأشد تمكناً، والشهوات واللذات لديهم معروضة، ولهم سجية وعادة، فمفارقتها عليهم متعذرة، وإعراضهم عنها كالشيء الممتنع، خاصة لمن قد نشأ على الانهماك فيها، والتوفر عليها.

إلاَّ أن الملوك ـ وإن كانوا أقدر على اللذات وأكثر اعتياداً لها ـ فهم أعظم هماً، وأعز نفوساً، والمحصل منهم إذا سمت نفسه إلى التمام الإنساني، واشتاقت إلى الرئاسة الحقيقية، علم أن الملك أحق أن يكون أتم أهل زمانه، وأفضل أعوانه ورعيته، فيهون عليه مفارقة الشهوات، وهجر اللذات الدنية.

وينبغي لمن رغب في سياسة أخلاقه، وسلك طريق الاعتدال في الشهوات، أن يجعل لها قانوناً يقتصر عليه في المآكل والمشارب، مقروناً بالكرم، وهو أن لا يستبد بالمأكل والمشرب وحده، بل يقصد أن يشرك في ما له من ذلك إخوانه وأوداءه، إن كان رعية وسوقة.

وإن كان ملكاً رئيساً فيجمع عليه حاشيته وندماءه، ويعم به أصحابه وأعوانه، ويتفقد بفضلاته أهل الفقر والمسكنة، وخصاة من سبقت له معرفة به، أو تقدمت له خدمة، فيصرف إلى حاجاتهم من عنايته، فإن اعتداد هؤلاء بما يصل إليهم من بره، أكثر من اعتداد حاشيته وأصحابه، وليظهر لمن يجتمع على مائدته، وعلى طعامه وشرابه، من إخوانه وأصدقائه، ورعيته وندمائه ـ وإن كان ملكاً ـ أن جمعه لهم للأنس بهم، والسرور بمعاشرتهم، لا ليكرمهم بطعامه وشرابه، ولا أن لذلك قدراً يعتد به.

ويحترز ـ كل الاحتراز ـ من أن يبدو منه امتنان بالطعام والشراب، أو تبجح به، فإن ذلك يزري بفاعله، ويغض منه، ويوحش من يغشاه، ويقطعهم عنه.

وقد يستحسن من الإنسان أيضاً ـ إذا كان مقلاً ـ أن يواسي بطعامه إخوانه، وإن كان محتاجاً إليه، ويستحسن منه أيضاً أن يواسي به الفقراء والضعفاء، وقد يستحسن منه أيضاً أكثر من ذلك، بأن يؤثر الإنسان بطعامه وشرابه غيره، وإن كان شديد الاضطرار إليه، وكان لا يقدر على غيره.

وينبغي أيضاً لمن طلب السياسة التامة: أن يستهين بالمال ويحتقره وينظر إليه بالعين التي يستحقها.

فإن المال: إنما يراد لغيره، وليس هو مطلوباً لذاته، فإنه في نفسه غير نافع، وإنما الانتفاع بالأغراض التي تنال به.

فالمال آلة تنال بها الأغراض، فلا يجب أن يعتقد أن اقتناءه وإدخاره مفيد، فإذا أدخر وحرص عليه: لم ينل صاحبه شيئاً من الأغراض التي هو بالحقيقة محتاج إليها.

فالمال هو مطلوب لغيره، فينبغي للسديد الرأي، العالي الهمة، أن يزنه بوزنه، فيكسبه من وجهه، ويفرقه في وجهه، ويكون مع ذلك، غير متوان في اكتسابه، ولا مقدم في طلبه، لأن عدم المال يضطره إلى التواضع لمن هو دونه، إذا وجد عنده حاجته، ووجود المال يغنيه عن: من هو فوقه، وإن دنت منزلته.

ويكون ـ أيضاً ـ غير مدخره ولا متمسك به، بل يصرفه في حاجاته، وينفقه في مهماته، ويقصد الاعتدال في تفريقه، ويحذر من السرف والتبذير في تخريجه، ولا يمنع حقاً يجب عليه، ولا يصرفه في شيء لا يحب ولا يشكر عليه.

وإذا فرغ من حاجته، واستكفى من نفقاته، وسد خلله عاد إلى النظر في أمره، فإن كان بقي من ماله بقية فاضلة عن مهم أغراضه: أخرج منها قسطاً، فجعله عنده يستظهر به لشدة، ويعده لنائبة، ثم عمد إلى الباقي وفرقه في ذوي الحاجة، من أهله، وأقاربه، وإخوانه، وأهل مودته، وجعل فيه قسطاً للضعفاء والمساكين، وأهل الفاقة المستورين، وجعل اهتمامه بإفضاله وبره: أكثر من اهتمامه بضروراته، فإن الضرورات تقوده كرهاً إليها، وأكثر النوافل متى لم يهم بها ويشعر نفسه ألزامها: لم يسهل عليه فعلها، لأن ضعف النفس وسوء الظن يصرفانه عنها، وإن لم يكن له جاذب من نفسه، وداع قوي من همته، لم يقدم عليها، وغلب عليه التواني، فإذا توانى عن البر والفضل: كان شحيحاً دنياً، وليس بتام.

بل ليس بالحقيقة إنساناً من لم يكن له بر يعرف، ولم تنتشر له أفعال توصف.

هذا إن كان من أوساط الناس.

فأما الملوك والرؤساء، فإنهم أحق بهذه السياسة، ويجب أن يكونوا بذلك أشد عناية، فيجبوا الأموال من حقها وواجبها، ويصرفوا منها في نفقاتهم ومؤناتهم، وأرزاق جندهم، وأصحابهم تدر الكفاية، من غير سرف ولا تقتير، ويعدوا منها شطراً لخوف عاقبة، ويصرفوا الباقي في طريق الكرم والجود، ووجوه الخير والبر، فيعطوا أهل العلم على طبقاتهم، ويجعلوا لهم رواتب من خواص أموالهم، ويدفعوا لمن هو مثابر على العلم والأدب، ويبروا الضعفاء والمساكين، ويتفقدوا الغرباء، ويهتموا بالزهّاد وأهل النسك، ويخصوهم بقسط من إفضالهم وإنعامهم، ويعتنوا بالصغير والكبير، وينفقوا في مصالحهم شطراً من أموالهم، فإن الملوك أولى بالكرم من الرعية، وأحق بالجود من العامة.

وقد يستحسن أيضاً من المملقين[١] والمقترين: المواساة بالمال والإيثار به، وإن كانوا محتاجين إليه، وكلما كانت حاجتهم أشد، كان ذلك الفعل حسناً، وهذه الحال مستحسنة، إذا رأى الرجل أخاً من إخوانه، أو صديقاً يختص به، وقد دعته الحاجة إلى ما لا يقدر عليه لإصلاح شيء من شأنه، أو لدفع محنة نزلت به، وكان هو قادراً على ذلك القدر من المال، فيبتدي بإسعافه، عفواً من غير مسألة.

وإن فعل هذا الفعل مع الغريب الذي لا يعرفه، ولم تسبق له حرمة ولا مودة، كان جميلاً مستحسناً.

وينبغي لمحب الكمال: أن يشعر نفسه أن الغضبان بمنزلة البهائم والسباع: يفعل ما يفعله من غير علم، ولا روية.

فإذا جرى بينه وبين غيره محاورة: أدّت إلى أن يغضب خصمه ويتسفه عليه اعتقد فيه أنه في تلك الحالة بمنزلة البهائم والسباع، فيمسك عن مقابلته، ويحجم عن الاقتصاص منه، ألا يعلم أن الكلب لو نبح عليه، لم يكن يستحسن مقابلته على نبحه؟ وكذلك البهيمة لو رمحته، لم يستحسن عقوبتها؟ لأنها غير عالمة بما تصنعه، إلاّ أن يكون جاهلاً، فإن من السفهاء من يغضب على البهيمة إذا رمحته، ويوجعها ضرباً إذا آذته، وربما عثر السفيه فشتم موضع عثرته، ورفسه برجله.

فأما الحليم الوقور، فلا يستحسن شيئاً من ذلك، وإذا استشعر في خصمه أنه بمنزلة البهائم: صار هذا الاستشعار منه طريقاً إلى ضبط النفس الغضبية، وزمها وأن أذاه مؤذٍ بغير سفه. فيؤدي ذلك الأذى إلى حال يغضبه، أنف أيضاً من الغضب، مع استشعاره أن الغضبان والبهيمة سواء، فيعدل حينئذ إلى مقابلة مؤذية بما يقتضيه الرأي، من حيث لا يظهر فيه غضب ولا سفه.

وينبغي لمحب الكمال أيضاً أن يعوّد نفسه محبة الناس أجمع، والتودد إليهم، والتحنن عليهم، والرأفة والرحمة بهم، فإن الناس قبيل واحد، متناسبون، تجمعهم الإنسانية، وحلية القوة الإلهية هي في جميعهم، وفي كل واحد منهم، وهي النفس العاقلة، وبهذه النفس صار الإنسان إنساناً، وهي أشرف جزئي الإنسان: الذين هما: النفس والجسد، والإنسان بالحقيقة هو: النفس العاقلة، وهي جوهر واحد في جميع الناس، وكلهم بالحقيقة شيء واحد، والأشخاص كثيرون.

---

(١) يقال: أملق الرجل من المال أي فقير منه، والإملاق الإنفاق، يقال: أملق ما معه إملاقاً. والإملاق: كثرة إنفاق المال وتبذيره حتى يورث حاجة. وقيل: المملق: الذي لا شيء له.

وإذا كانت نفوسهم واحدة، والمودة إنما تكون بالنفس، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين، وذلك في الناس طبيعة، لو لم تقدهم النفس الغضبية، فإن هذه النفس تحبّب لصاحبها الترأس، فتقود صاحبها إلى الكبر والإعجاب والتسلط على المتضعف، واستحقار الصغير، وحسد الغني وذي الفضل، فتنشأ من أهل هذه الأسباب: العداوات، وتتأكد البغضاء بينهم، فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية، وانقاد لنفسه العاقلة صار الناس كلهم له أحباباً، وإخواناً.

وإذا أعمل الإنسان فكره: رأى ذلك واجباً، لأن الناس إما أن يكونوا فضلاء، أو نقصاء.

فالفضلاء تجب عليه محبتهم لموضع فضلهم، والنقصاء تجب عليه رحمتهم لموضع نقصهم.

فيحق لمحب الكمال: أن يكون محباً لجميع الناس، متحنناً عليهم رؤوفاً بهم، وخاصة الملك والرئيس، فإن الملك ليس يكون ملكاً ما لم يكن محباً لرعيته، رؤوفاً بهم، وذلك أن الملك ورعيته بمنزلة رب الدار، وأهل داره، وما أقبح رب الدار أن يبغض أهل داره، ولا يتحنن عليهم ويحب مصالحهم.

وينبغي لمحب الكمال أن يجعل همته فعل الخير مع جميع الناس، وإنفاق ما يفضل من ماله فيما يبقى له الذكر الجميل بعد موته، ويتحرز من فعل الشر، فإنه إذا حاسب نفسه؛ علم أن من فعل الشر فإنه يفعله لخير لا يعتقد أنه يصل إليه، وربما كان غالطاً.

وإذا علم أن الأمر على هذه الصفة كان واجباً عليه أن يطلب الخير الذي يرومه من طريق غير طريق التشرر، إذا كان هو الغرض المطلوب: لا فعل الشر.

فأما إن كان تشرره يلحقه أسفاً وغيظاً، فليعلم أنه إذا سكن غيظه، وجد ذلك المقصود بالشر: غير مستحق لذلك الفعل، ففعل الشر قبيح، وخاصة بمن قد جمع الفضائل.

إلاّ أن يكون ذلك الشر تأديباً على جرم، واقتصاصاً من جانٍ، فإن هذه الحال مستحبة محمودة، بل لا يعد شراً، لأن ذلك الشر إنما يصل إلى الجاني فقط، ويكون منه نفع عام لجميع الناس، بأن يرتدع أمثاله من الجناة، وتكون المنفعة فيه أكثر، من أجل ذلك لا يعد شراً.

وإذا اعتمد الإنسان فعل الخير، وألفه، وتجنب الشر، واستوحش منه: لأنف من الأخلاق المكروهة، التي تعد شراً كالحسد، والحقد، والخبث، والخديعة، والنميمة والعيبة، والواقعية، وأمثال هذه العادات.

وإذا فكر العاقل المحصل فيها: علم أنها غير مجدية عليه نفعاً، وهي مع ذل تشينه وتقبح صورته.

وإذا كان محباً للتمام، مستشرفاً للكمال، كان واجباً عليه تجنب هذه الأخلاق.

وينبغي لمحب الكمال: أن يعتقد أنه ليس شيء من العيوب والقبائح خافياً عن الناس، وإن اجتهد صاحبها في سترها، فلا يطمع نفسه في ارتكاب فعل قبيح يظن أنه ينكتم عن الناس، حتى لا يقف عليه أحد.

ويجب أن يعلم أن الناس بالطبع موكلون بتتبع عيوب الناس: وتعييرهم بها، وذلك في الناس غريزة، والسبب فيه أن الإنسان ما لم يبلغ التمام، فليس يخلو من تقصير يعاب به، ويسوؤه أن يكون غيره أفضل منه، فهو يسر أن يكون الناس كلهم نقصاء، ليساووه في النقص، ويخلوا دونه، فهو أبداً يتتبع معايب الناس، ويعيرهم بها، ليرى الناس أنه أفضل ممن فيه ذلك العيب، ويشعر نفسه أيضاً ذلك، لتطيب بما فيها من العيوب.

فليس شيء من العيوب بخاف عن الناس، وإن اعتمد ستره.

وقد يظن كثير من الملوك والرؤساء: أن عيوبهم مستورة عن الناس، غير بادية، وذلك لموضع هيبتهم، وعظم سطوتهم، يستشعرون أن حاشيتهم وخواصهم لا يجسرون على إظهار أسرارهم إن وقفوا على شيء منها، وهذا نهاية الغلط، لأن خواص الملك وحاشيته، كما أنهم عنده ثقاة أمناء، كذلك لكل واحد منهم خاص وثقة يخرج إليه بأسراره، والذي لا يستر أسرار نفسه، فمحال أن يستر أسراره غيره.

وهذا الحال: طريقة إلى انتشار معايب الملوك، الذين يظنون أنها مستورة.

والعلة في ظنهم أنها مستورة هو: أنهم لا يسمعون أحداً يذكرها، ولا أحداً يتنصح إليهم بها، فيظنون أنها خفية.

فإذا أحبّ الإنسان أن يعلم أن عيوبه غير خافية، فليعد إلى نفسه، ولينظر: هل يعرف لأحد عيباً كان يستره ويخفيه، فإنه يجد للناس عنده عيوباً كثيرة قد اجتهدوا في سترها، وحرصوا على صونها.

ومنهم من يظن أنها خفية.

ومنهم من يعلم: أنها قد انتشرت بعد الستر.

فإذا علم أنه عارف بأسرار كثير من الناس كانت مستورة، فمن الواجب أن يعتقد أن عيبه غير خاف، ولا مُنْكَتِم، وأن الناس يعرفون من عيوبه أكثر مما يعرف من عيوبهم.

فينبغي لمحب الكمال: أن يعتقد أن عيوبه ظاهرة، وإن اجتهد في إخفائها، وليس بتام من عرف له عيب، ولا طريق إلى التمام إلاَّ باجتناب العيوب بالكلية، والتمسك بالفضائل في سائر الأمور.

وهذه الرتبة غاية تمام الإنسانية، ونهاية الفضيلة البشرية، وواجب على كل إنسان: الاجتهاد في بلوغها، واستفراغ الوسع في الوصول إليها، لأن التمام مطلوب لذاته، والنقص مكروه لعينه.

وأحق الناس بطلب هذه الرتبة، وأولاهم بالتحمل لبلوغ هذه المنزلة: الملوك والرؤساء، وأشراف الناس، وأعظمهم قدراً.

وما أقبح بالشريف العظيم أن يكون ناقصاً.

فالملوك إذاً ينبغي أن يكون أشد الناس حرصاً على بلوغ الكمال، لأن الكامل من الناس، الجامع للفضائل: مترتب بالطبع على الناقص من الناس.

فالإنسان التام: رئيس بالطبع.

وإذا كان الملك تاماً جامعاً لمحاسن الأخلاق، محيطاً بجميع المناقب، كان ملكاً بالطبع.

وإذا كان ناقصاً كان ملكاً بالقهر.

وما أولى بالملك: أن يرغب في الرئاسة الحقيقية التي لا تكون بالقهر والشرف الذاتي، لا ما هو بالوضع.

فالواجب: أن يصرف الملك همته إلى اكتساب الفضائل، واقتناء المحاسن، ويطلب الغاية في المكارم، ويستصغر الكبير منها، حتى يحوز جميعها، ولا يرضى بالنهاية، حتى يزيد عليها.

فإنه إن رضي برتبة فوقها رتبة لم يصل أبداً إلى التمام.

وإن أبعد الناس من التمام: من رضي لنفسه بالنقصان.

فإذا طلب الملك الكمال، فأول ما يجب أن يعتاد: عظم الهمة، فإن عظم الهمة يصغر في عينه كل رذيلة، ويحسن له كل فضيلة.

وإذا عظمت همة الملك سلم من الإعجاب بملكه، ورأى نفسه وهمته: أعظم قدراً من أن يستكبر ذلك الملك.

وإذا احتقر الملك ملكه الذي به عزه وعظمته، طلب لنفسه ما يعظمها بالحقيقة، وليس يعظم النفس إلاَّ الفضائل.

ثم: ينبغي له أن يكره الملق، ويبغض المتملقين وينهاهم عن تلقيه به.

وملاك أمره: أن يتعرف عيوبه حتى يمكنه توقيها والتحرز منها، وهذا في الملوك صعب، لأن الإنسان بالطبع يخفى عليه كثير من عيوبه.

فالذي يخفى على الملوك أكثر لإعجابهم بمحاسنهم، وعظم مرتبتهم.

وأيضاً فإن الرعية والسوقة، يبكتون[1] بعيوبهم، ويعيرون بها، فهم يعرفونها.

والملوك: لا يجسر أحد على تبكيتهم، فلا يقدم أحد على تبكيتهم على عيوبهم، لأن الناس أجمع: يقصدون التقرب إلى الملوك بملقهم، فلا يقولون لهم إلاَّ ما يحبون، لينالوا الحظوة عندهم.

فعيوب الملوك أبداً خفية عنهم.

وينبغي للملك إذا أحبّ أن يتنزه من العيوب، ويتطهر من دنسها: أن يتقدم إلى خواصه وثقاته، ومن كان يسكن إلى عقله وفطنته من خدمه وحاشيته، فيأمرهم أن يتفقدوا عيوبه، ونقائصه، ويطلعوه عليها، ويعلموه بها.

وينبغي له أيضاً: أن يتلقى من يهدي إليه شيئاً من عيوبه بالبشر والقبول، ويظهر له الفرح والسرور بما أطلعه عليه.

بل المستحسن منه: أن يجيز الذي يوافقه على عيوبه أكثر مما يجيز المادح له على نقصه، ويتحمل لومته على فعله، فإنه إذا لزم هذه الطريقة، وعرف بها: أسرع أصحابه وخواصه إلى تنبيهه على عيوبه، وإذا نبه على ما فيه من النقص: أنف منه،

---

(١) بكت: بكَتَهُ يَبْكُتُهُ بكْتاً، وبَكَّتَه: ضربه بالسيف والعصا ونحوهما. والتَّبكيت: كالتقريع والتَّعنيف.

واستشعر أولاً أن سيعيرونه به، ويصغرونه من أجله، ويلزمه حينئذ أن يأخذ نفسه بالتنزه من العيوب، ويقهرها على التخلص من دنسها، فإذا فعل ذلك، وتوفر على اقتناء الفضائل، وألزم نفسه التخلص بالمحاسن، ولم يرض من منقبة إلاّ بغايتها، ولم يقف واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً ويبقى له الذكر الجميل آجلاً، لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام، ويرتقي إلى النهاية من الكمال، فيحوز السعادة والإنسانية والرئاسة الحقيقية، ويبقى له حسن الثناء مؤبداً وجميل الذكر مخلداً.

* * *

فقد أتينا على صفة الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق والطريق التي تؤديه إلى هذه الرتبة، وتحفظ عليه هذه المنزلة.

وقدّمنا: ما يجب تقديمه من «سياسة الأخلاق وتهذيب النفوس»: فما أولى من نظر في هذا القول وتصفحه، وفهم مضمونه وتدبره: أن يأخذ نفسه باستعمال ما بين فصوله، ويسوس أخلاقه مما يتطرق إلى الذي قنن في تضاعيفه، ويجتهد كل الاجتهاد في تكميل نفسه، ويستغرق غاية الوسع في طلب تمامه، فما أقبح النقص بالقادر على التمام، والعجز من المستعد لنيل الكمال.

وهذا حين نختم القول بـ «تهذيب الأخلاق».

والحمد لله.

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه.

مراتب علوم الوهب

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن العربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ يسر برحمتك
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

قال نفع الله الكافة ببركاته:

الحمد لله منقّح الفهوم، وفاتح مغالق العلوم عن السرّ المكتوم، المنزل في المقام القديم إلى حضرة التعليم بالقدر المعلوم، والقدر المحتوم، فهو الرزق المقسوم، بلسان التفهيم، على قوالب الجسوم، وهياكل الرسوم مساقط النجوم.

فمنها الخالص العميم، ومنها الممزوج بالتسنيم، ومنها ما يصلح للنديم، ومنها ما يودع في الضروع للوليّ الحميم، والنبي الكريم، ومنها ما تحمله النّحل للنظير والقسيم.

أحمده حمد من آمن به وصلّى، وسبق ما صلّى فهو العرش العظيم، والصلاة على المنعوت بالرؤوف الرحيم، والرسول العلاّم الحكيم، والسلام الطيب المبارك الجسيم وعلى آله في الخصوص والعموم.

اعلم

أيها السالك بالهمّة العليا، ومزاحم الروحانيات العُلَى أن العلوم وإن كثُرت أصنافها بحسب معلوماتها فهي ترجع إلى ضربين:

علوم تنتج.

وعلوم لا تنتج.

* فالعلم الذي ينتج أصلاً فهو العلم بالذات المقدسة، التي تجل وتتعاظم عن الإدراك، بشبكة الأفكار، وشرك العقول والاعتبار. علمنا بها علم عين عليه رداءُ صون لا يتمثل فينقال، بل هو التنزيه على الإطلاق. لا يتنزه بالسلوب كما لا يتعين

بالإضافات، حجابه الألوهية المدركة بالدلائل العقلية، والبراهين الوضعية، فهذا هو الريح العقيم، لا يدل على غير لعدم المناسبة من كل وجه، فهو الواحد بكل معنى. ليس له وجوه، ولا يترتب عليه أحكام، فأحرى أن تقوم به صفة، أو يجري عليه لسان غيب.

* وأمّا العلوم التي تنتج فعلوم الأدلّة. تنتج مدلولاتها. وتلك المدلولات أدلّة يُتَوصّل بها إلى مدلولات أُخر. هكذا صاعداً إلى العلم بالإله من كونه إلهاً، لا من كونه ذاتاً، فيصير هذا العلم أيضاً دليلاً على العلم بأسرار الكون، التي لا تستقل العقول بإدراكها، وربما لا تخطر على فكرها، وإن لم تزل عن أحكامها، وإنها من قبيل الإمكان. ولكن لا ينتج هذا العلم الإلهي شيئاً، ولا يكون دليلاً أبداً حتى يكون للعالم به لساناً، وسمعاً، وبصراً، ويداً، ورجلاً، ومعنى، ورسماً، فيكون العالم به كأنه هو وما هو هو. ومهما لم يتحقق العبد بهذا المقام، فأنّى له بدرك الحقائق. والعوائق موانع، والعلائق دوافع. فنسأل الله أن يجعل لنا كل عائقة دليلاً، وكل علاقة برهاناً. ولا يقطعها عنّا قبل معرفتنا بوجه الحق منها، فنكون من الجاهلين.

والطريق إلى هذه الحالة ملازمة نوافل الخيرات مطلقاً كما قال تعالى في الخبر الصحيح، باللسان المترجم الفصيح:

«ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...»[1] **الحديث بكماله.**

هذا ما تُعطيه محبة النوافل المبنيَّة على عبودية الاختيار. فانظر مع هذا الحجاب ما أنتج له من الأسرار، وما تجلّى له من خالص الأنوار، فكيف ما تعطيه محبة الفرائض وعبودية الاضطرار. هم أهل السُّبُحات المحرقة، والمقامات المحققة، هم عكس المقام الأول، وفي صورتهم يكون التنزل، فهم سمع الحق الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي يتكلم به، فيهم يسمع، وبهم يبصر، وبهم يبطش إلى غير ذلك، هذا لسان الخصوص، كما هو لسان العموم في حقه، فيهم يمطر، وبهم يرزق، وبهم ينصر. فهذا مدرك الإيمان وذلك مدرك العيان، فلا أمر يتردد بين

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب من جاهد نفسه في طاعة الله، حديث رقم (٦١٣٥) [ج٥ ص٢٣٨٤]، وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله تعالى...، حديث رقم (٣٤٧) [ج٢ ص٥٨] ورواه غيرهما.

الردا والمرتدى فيظهر هذا بصورة هذا ويظهر هذا بصورة هذا دوراً مقدساً مُنَزَّهاً حقيقة في مقامها لا تختل ولا ينحلُّ نظامها. لكن ليست بالغاية فإنها نتائج التكليف. والغاية لا تُنال بالسعايات، وقد تقدم ذكرها، فهذه علوم الإنتاج.

وهي تنقسم إلى أقسام جاءت بها الأمثلة القرآنية، والتشبيهات الفرقانية بلسان النور، فتقررت في الصدور المشروحة، والقلوب المفتّحة أبوابها، فإذا نزلت هذه العلوم في الصورة المائية. فإذا كان الماء خالصاً فهو العلم العقيم.

وإن كان ممتزجاً أو خالصاً بعد المزج بما طرأ عليه التردد في أطوار الاستحالات فإنه ينتج. فإن كان من الخالص بعد المزج؛ فإنه العلم بالإعادة والنشأة الآخرة، وتمييز طبقات ذلك العالم، كل طبقة على انفرادها مخلصة من المزج والتداخل. فلا يظهر الكافر في صورة المؤمن ولا المؤمن في صورة الكافر، ولا السعيد في صورة الشقي، ولا الشقي في صورة السعيد، ولا الكلب في صورة الإنسان ولا الإنسان في صورة الكلب. بل الكلب كلباً، والإنسان إنساناً ويزول حكم الأوصاف العرضية وتبقى الصفات الذاتية اللازمة متميزة، لا تمتزج بعد بأمرٍ، ولا تظهر في صورة عرضية أبداً، بل يتردد في ذاتها بين لوازمها منها إليها بما عليها في ذاته إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً أبدالاً بدين لا يتناهى أمدها ولا ينقضي، أبدها نعيم محقق وعذاب مطلق، ولا تلتبس الصور على ناظرها ولا يحجب أولها بآخرها. قد ظهرت في العين فلا تبدّل ولا تحويل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزَاب: ٦٢] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [فَاطِر: ٤٣].

وإن كان من الماء الممزوج بمياه الأنهار والعيون بعد التخليص، فإنه يعطيك العلم بتنزل المعاني الروحانية، المنشأة من القوالب الجسمانية، وهي اللطائف الإنسانية والحيوانية، والملائكة المخلوقون من الأنفاس، فستعرف مراتب هذه الأرواح المدبرة لهذه الأجسام، وكيفية تعلقها بتدبيره، والنظر إليها وكيفية قبضها عنها، وأنه ليس قبضاً كليًا. فإنه لا يصح أن يكون قبضاً كلياً، فإنه نتيجته. فالرابط يمنع من القبض الكلّي، ولهذا تكون الإعادة فيها المُعبَّر عنها بالحشر والنشر بذلك الأمر الرابط ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفُرقان: ٤٥].

تسوية إلهية ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ [الفُرقان: ٤٥].

نفخة روحانية ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ۝٤٦﴾ [الفُرقان: ٤٦].

ولم يقل كلياً، ولا يصح فيه القبض الكلي، كما ذكرناه. فإن نشأته تعطي ذلك. فلا بدّ من ظل الأم السُفلية. فهو النور من حيث أبيه. وهو الظل من حيث أمّه. فهو الممزوج في ذاته تخليصه عرضي، فلا يثبت إنما هي لوائح، وهجوم، وحالات فناء عن هذه الجسوم، ثم يرجع العود على البدء، ويخرج المخبوء من الخبء، وقد يقبضه قبضاً أقل من ذلك، وهو قبض النوم، فينزهه في عالمه. وهو أوائل الوحي النبوي بها بدىء رسول الله ﷺ، وبها كان أمر الذبح من إبراهيم الخليل صلوات الله عليه.

والقبض الأعظم هو قبض الفناء المطلق. فيفنى عن ذاته، فيفنى عن ظِلّه. فيتحقق بالحق للحق في الحق لكنه في ذاته على ظله من حيث ذاته، لا من حيث مشهده فلا يقيم إلاّ قليلاً، ويسرع بالرجعة إلى قصره، وقسره. فبذلك الضرب من العلم المتنزل في صورة المزج إذا شربه حصل له معرفة هذا النوع من الوجود.

فإن كان من الماء المنبعث من الأرض، كالعيون، وشربه فحظُّه من صور العلوم علم الطبيعة وكيفيتها، ولماذا ترجع؟ وهل هي حقيقة في نفسها غير معلولة لعلة، أو هي معلولة لعلة معلولة؟ وأين مرتبتها؟ وما سبب ظهورها؟ وهل يتقيّد أول ظهورها بالزمان أم لا؟.

إن ثبت أن لظهورها أوّلية، قد ثبت عندنا ظهور الأولية، وحدوثها وحدوث كل ما سوى الله، ومعرفتها عندنا من أعز العلوم والمعارف فإنها من علوم مبادىء الكون. ومن شرب هذا الماء يعرف لماذا تعلق الكون والفساد للكون بدار الدنيا، ولم يتعلق بالدار الأخرى مع وجودها فيه. وما النوع من الفساد الذي يتعلق بالدار الأخرى في عالم كونها عند أكلك مطعوماتها واستحالتها عرقاً طيّباً يخرج من الأبدان، وما السبب الموجب لطيب العرق في الجنّة، وخبثه في أهل النار، ومزجه هنا فيظهر الخبيث على السعيد، والطيب على الشقي، وذلك لاختصاص المزاج. فإذا طلب السعيد هناك الحامل للخبيث هنا. فتعرف أن عين ذلك المزاج ليس هناك ولكنه مزاج آخر. وقد يكون عَرَضيًا لأخلاطٍ فاسدة تتولد وتزول بزوالها. فيرجع المزاج الخبيث على الطيب هنا إلى الخبيث هناك فتكون فيه إعادته، ويرجع المزج الطيّب هنا على الخبيث هنا إلى الطيب هناك. ويبقى المزج الخبيث هنا في الخبيث هنا عليه هناك، وكذلك الطيب. لكن يزيد هذا خبثاً، وهذا طيباً من أجل ما يقتضيه موطن الجنّة، وموطن النار. فإنها على تركيب مخصوص يعطي طبعاً مخصوصاً. فبمثل هذا الضرب من العلوم يتعلق شارب مثل هذا الماء في عالم التمثّل عند المعراج الروحاني.

وإن كان المشروب لبناً. فإنها علوم الفطرة، ولهذا هو أول ما يشق معيّ المرضعات، فيعلم علوم الرسوم والأحكام المشروعة ومن أين صدرت؟ وما حضرتها؟ وإلى أين ترجع؟.

ومن هذا العلم تقف كشفاً واطلاعاً على مقامات الرسل، واختلاف الشرائع في الأحكام واجتماعها في الأصول، وإن الدين واحد، وإن اختلفت أوضاعه ولغاته باختلاف الأعصار والأماكن، وما يثمر في النفوس استعماله في عالم النفوس والأجسام، وما يثمر الإيمان وإن لم يستعمل وما يثمر الكفر به، وردُّه، وما يثمر جحده بعد المعرفة. وهل تنزلت الشرائع بما تقتضيها الحقائق. وهل تنزلت بالحقيقة والمجاز ولما جاءت بصورة مما تُوطىء عليه من الخطاب والألفاظ، وهل لها أن تضع لساناً آخر في العالم أم لا؟.

وهل تحتاج الرسالة، إذا كانت عامة لجميع الناس كافة، إلى معرفة جميع اللغات، أو تحتاج إلى رسول بلسان قوم ليسوا من صنفه فيحتاج أن يكون رسول الرسول معصوماً كالرسول. ولا بدّ فيما يُبَلِّغ. ثم إذا عرف الرسول جميع اللغات هل من ضرورته أن يتكلم بها مع أهلها أو يسترها عنهم ويخاطبه الترجمان، فتندفع النفوس بين يديه بما هي عليه. ولا تتقيد فيظهر الرسول ما تخفيه صدورهم على ألسنتهم وهم لا يشعرون، ويعرف من هذا الشرب استخراج العلوم الكسبية بالمجاهدات والأعمال والرياضات، وما تستقل العلوم بإدراكه منها. وما لا تستقل بإدراكه، مما هو موقوف على الذوق، والكشف، والوهب، ولا سبيل إلى قبول النفس له إلاّ من هذا الطريق، ويعلم بشرب هذا النوع تنزُّل الروحانيات الأمناء بها على قلوب الأنبياء، وعلى ظواهرهم في الصور الحسية، ويعرف كونها مفيدة بصورة مخصوصة لأيّة حكمة تقيدت تلك الروحانية بتلك الصورة لهذا الرسول في الحس كصورة جبريل في «دحية الكلبي» الذي كان أجهل أهل زمانه وأحسنهم صورة. فكان جبريل ينزل عليه فيها إشعاراً من الحق سبحانه إلى محمد ﷺ وإعلاماً له أنه ما بيني وبينك يا محمد إلاّ صورة الحُسْن والجمال، وهي التي لك عندي، فتكون بُشْرى له حسًّا ولا سيّما إن أتى بأمور الوعيد والزجر، فتكون تلك الصورة تسكّن منه ومن جأشه ما يحركه قهر ذلك التنزل فتعرف هذا العلم كله، وما القدر الذي يتنزّل من ذلك على قلوب الأولياء الذين لم يرسلوا وأين يجتمع الرسول والوليّ، ومعرفة مرتبته هناك ﷺ. وتميزها عن مرتبة غيره من المشاركين له في البساط. فهو الولي الكامل، والعارف المحقق والمقرب المتمكن، وإن أرسل إلى الأكوان فهو من حيث رسالته مقرب باللسان والنيابة والحجابة من حيث ولايته، ومعرفته بالذات والحقيقة.

فالمكلفون يشهدون التقريب بحقائق الإيمان إذا آمنوا، ولو جحدوا ونحن نشهد التقريب بحقائق العيان ولو نزل إلى الأكوان فمرتبته معينة مميزة فتعرفه بها في كل موطن فتعظيمه في نفوسنا أشد تعظيم.

انظر لمن آنس هذا منه ﷺ حين قال: «**آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر**»[1] فقطع بإيمانهم لتحققهم عنده بأنهم من أهل العيان له هناك، وأمثال هذه العلوم تنتجها ألبان الضروع.

وأمّا إن كان المشروب عسلاً. فإنه يعطيه معرفة الشرائع الحكمية والرهبانية المبتدعة، وما يقتضيه دورات هذه الأفلاك وتسيير هذه السيارة وترحّلها وحركات منازلها من الأوضاع الإلهية والأسرار الحكمية التي أودع الله تعالى في هذه الحركات واستشراف بعض النفوس عليها الفاصلة إذا تسدد نظرهم، وعصمت أفكارهم، وارتقوا عن حضيض الخيال إلى أوج المعاني العقلية والأمور الروحانية السماوية مجردة عن موادها غير ملتفتة إلى أجسادها فتعرف هذه النفوس وجوهها على التجريد، ثم تطّلع على دقائقها الخفية التي بها يقع المدُّ لهذا العالم الكوني، فتميز الرقائق. ثم تنزل عليها بعيون بصائرها إلى هذا العالم فتعرف المكان والمزاج والوضع. فتلقي من الأحكام في العالم على ما يعطيه القبول لا غير. فإنها ليست مؤيدة بالفيض الإلهيّ فتقصر عن تلك القوة فيكون إلقاءَ نسبياً تقبله النفوس بالنسبة الرابطة بخلاف الشرع الحكمي المؤيد بالأمور الإلهية. فيقيم المعجزات ويخاطب القاصي، والدّاني. والبعيد والقريب. ويشرع من الأحكام ما يخالف، أكثر الأغراض، وما تجهل حكمته، وما لا تستقل العقول بإدراك معناه. وبهذا يتميز عن الشرع الحكمي، والرهبانية المبتدعة، ولكن قدم رعاها الشارع وأبان عنها الحق، وذمّ من شرعها ولم يزعها وهذا تقرير عجيب لها، ومن هذا الشرب تكون علوم الإلهام الواضحة البيان، وتظهر على النفوس آثار محرقة، يُعَبِّر بها عندنا بالاصطلام. وهو الوله الغالب على القلب.

وأمّا إن كان المشروب خمْراً فإنه يعطي علوم الأحوال العجيبة، وهو كان مشروب العلاج بحمد الله. وهو دون الرتبة من هذه المراتب، ومن هذا الشرب يعلم ضروب التجليات، وما تعطيه من الآثار في النفوس الإنسانية وغيره. ولصاحبها

---

(١) رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء، ترجمة القشيري، [ج١٨ ص٢٢٧]. وفي معجم المحدثين، حرف الكاف، [ج١ ص١٩٩]. وابن عبد البر في الاستيعاب بمعرفة الأصحاب، باب من اسمه منهم عبد الله،[ج٢ ص٨٠]. والرازي في تفسيره، سورة الكهف آية ٩ [ج٢١ ص٤٤١].

جولان في عالم التركيب، بعلم التصريف والتسخير، وتكون له قوة الكشف مستصحبة، يعرف مواقع التقدير فيبادر إليها، وإن كانت مخالفة لما هو عليه طريق الترقي فلا يحجب بإتيانها، والوقوع فيها، فإنه وقع عن بصيرة، وهذا هو سر السريرة فإذا امتزج بعض هذه المشروبات ببعض فإنه يعطي من العلوم ما يعطيه المشروبان، وما يعطيه المزج فإنه يعطي ذوقاً آخر يعرفه شاربه، ولولا ضيق الوقت، وطلب الإيجاز وما مهدناه مما يستدل به على ما تركناه لذكرنا ذلك مفصَّلاً.

وهذه علوم الوهب مسرودة، كما شاهدناها بعدما أقمنا الصلوات، ورمينا الجمار، ونحرنا القربان، وربح الأحباب، وخسر الأعداء، الذين هم على قلوب الذئاب. وانقطعت آثارهم عن العالم العلويّ والمشهد السني، فهم أعداء هذه الطريقة والمحجوبون عن عالم الحقيقة.

وللربوبية على أصحاب هذه المشارب سلطان في أوقات سلوكهم، ولها إليهم نظر في حين معارجهم. فإذا وصلوا إليها ونزلوا عليها أكرمت مثواهم ورفعتهم على نُجب العناية إلى حضرة الإنيّة المحققة، وهي التي تهبهم هذه المشروبات. فالمعطي واحد، والمعطى مختلف. والمعطى له على حقيقة مخصوصة فيشرب شراباً مخصوصاً على قدره، فيعرف من ذلك على قدر معلوم فهو الرزق المقسوم في أصل النشأة وبدء الخلقة. جعلنا الله وإياكم مِمّن سلك فوصل، ونزل، وشرب، وعصم من سكر الأحوال، والتحق بالرجال، إنه المليّ بذلك والقادر عليه، انتهى المقدّر من هذا المنزل من الفتوحات المكية والحمد لله رب العالمين وصلاته على محمد وآله أجمعين.

[كتب من أصل مقابل على أصل قُرىء على المؤلف، رضي الله عنه، وقوبل عليه فصحّ بقدر الطاقة، والحمد لله وحده][1].

(١) هذه العبارة التي بين مزدوجين من كلام الناسخ كما هو واضح.

رسالة اللمعة

الموسومة بـ "كشف الغطا عن إخوان الصفا"

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد
ابن العربي الحاتمي
المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهم أعذنا من غرك إليك وأعذْنا للمثول بين يديك

واجعلنا ممن تعقَّل حقيقة جمالك وتوغل في تقصِّيه كمالك، وصلى الله على الأئمة الأنبياء، والقادة الأتقياء، وخصص محمداً وآله بأسنى صلواتك وأزكى تحياتك.

وبعد

فإن هذه اللمعة موسومة بكشف (الغطا لإخوان الصفا)، أبرزتها الرحمة الإلهية الأزلية، لترقي أرباب النظر والبرهان إلى رتبة أصحاب العبر والعيان، جمع الله تعالى إخوان التجريد، في مقعد الصدق عند الصمد الحق عزّ شأنه، وبهيّ برهانه.

فصـل

المعلول: صورة العلة وظاهرها.

والعلة: حقيقة المعلول وباطنه.

لأن المعلول من حيث هو ممكن الوجود، وليس له إلاّ قبول الوجود، فإذا أوجده العلة فجميع ما يشاهد منه من الكمالات هو أوصاف العِلّة.

وكمالاته: تجلّى في مظهر ماهية المعلول على قدر ما كان قابلاً له، فإذا نظر إلى المعلول من لا يعلم أنه معلول لغيره، أو يعلم ولم يتفطن لكونه معلولاً حال النظر إليه. نسب كمالاته المشاهدة إلى المعلول. ومن تفطن لمعلوليته ونظر إليه حال التفطن يشاهد كمال العلة على الحقيقة. وكان ماهية المعلول من حيث صور المثل هي المرآة المصقولة، فإنه ليس للمرآة سوى استعداد حكاية صورة المحاذي، وكمال العلم بهذا الشخص المحاذي للمرآة.

فمن نظر في المرآة، وغفل عن كونها خالية عن جميع الصور، من حيث ذاتها نسب الصور المرئية فيها إلى كونها صور المرآة.

ومن علم حال المرآة، وخلوّها في ذاتها عن الصور، نسبها لا محالة إلى شخص خارج عن المرآة. فاجعل جميع الممكنات وما يرى فيها من الكمالات المحسوسة والمعنوية صوراً لمرايا. بل اجعل جميعها مرآة واحدة لتصير من أهل المشاهدة.

فصـل

ثم ارقَ إلى رتبة أعلى من هذه. وهي:

بأن تنتبه لأن مُدْرَكَكَ غير خارج عن ذاتك، لأن المدرَك محاط بالمدرِك من حيث أنه مُدْرَك. والمدرِك محيط بالمدرَك من حيث أنه مدرِك. ولا شك أن هذه الإحاطة إحاطة علمية والعلم غير منفك عن ذات العالم.

فجميع معلوماتك محاطاً بذاتك محيط به. فإذا كل ما أدركته فهو في ذاتك ظرفية معنوية. فإن ذاتك من عالم المعاني. فلا بد من كونها محيطة بشيء أن يكون

لها إحاطة معنوية، فإذا انكشف لك هذا المقام رأيت نفسك محيطة بجميع معلوماتك، وكل ما حضر لك فتصير نفسك المرآة المذكورة.

وهذه مشاهدة أخص من المشاهدة الأولى. فإن كنت تشاهد الموجود الحقيقي قبل هذا في غيرك فالآن تشاهده في ذاتك. وبين الرتبتين مسافة فادحة[١] وبون بعيد.

فصـل

ثم فوق هذه المنزلة رتبة أخرى أعلى منها وهي:

بأن تتفطن لإمكان ذاتك، وكونها غير موجودة من حيث هي هي فترفعها من البين فتدرك الأشياء كلها من حيث هي تجليات الحضرة الأحدية فتغفل عن ذاتك من حيث هي هي محل لرؤية الأشياء فيها بل ترى كلها منسوبة من حيث القيام إلى المطلوب الحقيقي، فتبقى أنت مشاهداً للتجليات فقط، فترى الأشياء كلها قائمة بالحق تعالى وتقدس، وترى نفسك متبجحة بمشاهدتها، وإذ تعلم أنها حالات للحق تعالى، فيتأكد المشاهدة غاية التأكيد فيتضح المطلوب وضوحاً يبهر البصيرة.

فصـل

ثم إذا أمعنت النظر في هذا المقام، وجدتك غير خارج عن المقام الذي فارقته، وذلك لأنك كنت تجد الأشياء في ذاتك من حيث أنك كنت تدركها، ولهذا النظر كنت تجدها في ذاتك.

وأمّا الآن فقد قطعت نظرك عن ذاتك من حيث هي محل للأشياء وكون الأشياء قائمة بها، ولكنك في مقام تثبت فيه كونك مدركاً للأشياء فيفيد كونك محلاً لها، وقد بان لك استحالته، فإذاً كونك مدركاً لها يلزمه المحال فيكون محالاً، فيتفصل في هذا المقام عن كونك مدركاً للأشياء، فيظهر لك أن المدرك في الحقيقة هو الحق تعالى والله أعلم بالصواب.

تمت الرسالة بعون الله تعالى، والحمد لله وحده،
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) أمر فادح إذا عال الإنسان وبهظه وأثقله. والفدح إثقال الأمر والحمل صاحبه.

رسالة في أسرار الذات الإلهية

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن العربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلّم إلى يوم الدين.

وبعد

فإن حقيقة الذات الإلهية من حيث هي هي امتدادها. أعني: مدة بقائها غير مضبوطة. لأنها من حيث هي كذلك. لا وصف لها، ولا اسم ولا رسم. فهي في عماء، كما جاء في الحديث[1]. إذ لا يمكن معرفتها بوجه من الوجوه ما لم تتعين بصفة.

وأول التعينات علمها بذاتها. فهذه الصفة تَنزُّلها من الحضرة الأحدية التي لا نعت لها، إلى الحضرة الواحدية التي هي حضرة الأسماء والصفات، وتسمى الحضرة الإلهية وهذه الحضرة أثبتت للحضرة الأولى أزلية الآزال بهذه النسبة الاعتبارية بين الذات الأحدية وصفاتها. إذ لا تعقل النسبة إلا بعد اعتبار الإثنينية. وسميت تلك النسبة السرمد، وتحققت بهذه النسبة أزلية الآزال أعني: تقدم الأحدية على الواحدية.

والواحدية هي الحضرة التي لأزليتها أول، وهي أزلية الآزال وذلك ابتداء السنة السرمدية. وقد اقتضت الحضرة الإلهية، بهذه النسبة، حقائق الأعيان بحكم العالمية فتحدث لها بحدوث الأعيان نسبٌ أُخَرْ، بين الحقيقة الأولى وتلك الأعيان.

---

(١) يشير إلى الحديث الشريف الذي رواه الترمذي في جامعه الصحيح، باب ومن سورة هود، حديث رقم (٣١٠٩) [ج٥ ص٢٨٨]. وابن ماجه في سننه، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم (١٨٢) [ج١ ص٦٤] وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الإخبار عما كان الله فيه قبل..، حديث رقم (٦١٤١) [ج١٤ ص٨]، ورواه غيرهم.

كقادريته على إيجادها، ومشيئته لها، والتكلم إيّاها بخطاب ﴿كُن﴾ [البَقَرَة: ١١٧] والسميعية لدعائها بطلب الإيجاد على الوجه الذي عينته المشيئة المسماة بالعناية الأولى البصيرية بشهودها على تلك الصفات المتباينة. والعالمية تحكم على الذات بالحياة فجعلت هذه السبع مع الذات أئمة الأسماء لأنها أسماء أولية متقدمة على سائرها.

وفي الحقيقة صفة العالمية، تقتضي أن الاسم «العالم» إمام الأئمة السبعة. لتحقيق تقدم العلم على الإرادة وسائرها سوى الحياة المصححة للعلم. لكن الحي وإن تقدم بالوجود لا يستحق الإمامة لتقدم العالم بالشرف. فإن الحياة لا تظهر إلا بالعلم والإدراك. فهي كالشرط والاستعدادية.

ولما كانت هذه الصفات السبع أموراً اعتبارية مقتضية لربوبية الرب المطلق لجميع الأشياء بواسطتها. وكانت أزليات هذه الأسماء متقدمة على أزلية الربوبية مطلقاً. فحضرة الربوبية متأخرة عن الحضرة الإلهية تأخرها عن حضرة الذات.

فأزلية الآزال هي الأولية المطلقة التي لا تعدد فيها.

وأزلية الإلهية متعددة بتعدد الأسماء.

والأسماء لا تحصر كثرتها. لكنها مع تناميها تنحصر في السبعة لأنها جزئياتها وفروعها المتشعبة منها. فلا تخرج عن إحاطتها. فلكل من السبعة حضرة من حضرات الأسماء فيها طائفة من هذه الأسماء الغير المتناهية.

فتحت كل اسم منها أسماء غير متناهية يتوسط بين الذات ومربوباتها في الربوبية بالأفعال. فحضرات الأسماء تنحصر في هذه السبعة، كلها سابقة على حضرة الربوبية.

والحضرة الربوبية هي التي: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩] فالامتداد الأول أي امتداد بقاء الأحدية من أزل الآزال إلى أبد الآباد. ليس فيه نسبة ولا قسمة، وهو عند اعتبار التعينات الوصفية ينفصل إلى الامتدادات الأسمائية. والأسمائية إلى الامتدادات الربوبية.

وتسمى الدهر، ونظيرها في الزمان امتداد الدور الفلكي. فإنه إذا اعتبرت الحركة الأولى وامتداد مقدارها الذي هو الزمان المطلق. مع قطع النظر عما تحتها لم يكن لها ابتداء ولا انتهاء، ولا قسمة.

فإذا اعتبرت محاذاة الشمس لنقطة منها. أيّ نقطة كانت ابتدأت السنة، التي كل دورة فيها وصول الشمس إلى تلك النقطة بحركتها التي تحتها نقطع بها أجزاء فلك البروج. وينفصل الامتداد بها إلى السنين، وتنفصل السنّة باعتبار قطعها للبروج إلى

الشهور. والشهور باعتبار وصولها إلى النقطة الأولى بالحركة اليومية إلى الأيام. والأيام إلى الساعات. والساعات إلى الدقائق، والدقائق إلى الثواني، ثم إلى الثوالث حتى الآن. وهو في الزمان منزل النقطة الهندسية من الخط، ويُفسّر بالزمان الحاضر، وهو أقصر من الزمان، وهو الذي لا ينقسم من غاية الصّغر إلاّ في الوهم.

وقد تطلق الأيام على كل واحد من الأجزاء مجازاً باعتبار أنه حيّز محدود في الزمان. فأقصر الأيام هو الآن. وأطولها بحسب الزمان هو السنة.

ولا شك أن الأقل عاد فالأكثر عدا الواحد للأعداد والأكثر متعدد بالأقل.

تقدر المائة بالعشرات. وكما أن الساعات تقدر الأيام، والأيام الشهور، والشهور السنين، والسنون مطلق الزمان. فكذلك الزمان، الذي هو أقصر الامتدادات الأزلية، يقدر الباقون. أي الدهر والسرمد.

ولنرجع إلى المقصود فنقول: إن الله يقتضي الربوبية بأسمائه. والأسماء لدوام تأثيرها تقتضي وسائط في ربوبيتها لما في هذا العالم وهي الأثيريات. فاقتضى الأئمة الكواكب السبعة السيّارة مع أفلاكها، وجعلتها الرؤساء والسادة في تدبير أمور الدنيا. وسخرتها بأمر الله تعالى.

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [النحل: ١٢].

أي الأمر الواحد الإلهي في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ [القمر: ٥٠].

أي سخّرتها على التدابير الجارية في هذا العالم، التي هي الشؤون الإلهية في أيام الدنيا. كما أشار إليه في قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرّحمٰن: ٢٩].

ولما كانت أيّام الدهر أيام الربوبية الممتدة مرآتها أزلية الحضرة الإلهية. إلى أزلية الربوبية. ويمتد الربوبية إلى انتهاء التغيرات الزمانية. كانت أيام الدهر أطول من الزمانيات، التي هي امتدادات منحصرة في امتداد مقدار الحركة الأولى، أعني: الزمان، فيتقدر بالمقاييس الزمانية مقدراً بالعدد التام منها وهو الألف. فكل يوم منها ألف سنة. وهي أيام الربوبية، وأيام التدبير. كما أشار إليه في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

وهو يوم الرب المدبّر الذي وقّت به العذاب، وإنجاز الوعد. في قوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧].

والتدبير في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [السَّجدَة: ٥].

والسمٰوات سبع على مقتضى الأئمة السبعة كان مقدار الدنيا سبعة. من تلك الأيام أسبوعاً واحداً. لكل رئيس دور تام في الأدوار الزمانية. ومن هذا ينكشف من انشقاق القمر، وختم النبوة. فإن ظهوره ﷺ في اليوم الآخر الذي هو جمعه الأسبوع المذكور كظهور آدم عليه السلام في اليوم الأول. وسرُّ قيام الساعة بانقضاء اليوم السابع الذي نحن فيه. وسر تعظيم الجمعة في الشرع المحمدي. ولهذا قال ﷺ: «**إن استقامت فلها يوم. وإن لم تستقم فلها نصف يوم**».

وفي الحديث بشارة لنا بالاستقامة حيث جاوزنا النصف.

ولما كانت أيام الآخرة أيام الألوهية الممتدة من ابتداء أزلية الآزال إلى انتهاء الربوبيات الأسمائية كانت أطول من أيام الربوبية. فتقدر بالمقاييس التي هي أيام الربوبية.

والربوبية تحصل بأي اسم كان. وأمّا الألوهية فلا تتم إلا بالأئمة السبعة. فالربوبية في الحقيقة سُبْعُ الألوهية. فأيام الدنيا سُبْعُ أيام الآخرة. وهي الحاصلة من ضرب أيام الدنيا في عدد الأئمة السبعة. فيكون تسعة وأربعين ألف سنة. وينتهي الأمر فيها إلى الله العلي ذي المعارج الأسمائية العُلَى. وبانقضائها في اليوم التالي لهذه المدة من أيام الربوبية. ينتهي المعارج كلها إلى الفناء في الذات. فيتم الخمسون ويتحقق معنى قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعَارج: ٤].

فإن انقضاء التسعة والأربعين واحدة إنما تكون بالخمسين وهو يوم القيامة الكبرى. فاصبر صبراً جميلاً إن كنت من أهل هذه القيامة. وإذا كان طول هذا اليوم خمسين ألف سنة. كانت القيامة الصغرى أول موطن من مواطنها كما قال ﷺ: «**من مات فقد قامت قيامته**».

وقال ﷺ: «**القبر أول منزل من منازل الآخرة**».

والوسطى هي أوسط مواطنها. وفيه مواطن مختلفة، وأحوال لأهلها متباينة كموطن الجمع، وموطن الفصل، وموطن فيه: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمٰن: ٣٩] وموطن يقال فيه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصَّافات: ٢٤] وموطن فيه: ﴿تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، وآخر فيه: ﴿يَنطِقُونَ﴾ [المُرسَلات: ٣٥].

وإذا تحققت الحضرات الثلاث وامتداداتها تحقق معنى قول من قال: (أنا أقل من ربي بسنتين).

وإن من امتداد أول التعينات ابتدأت السنة، التي كل يوم منها ألف سنة. وكما أن كل أسبوع من هذه السنة سبعة آلاف سنة، وكل شهر ثلاثون ألف سنة، وكل سنة ثلاثمائة وستون ألف سنة. فكل أسبوع من السنة الأولى ثلاثمائة ألف وخمسون ألف سنة. وكل شهر ألف وخمسمائة ألف سنة.

وكل سنة ثمانية عشر ألف عام. وهي الأحقاب المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبإ: ٢٣].

ومن ترقى إلى الحضرة الواحدية خرج من أيام الربوبية إلى الأيام الإلهية في السنة السرمدية. ومن بلغ الحضرة الأحدية جعل تحت قدمه الأوقات العددية. وكان وقته واحداً. وكان عن كل رتبة صاعداً.

والله الباقي بعد الخلق. وذلك يوم الحق.

[تمّ المختصر بعون الله الوهّاب
والحمد لله وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم
سنة خمس وعشرون وثمانمائة أي سنة ٨٢٥هـ](١)

(١) ما بين معقوفتين هو من كلام الناسخ الذي انتهى من نسخ الكتاب سنة (٨٢٥هـ).

نسخة الحق

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن العربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

قال سيدنا وشيخنا وإمامنا الشيخ الإمام العالم المحدّث شيخ الطريقة وإمام التحقيق نسيج وحده وفريد دهره «محيي الدين أبي الفضائل أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن العربي الحاتمي الطائي» غفر الله له ونفعه:

الحمد لله الذي جعل الإنسان الكامل معلم الملك وأدار سبحاته تشريفاً وتنويهاً بأنفاسه الفلك. فما لك لا تشكر الله أيها الإنسان على ما خوّلك، وما لك لا تحمد الله وقد نزّلك آمراً بين سمائه وأرضه وبما فضلك ووضعك في أول نشئك ميزاناً في أرضه فما كان أعدلك. جمع لك سبحانه في خلقك بين يديه تمييزاً على سائر خلقه فسوّاك وأعدلك، وفي أحسن تقويم خلقك فكمّلك، وعلى الصورة الإلهية فطرك، وعلى ثمانيتها حملك، فأنزلك خليفة في الأرض الجامعة لأصناف المكلفين من معدن ونبات وحيوان وإنس وجن وملك. وخلع عليك خلع الأسماء كلها فجمّلك فما بقي ملك في السموات والأرض ممن قدح فيك إلاّ أسجده لك، وبرزت الحقيقة في أحسن زينة وقالت هيت لك. فأنكحتها بكراً صهباء في لُجّة عمياء نكاحاً لم يفنك عمّا به الحق وصّلك. فأدّيت الأمانة إلى أهلها فلم يَجُر عليك لسان ما أظلمك وما أجهلك.

وسبب ذلك كون عين شمسك ما دلّك وما استتر عنك من لم يزل معك، وإن نزّلك فغمرك النور الاعتصاميّ وشملك وتخلصت به من سلطان حنادس هذا الحلك، وخلصت به تدبيرك وعملك. إذ كنت المدبر لعالم الكون الذي إن صرفت وجهك عنه ساعة فُني وهلك. وصلى الله على من حكم بين الناس بالقسط، وما اتبع أهواءهم فكان أحسن خليفة ملك، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وعلى آله وسلّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعد

فإن الله تعالى لمَّا أوجد العالم أوجده على ثلاثة أنواع من الإيجاد.

ـ فنوعٌ أوجده بكُنْ لا غير، وهو أكثر العالم.

ـ ونوعٌ أوجده بكن واليد الواحدة كجنة عدن، والقلم، وكتبة التوراة وغير ذلك.

ـ ونوعٌ أوجده بكن وبديه. وهو الإنسان خاصة ولذلك خرج على الصورة كما قال عليه السلام: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[1].

فلما أبدع تركيب جسده من كل حقيقة في عالم الكون المركب، وحطت فيه قوى عالم الأفلاك والأركان، وليستعد لقبول الفيض الروحاني نفح فيه الروح فنطق بالثناء والحمد لله، ولكن بعدما انتشر فيه النور، وخرق مسالك ظلمته فعطس فحمد الله فقال الله: «**يرحمك ربُّك يا آدم لهذا خلقتك**».

فسبقت رحمته به غضبه. أي نتيجة الغضب بخروجه من الجوار الأدنى إلى الجوار الأقصى، من عالم الراحة إلى عالم المكابدة والمجاهدة والاستحالات الردية، وجمع له بين يديه تشريفاً وابتلاءً ولهذا قال تعالى تنبيهاً على التشريف: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

فأول مقام حصل فيه مقام الأعراف، ومنزل الوسط وقيل له:

مهما ملت إلى جانب ووفَّيته نقصت الآخر، ولا يصح لك المشي على حكم الوسط لأنك خلقت للإنتاج فرياحك لواقح فلا بد من الميل. فإن كنت فلا بد مسائلاً فهذا تبيين لك لأي الجانبين تميل. فأبرز له الأنوار على الجانب الأيسر، وأبرز له الظُّلَم على الجانب الأيمن. وقال في الأيمن:

هذا صراط ربك مستقيماً. فإن دخلت في هذه الظلم فستحصّل أقصى ما يكون من الأسرار والحكم. هذه الظلمة هي غيب الغيب وحضرة إلهية والجلال لا تسلك أبداً إلاَّ بنور السالك. فإن كان السالك ذا نور دخل ومشى قدر ما تعطيه قوته ثم

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب الوعيد الشديد لمن عذّب الناس بغير حق، حديث رقم (٢٦١٢) [ج٤ ص٢٠١٧] وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الزجر عن قول المرء لأخيه قبّح الله وجهك، حديث رقم (٥٧١٠) [ج١٣ ص١٨] ورواه غيرهما.

يرجع إلى موقفه، وقد حصل من المعارف المشهدية ما لا يعرفه إلاّ هو خاصة، وتنبعث من هذه الظلمة ريح شديدة تطفي سرح الأفكار فلا يدخل فيها ذو فكر أبداً.

ولذلك قال ﷺ: «**تفكّروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في ذاته**»(١).

وقد ذكرنا في غير ما موضع من كُتبنا، لما مُنع من التفكر في الذّات وكذلك كل ما لا يستقل العقل بإدراكه بهذه المثابة. ثم قيل للإنسان وهذه الأنوار على الجانب الأيسر أنوار الهداية يبصر بها طريق النجاة من طريق الهلاك، وهو قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: ١٠].

فإذا مشى الإنسان على يساره فإنه لا يمشي حتى لا يستقبله. فإذا استقبله رجعت الأنوار على يمينه فرأى انفهاقها من الجانب الأيمن، ويرتمي لها شعاع على الجانب الأيسر فتعاين ما بين الجانبين من التفاوت. وغاية كل جانب. فلتسلك الوسط هنا ولا بد. ولا تميل لأحد الجانبين. فإن الميل إلى الجانب الأيمن يرمي بسالكه في بحر البهت والسكون فيخسر عمره فتنقص مرتبته عن مرتبة غيره. فإن دار التكليف والترقي بالأعمال إذا لم يعمل فيها الإنسان ما يليق بها لم يجنِ ثمرة. أي لم يغرس ما يجني. وأنف من ذلك رجال الله.

والميل أيضاً إلى الجانب الأيسر يلقيه في بحر التلف وهلاك الأبد، والنجاة في ثبوتك على الطريق الوسطى من غير ميل إلى أحد الجانبين. وهذا هو الطريق الذي قال فيه رسول الله ﷺ وخطّ بيده في الأرض، وخطّ خطوطاً عن يمين الخط ويساره هكذا:

وتلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعَام: ١٥٣].

---

(١) أورد تخريجه السيوطي في الدر المنثور، الآية ١٩١ من سورة آل عمران، [ج٢ ص٤٠٩]. وانظر كشف الخفاء للعجلوني، حديث رقم (١٠٠٥) [ج١ ص٣٧١] وأورده غيرهما.

ولما أُنشِىءَ الإنسان الأول هذه النشأة، ونُفِخَ فيه الروح كانت نشأته أكثف النشآت الإنسانية، فأُعطي علم الأسماء في أصل نشأته. جُبِل على ذلك، ولو تُرِك حتى يعرفها بطريق الكسب من باب المجاهدات والرياضات لم يصل إلى ذلك إلاّ بعد قطع ثلاث مائة قاطع، والذين هم اليوم على قلب آدم هم ثلاث مائة لثلاث مائة خلق إلهي.

وقد ورد في الخبر: «**إن لله ثلاث مائة خلق**»[1].

وصورة هذا الإعطاء هو علم حقائق الموجودات. والحقائق هي المعروضة على الملائكة وهم المسمّون. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ [البَقَرَة: ٣١].

ولم يقل عرضها. وأوجدها لهم في حضرة التمثل فأشار إليهم فيها بأسماء هؤلاء فما عرف أحد منهم صورة تركيب الحقائق لكونهم ليس لهم قدم فيها ذوقاً. إذ نشأتهم مجردة عن المواد، ولذلك لم يدخل إبليس مع الملائكة في شهود هذا العرض مثلما دخل معهم في حضرة التكليف بالأمر بالسجود. فلما لم يكن لهم في علم التركيب الطبيعي شرب، ولا أعطته حقائقهم قالوا: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٣٢].

فقال لآدم: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البَقَرَة: ٣٣].

فأخذ حقيقة الجسم، وحقيقة التغذي، وحقيقة الحس وحقيقة النطق.

فقال هذا الإنسان وأزال حقيقة النطق وركب على ما بقي حقيقة الصّهيل فقال: هذا فرس.

وهكذا في جميع الحقائق، فعلّمهم صفات الاشتراك والصفات التي بها يتميز كل نوع عن نوع آخر. وذلك لأنهم من عالم الحلّ والتركيب وهذا صادر من تركيبات النسب الإلهية من هناك صدرت. وكذلك النسب الروحانية، والوجوه وترتيب التركيبات في الأولاد مشهد من ترتيب الموجودات الأمهات، وكما وقع التولد عن ذلك الترتيب كذلك وقع التوالد هنا فرجعت الملائكة بعد قبولها لهذا العلم الآدمي فوجدت أنفسها على ضرب من التركيب في ترتيب وجوهها ونسبها وتوقف بعض

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء، كتاب النية والإخلاص [ج٤ ص٢١٩] وكتاب المحبة والشوق والأنس [ج٤ ص٢٥٧] ونصه: «**إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلاثَمِائَةِ خُلُقٍ مَنْ لَقِيَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ**» فقال أبو بكر: يا رسول الله هل فيَّ منها خلق؟ فقال: «**كُلُّها فِيكَ يا أبا بَكْرٍ وَأَحَبُّها إِلَى اللَّهِ تَعَالَى السَّخَاء**».

وجوهها على بعض فعلمت أنها بذلك الأمر قبلت تعليم هذا الصنف من المعارف لكن لما كان الأغلب عليها كونها بسائط كان الحكم للأغلب فلم يعرف التركيب، ولما كان الأغلب على النشأة الإنسانية التركيب الطبيعي كان الحكم للأغلب فكان له التأييد في تركيب الحقائق وذلك من الاسمين المدبّر والمفصّل اللذين هما من رؤساء الأسماء.

وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يُونس: ٣] هو عالم الأرواح.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ [يُونس: ٥] في عالم الجسوم.

فقد جمع الإنسان في حقيقته بين العلمين:

ـ العلم الضروري: وبه يشارك الملائكة.

ـ والعلم النظري: وبه تميّز عنهم.

ومما تميز الإنسان عنهم به أيضاً بتصور المعلومات ذوات الصور وليس للروحانيين من هذا التصور شيء، وإن كان لهم العلم.

وهذا كله راجع إلى اختلاف النشأة، وكذلك إذا وقفت يا وليّ على نشأة هذه الجسوم على طبقاتها كما ذكرناه في كتاب «الجسوم الإنسانية».

وإنما هي خمسة أنواع يعطي كل نوع منها ما لا يعطيه الآخر وهو جسم آدم، وجسم حواء، وجسم عيسى عليهم السلام وأجسام بني آدم، والأجسام المدركة للمتصور في عالم الخيال والتمثل، وأجسام التعفين إذا اتفق أن يعطي نشأة الإنسان من جنس آدم عليه السلام. والتعفين المشروط فإنه قد جاء في الخبر: «**إن الله خمَّر طينة آدم**»[1].

والخميرة: هي تعفين العجين ليغلب عليه الجزء الهيولاني وهو الحرارة والرطوبة، وهو طبع الحياة، فانظر هذا الفصل في ذلك الكتاب نظر منصف مستفيد، ثم لتعلم أن قول الصوفي في الفلك إنه يدور بأنفاس العالم. يريد العالم المتنفس أي علّة دورانه وجود الأنفاس. أي عند دورانه يحدث الله الأنفاس. فإذا لم يبقَ فيه حركة تعطي نفساً في متنفس لم يعط حياة، وإذا لم يعط حياة فقد ذهبت الحياة منه، وإذا ذهبت الحياة عنه لم يبقَ له شوق، وإذا لم يبقَ له شوق لم تكن له حركة، وإذا لم

---

(١) رواه الطبري في تفسيره، قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ الآية [ج٣ ص٢٢٥]. وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، ترجمة أبو إسحاق الفزاري، [ج٨ ص٢٦٤] وأورده غيرهما.

تكن له حركة انفطرت الكرة وذهب العالم العنصري بأجمعه. وقد ذكر هذه المسألة «أبو طالب» وما فسرها في باب الأوقات.

فهذا نوع واحد من الأنواع التي يقال من أجلها إن الفلك يدور بأنفاس العالم.

وميثاق آخر في ذلك وهو أن الفلك لما دار أعطى المولدات ابتداء في أول دورانه، وعدد دورانه بعدد الأنفاس الكائنة في المولدات فهو يدور بعدد ذلك فإذا انتهى انخرم النظام وانتقل العمارة إلى الآخر بالحركة العظمى المحيطة التي قد يشاء الحق أن لا تنخرم أبداً شرعاً وحكماً، ولذلك لا ينخرم العالم انخرام عدم، وإنما انخرامة انخرام انتقال وتحول وتبدل. فصور تخلع من الجوهر، وصور تخلع عليه وبتلك الدورة الكبرى يبقى العالم في البرزخ وفي الدار الآخرة أبد الآبدين لا يزول ولا يفنى، واستمداده من حضرة الديمومية وبهذا يتعشق وهي المبقية لعينه، ولهذا كانت حركات العالم شوقية كلها من أجل التجلي على البعد الذي ظهر للعالم فانزعجت الأرواح للّحوق بذلك المحل الأشرف انزعاجاً روحانياً مقدّساً فانزعجت الهياكل من عالم التركيب لانزعاج الأرواح فظهرت الحركات في الأجسام لقبول الجسم للحركة ولطول المدى عرضت الآفات في الطريق للكل بتجلي صور الأعراض لهم فاختلفت المقاصد بعدما كان الأمر واحداً، وبقي الشوق على وحدانيته فما في الوجود حركة إلاّ شوقية وإن اختلف المشوق إليه بحكم الصور وإن كانت العين واحدة فيظهر بصورة اللذة، وصورة النجاة والنور، وصورة الجمال الأثري الهارب من الموت يتخيل أن حركته حركة خوفية وهي حركة شوقية إلى صورة بقاء الحياة لا إلى الحياة فإنه ملبوس بها فإن الحركة ليس سببها إلاّ ما هي إليه نهايتها لا ما هي منه بدايتها فإن الفراق يناقض الاشتياق.

والشوق طلب الوصلة بالمشوق إليه فالحركة له لا لغيره. وهذا الباب وهذه الحضرة عجيبة ذكرناها في غير هذا الكتاب على ما يعطيه التحقيق في الأمور. فافهم.

وأمّا كونه أن جُعِلَ خليفة في الأرض، دون السماء، ودون الجنة والنار فلما يذكره. وذلك أن الأرض محل الجمع، ومنزل المزج والاختلاط. فهي الجامعة لأصناف الموجودات المختلفات والمتضادات من أهل المخالفة والموافقة. عالم الرحمة، وعالم الغضب، وعالم القهر، وعالم العفو، وعالم الذلة، وعالم العز، وعالم الفقر، وعالم الغنا، وعالم الحق، وعالم الدعاء، وعالم الخلق، وعالم الأمر، وعالم الجن، وعالم الشياطين إلى غير ذلك من العوالم فهي الدار الجامعة، والحضرة

الشاملة بجميع ما أعطته جميع الأسماء والخليفة من حيث ما هو خليفة لا بد أن يظهر بصورة المستخلف له.

ولهذا قال: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[١].

وجمع له بين يديه لما أنشأه ليكون قوياً في سلطانه بتأمل جبلته حيث ظهرت عن اليدين ثم إنه حصّل علم الأسماء بحقيقته أيضاً فلم تتعين خلافة في العالم إلاّ له. فالإنسان الكامل هو حاجب الحق في عالمه والنائب عنه فيهم فيصرف فيهم أسماءه بحسب ما يُعطيه المحكوم عليه. فهو يتجلى للعالم في صورة مختلفة.

فتارة يظهر في صورة العزيز، وهو ظهور ذاتي له شامل، وتارة في صورة الرحمة، وتارة في صورة الشدة والقوة، وتارة في صورة الانتقام والقهر، وتارة في صورة المغفرة والحلم، وفي صورة العفو، وفي صورة اللطف، وفي صورة الفرح، وفي صورة التعجب، وفي صورة البشاشة.

والمقصود أن الحضرة الجامعة الشاملة لجميع الأسماء الإلهية كما هو جامع بحقائق الأكوان كلها. فبجمعيته لحقائق الأكوان يعرف مصادر الأكوان وموادها، وكيفيات حركاتها وسكناتها، وأنفاسها وما يكون لها ومنها لأنها هو، وهو هي. ولجمعية الأسماء الإلهية كان له الحكم عليها والتصرف فيها وكان لها الانقياد إليه والالتفات لجنابه كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجَاثِيَة: ١٣] فقوله: «منه» من جهة الأسماء، ولم يوجد هذا الأمر في غير الأرض. فإن السموات العُلَى عالم تَقديس وتنزيه لا عالم تدنيس وتشويه. وعالم دار الجنة عالم سعادة وكشف. وعالم دار النار دار شقاوة وحجاب. وعالم البرزخ عالم مثال لا عالم حقيقة، وما ثم محل آخر أصلاً إلا دار الدنيا. فإن الأرواح المفارقة لا تصلح لعالم الأجسام، ولا يظهر كمال الأسماء إلاّ بالروحانيات والجسمانيات فلا بد من السطوتين، ولا بد من الرحمتين. ففيهما كمال الوجود من حيث الخلافة. فلا بد من الأرض أن تكون مسكن الخليفة إلى أن يخلع هذه الخلعة، وينزل عن كرسي النيابة ويتولى الحق تعالى عباده على الكشف منهم لذلك.

فلهذا كان جعله خليفة في الأرض دون السماء. وأمّا إطاعة الملائكة الله والامتثال للأمر بالسجود دون إبليس وقد شمله الخطاب معهم بعد قولهم فيه ما جاء به نص القرآن في قوله: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البَقَرَة: ٣٠].

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

لكونهم رأوه مركباً من الأضداد، ولا بد للضد أن ينازع ضدّه فقالوا حقاً ونطقوا صدقاً، وكذا وقع في الأمر في عالم الأنس لكن غاب عنهم سر القتل المشروع والفساد المشروع من غير المشروع والصورة واحدة والحكم مختلف من أجل الوضع ومن أجل النزول الحق. ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البَقَرَة: ٢٥] في الصورة. فإذا ذاقوا عرفوا الفرق والميز. وما حجب القلب عن دركه سواك فحكموا بما تعطيه النشأة، وغابوا عن الاختصاص، وظهر ما قالوه من الفساد في الأرض وسفك الدماء على يدي هذه النشأة. فلما صحت لهم التلمذة وصحت لهم الشيخوخة والأستاذية عليهم دون إبليس حيث لم يحضر معهم هذا الموطن كان هذا من الأسباب المعينة لسرعة الامتثال عند ورود الأمر بالسجود له، ولأن حقائقهم لا تعطي المنازعة والمخالفة، ولذا ربّما سُمُّوا عالم الأمر، وليس عندهم نهي أصلاً حتى لا تختلف الكلمة فيهم. فهم الأمر المحض والخبر المحض وهم في اللذة المحضة، خلقوا في مقاماتهم المعلومة فلم يكن لهم نزق، فإن في النزقي تشوش ومكابدة، فهم المصونون فلم يكن مانع يمنعهم من المبادرة لامتثال الأمر، ولم يكن أيضاً هذا المأمور له بالسجود من جنسهم كما قال تعالى: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسرَاء: ٩٥].

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعَام: ٩] يعني الرسول.

فلا يكبر على غير الجنس خدمة من ليس من جنسه فإنه ليس فيه حط في مرتبته، وعلى قدر ما يقرب المشاركة في الجنسية تقع الإباية والحسَد. هذا هو المعروف من الحقائق فيما يعطيه عالم الأمشاج والظُّلَم. فاجتمع لإبليس أمرين:

- الواحد: أنه لم يحضر موطن التعليم فيلزمه الخبر به بحكم العلم.

- وهو في الجنس لأنه من العالم العنصري، وإن كان الغالب عليه النار، وغلب ناره على نوره. فإن له في التوراة صورة من حيث النفخ الشامل له ولغيره من عالم العناصر. كما أن آدم في العالم العنصري، وإن كان الغالب عليه الطين، فنوره غالب على طينه. فكان العالم المطيع. فلهذا القرب النسبي والجنسية وقعت الإباية والحسد. وأخذ يُفضل بعض العناصر على بعض، ولا مفاضلة فيها أَلْبَتَّة من حيث الذات لأن

كل ذات على حقيقتها، وإن كان بينهما الأمر الجامع وهي اليبوسة ولكن لما لم يجعله تراباً وجعله طيناً، وهو امتزاج الماء بالتراب. نظر إلى عنصر الماء الذي هو نقيض ما افتخر به، فأخذ يصادمه مصادمة الضد. فلهذا وقعت الإباية منه، ولحق بالآخرين إلى يوم الدين. فهو العدوّ بالطبع، الناصح بالعَرَض. فانظروا يا إخواننا ما لشرف الإنسان.

وأمّا المخالفة التي وقعت من هذا الخليفة فلم تقع منه من حيث ذاته، ولا من حيث مرتبته. وإنما وقعت من حيث أنه كان حاملاً للموافق وللمخالف، وقبضه جامعاً للطائع والعاصي فتحرك النسب المخالف منه بالمخالفة لأن الجنة ليست موطنه فهو يتضرر بها كما يتضرر رياح الورد بالجعل فكانت سبباً لخلافته، وتميز القبضتين منه في دار المزج، فانقلب فريق السعادة إلى الجنة وفريق الشقاوة إلى النار، حتى لو رام أهل النار الذين هم أهلها أن يدخلوا الجنة ما استطاعوا، ولسارعوا إلى النار مسارعة الحديد إلى المغناطيس، وكذلك أهل الجنة. وهذا لا يعرفه إلاّ طائفتنا لا غير.

وقد أشار النبي ﷺ إشارة لطيفة إلى ذلك علمها من علمها: «**إنكم لتقَحَّمون في النار، وأنا آخذٌ بحجزكم، وأنتم تأبون**»(١).

وأخبرنا ثقات أن ببلاد اليمن طائفة يُسَمُّون أولاد أم عيسى، إذا عاينوا الضبع لا يتملكون أن يرموا أنفسهم عليه حتى يأكلهم.

ورأيت من صلاّحهم بمكة رجلاً وهو انزعاج يقتضيه طبعهم المناسب المنجذب إليه كذلك أصحاب النار.

فافهموا فإن الأسرار لا تحتمل فوق هذا الكشف رتبة فكانت مخالفة حكمة لنهي حكمة، لا مخالفة حكم لنهي حكم.

وانتهى الغرض بمنّه.

والله يتولانا وإياكم بما يتولى به عباده الصالحين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم...**» حديث رقم (٦١١٨) [ج٥ ص٢٣٧٩] ومسلم في صحيحه، باب شفقته ﷺ على أمته...، حديث رقم (٢٢٨٤) [ج٤ ص١٧٨٩] ورواه غيرهما ونص رواية مسلم هي:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه**».

[كتبها لنفسه أحمد أبي بكر وهو حامد لله تعالى على نعمه لسبع خلون من رمضان سنة واحد وعشرين وثمان مائة من نسخة مكتوبة بحضرة مُنْشِئها وكان معتكفاً بجامع دمشق في النصف من شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وستمائة.

والكاتب أيوب بن لاشين صور وقرأ عليه قدس الله سرّه في العشر الليالي من ذي الحجة من سنة إحدى وعشرين وستمائة وعليه خطه رضي الله عنه هكذا صحّ ما ذكره وكتب المسني في تاريخه.

بلغت المقابلة على النسخة المذكورة لخمس بقيت من شهر شوال سنة ثلاث وعشرين وثمان مائة][1].

(١) ما بين معقوفتين من كلام الناسخ كما هو واضح.

رسالة كشف السّتر لأهل السّر

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد
ابن العربي الحاتمي
المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، القيوم السرمد، الأول والآخر، والباطن والظاهر، وهو بكل شيء عليم، وسع كل شيء برحمته، ودبّر كل شيء بحكمته، وخلق (آدم) على صورته، وأسجد له ملائكته، والصلاة والسلام الأبديان السرمديان على سيدنا (محمد)، أكمل المظاهر الإلهية، وأجمع البرازخ الإنسانية، وعلى آله وصحبه وورثته وأولادهم، أهل المراتب العرفانية والمناصب التوحيدية.

أما بعد: فلما فتح لنا الحق سبحانه أبواب الحقيقة، بعد أن منحنا أسباب الطريقة، وهدانا لكشف أسرار التوحيد، ولكل مسترشد سعيد، فكشفت في هذا المختصر، لمن شرح الله صدره ووسّع قلبه وأشهده سر قوله: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[1]، ولذلك أشار سيدنا (علي) كرّم الله وجهه، حيث قال: من عرف نفسه فقد عرف ربه فقد أحبه، ومن أحبه الحق فقد جذبه، ومن جذبه فقد قرّبه، ومن قرّبه أفناه عن وجوده، وأبقاه بشهوده، ومنحه كمال مشهوده، وأطلعه على حقائق جوده. وسميتها بكشف الستر لأهل السر، مستمداً من الله هداية طريقه، وبيان الحق بتحقيقه، إنّه بمقاصدنا ولي كفيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. اعلم أيها المسترشد السعيد أرشدنا الله وإيّاك إلى الصراط الحميد، أنّ من أراد الخوض في بحر التوحيد، والعبور على قنطرة التفريد، لا بد له من التحقّق بالفناء، إما بالذوق الصحيح الحالي، أو بالكشف الصريح العالي، ومن لم يكن له قدم صدق في الفناء، لم يجز له أن يحوم حول هذا الفناء، ومن توجه بغير دليل إلى الحمى، لم يزدد إلاّ ضلالاً وعمى، وقال:

[الوافر]

متى ما شئتَ تطلب دار ليلى ... بغير طريقها وقع الضلالُ

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٥٣٠) [ج٢ ص٢٣٤].

ومرآة البصيرة كيف يبدو بها شيء وما حصل الصقالُ

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٨]؛ لأنّ لكل مقصد سبيلاً، ولكل وجه مولياً ودليلاً، وإذا عرفت ذلك فاعلم أنّ الفناء هو اضمحلال ما سوى الحق سبحانه وتعالى، وذلك بأن لا ترى موجوداً غيره، ولا وجوداً إلاّ له، وما سواه هالك، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القَصَص: ٨٨]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرَّحمٰن: ٢٦]، فيتحقق لك عدمك الأزلي، فتكون لله كما لم تكن، فيكون لك كما لم يزل، ولا ترى الكون إلاّ خيالاً، لا حقيقة له في نفسه، وإنما حقيقته الحق، ووجوده من حيث هو هو، مع عدم الإطلاق والتقيد، وجود الحق سبحانه وتعالى:

[الكامل]

هذا الوجود وإن تكثر ظاهراً وحياتكم ما فيه إلاّ أنتم
أنتم حقيقة كل موجود بدا ووجود هذي الكائنات توهمُ

[الرمل]

إنما الكون خيال وهو حق في الحقيقه
والذي يفهم هذا حاز أسرار الطريقه

وبعد تمهيد هذه المقدمة نشرع في المقصود، والله يبلغ المقصود؛ لأنه هو المقصود الموجود المعبود. اعلم أرشدنا الله وإيّاك أن من تحقق بمعرفة نفسه، فقد تحقق بمعرفة ربه، والتحقق بمعرفة النفس، هو أن يحقق الله سبحانه للعبد المؤمن، والإنسان الكامل، الوارث للخلافة الإلهية من معدن الرسالة المحمدية، أنّه مخلوق على صورته، وهو (آدم) عصره ووقته، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنّ الله خلق آدم على صورته**»[1]، وفي رواية: على صورة الرحمٰن، وجاء في أول التوراة «نريد أن نخلق إنساناً على مثالنا وشكلنا وصورتنا»، أو كما قال سبحانه.

ولما صحت الخلافة للإنسان الكامل، أراه إنشاء صورته الظاهرة من حقائق العالم وصوره، وصورته الباطنة على صورته تعالى ولذلك قال تعالى: «**كنت سمعه**

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»[١]، ولم يقل: كنت أذنه وعينه وحيث أوردنا هذه الكلمات وجب أن نبيّن معنى الصورة وأقسامها، ومعنى الصورة المخلوق عليها (آدم)، فالصورة: هيئة اجتماعية من أوضاع مخصوصة شكلية، في أي مادة فرضت، وأي أجزاء قُدِّرت ومُثِّلت، وتنقسم الصورة إلى: عقلية، وعلمية، وخيالية، وذهنية، ونورية، وروحانية، وإلهية، فالصورة المذكورة في الحديث، هي صورة إلهية نورية ذاتية قائمة بجناب الله تعالى وتقدّس، وهي جمعية صور الربوبية، والحقائق الوجوبية، التي مادتها وهيولاها عماء الرب، والحقيقة الفعالة لها أحدية جمع ذات الألوهية، وظاهر الطبيعة الكليّة، التي يُعبّر عنها في مشرب التحقيق بالحقيقة الإلهية الكلية، الحاصرة لقوابل العالم كله، ومواد عينها الفعّالة للصور كلها، وهذه الحقيقة تفعل الصور الأسمائية بباطنها في المادة العمائية، كما ذكرنا، وهي منها وعينها، ولا امتياز بينها وبين العالم، إلاّ في التعقّل، لا في العين فإنّ النشأة واحدة جامعة بحقيقتها للصور الحقانية الوجوبية العلوية، والصور الخلقية الكونية السفلية الإمكانية، من الحقائق الكيانية. وأمهات الحقائق ثلاث: الأولى: حقيقة مطلقة بالذات، فعالة مؤثرة عالية، وجودها واجب لها بذاتها، وهي حقيقة الحق ـ وهو الله سبحانه وتعالى ـ واحدة شائية. والثانية: حقيقة مقيدة، منفعلة سافلة متكثّرة قابلة للوجود من الحقيقة الواجبة بالفيض الأقدس، والتجلي الأنفس، وهي حقيقة العالم الممكن بذاته، واجب بغيره، يعني: واجب بالمظهر له، والمتجلي به، وهو واجب الوجود الحق سبحانه. الثالثة: حقيقة أحدية جامعة بين الإطلاق والتقييد، والفعال والانفعال، والتأثير والتأثّر، فهي مطلقة من وجه ونسبة، مقيدة من أخرى، فعّالة من وجه، منفعلة من آخر، وهذه الحقيقة هي: أحدية جمع الحقيقتين، ولها مرتبة الأولية الكبرى، والأخروية العظمى، والبرزخية الشاملة المثلى، وهي للبرزخ الجامع، والإنسان الكامل، التي صوّرة الله مستوية على عرش قلبه كشفاً وتحقيقاً، وشهوداً وتدقيقاً، وإيماناً وتصديقاً، وحقاً موجوداً، كما قال عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عزّ وجل: «**ما وسعني أرضي ولا سمائي، وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن**»[٢]، فالعبد المؤمن هو القابل الكلي،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب التواضع، حديث رقم (٦١٣٧) [ج٥ ص٢٣٨٤] وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله...، حديث رقم (٣٤٧) [ج٢ ص٥٨] ورواه غيرهما.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٢٥٤) [ج٢ ص١٧٥]. والمناوي في فيض القدير، [ج٢ ص٤٩٦] وعلي الهروي في المصنوع، حديث [ج١ ص٢٩١].

والكون الجامع الأزلي، الذي تظهر به الأسماء والصفات، والأفعال والذات، على ما هي عليه من الكمال، فيؤمن بقابليته الكليّة المحيطة، ويعطي الأمان لصور الذات، والأسماء والصفات، والأفعال والآيات الظاهرة في مظهريته عن التغيير والتحريف والتبديل، فتظهر صورها في مرآته الكاملة الشاملة كاملة، ويؤمن أيضاً أن يعطي الأمانة لصور النسب وحقائقها أيضاً، من عدم ظهور آثارها من خفاء حكم الغيب والعدم، بإظهارها في محال ظهور أحكامها وأسرارها في حقائق مظهرياته المعنوية والروحانية، والطبيعية، والعنصرية، والمثالية، فالإنسان الكامل هو المظهر الكلي، والمقصد الغايتي الأصلي، حامل الأمانة الإلهية، وصاحب الصورة النزيهية عن المثلية، ولما كان المراد الكلي المطلوب، والمقصد الغايتي المحبوب من إيجاد العالم، كمال الجلاء والاستجلاء، وظهور الحق، وإظهاره نفسه لنفسه، ظهوراً وإظهاراً فعلياً تفصيلياً، كما اقتضت ذاته المطلقة تكميلاً لمرتبتي الجمع والفرقان، والعلم والقرآن، والإخفاء والإعلان، والرحمة والرضوان، لإظهار الغيب والشهادة، وتفنّن القدرة والإرادة، وكان الحق سبحانه في كماله الذاتي، يرى ذاته في ذاته بذاته، رؤية ذاتية، غير زائدة على ذاته ولا متميزة عنها، لا في العقل والتعقل، ولا في الواقع والخارج، ويرى أسماءه وصفاته ونعوته وتجلياته، وأفعاله وآياته أيضاً، كذلك نسباً ذاتية، لها شؤون عينية غيبية مستهلكة الأحكام، تحت قهر الأحدية، غير ظاهرة الآثار، ولا متميزة الأعيان بعضها عن بعض، منطمسة في حيطة جلال الصمدية، مضمحلة في أنوار الواحدية، كامنة كائنة في عين الفردية، وكينونتها فيها وكمونها ككينونة النصفية، والثلثية، والربعية، وغيرها من النسب في الواحد، هذا من حيث كماله الذاتي الأحدي، ولكنه شاء أن يظهر من حيث الكمال الأسمائي التفصيلي، بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، في مظاهرها ومجاليها ومراتبها، التي يرى الحق فيها نفسه: «لأنّ رؤية الشيء نفسه في نفسه ليست مثل رؤية نفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة، فإنّه تظهر له نفسه في صورة يعطيها المحل المنظور فيه، مما لم يكن يظهر له من غير وجود هذا المحل ولا تجليه له»، فلا تكون رؤية الحق نفسه في كون جامع للأمر على ما هو عليه، وهي رؤية ذاته في ذاته، كرؤيته سبحانه وتعالى في كون غير جامع للأمر على ما هو عليه؛ لأنّ الأسماء الإلهية كانت في قبض قهر الأحدية الجمعية الإلهية الذاتية، أحدية في الحضرة الأحدية، لا ظهور لها لعدم مظاهرها، وهي العوالم،

وكلها عالم: «**كان الله ولا شيء معه**»[١] وكانت كثرة الأسماء مستهلكة مكمونة مجملة في أحدية عين الذات، ولسان تعينه بكنى حرف التاء، وهو تعينه في ذات اللاهوت، كنزاً جامعاً لجواهر حقائق الأسماء والمسميات، إذ الكنز ذهب وفضة وجواهر مجتمعة في الغيب، فالذهب صورة الذات، والفضة صورة الصفات، والكنز مخفي عن الأغيار، فأحب الحق بمشيئته من حيث الأسماء أن يعطيها التحقق في أعيانها بالوجود والإيجاد وتحقق في حقائقها للشهود والإشهاد على رؤوس الأشهاد، كما قال سبحانه: «**كنت كنزاً مخفياً لا أُعرف، فأحببت أن أُعرف**»[٢]، أي أن يعرفني كل تعيّن من تعيناتي في مظاهري ومجالي ومراتبي، التي ليست ذات الألوهية، بل بسببها يظهر السر الكامل بالتجلي الحق، التجلي التعرفي، في قوله: «**فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق وتعرّفت إليهم بالنعم فبي عرفوني**».

فلما شاء الحق سبحانه، وأحب إظهار سرّه الكامن، وجلاء حسنه الباطن، وإبداء كماله المستحسن، بجميع المحامد كلها والمحاسن كقوله:

كل الجمال غدا لوجهك مجملا لكنه في العالمين مفصلُ

ظهر بالكون الجامع الإنساني، والكتاب الأكمل الفرقاني، والمظهر الشامل القرآني، وصورة الاسم الرحماني، الحاصر للأمر الإلهي الكياني؛ لأنّ الإنسان أول بالحقيقة، والآية في البداية، آخر في الغاية والنهاية، ظاهر بالصورة، باطن بالسر والسورة، جامع الأولية والآخرية، والباطنية والظاهرية وجمعيته؛ لكونه برزخاً جامعاً بين بحريّ الوجوب والإمكان، ولما كانت مرتبته جامعة بين الحقية والخلقية، والربانية والعبدانية، تعين الوجود الحق في مظهريته بحسبها تعيناً كليًا جمعياً أحدياً فالمرتبة منحصرة بين الحق الواجب والخلق الممكن، معمورة بهما، فالحق أبداً حق على بقائه وغنائه ووجوبه الذاتي، الخلق خلق أبداً على فنائه وفقره وعدمه الذاتي، فالوجود

---

(١) رواه البخاري بلفظ: «**كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض فنادى منادٍ ذهبت ناقتك يا بن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أني تركتها**». كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.. ، حديث رقم (٩١٠٣).

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠١٦) [ج٢ ص١٧٣] وعلي الهروي في لمصنوع [ج١ ص٢٣١].

للحق، وهو في مرتبته الحقية حق، وفي مرتبته الخلقية خلق، وفي النشأة الإنسانية الجامعية خلق جامع بينهما، مطلق عن الجمع بينهما أيضاً، فالدائرة الوجودية محيطة بقوسين، ومتنصفة بشطرين على قطرين، فالشطر الأعلى للحقية والوجوب، والشطر الأدنى للكون والخلق، والبرزخ الجامع يظهر بالتعيين ويصدق على إطلاق الحكمين، وله الجمع بين البحرين، وليس له نعت ذاتي سوى الجمعية والإطلاق، فله أن يظهر بمظهرية الأسماء والمسميات والذات على الوجه الأوفى، فعند مشيئة الحق ومحبته من حيث الأسماء الحسنى، والتجليات العليا، أن يتعيّن بتعيناته القصوى، تجلّت تجلياً جمعياً، وانبعثت انبعاثاً حبياً إلى المظهر الكلي، الجامع للأمر الإلهي، فامتدت رقائق النسب إلى متعلقاتها، واشرأبت حقائق الوجوب إلى متعلقاتها، وطلبت الربوبية المربوب، والإلهية المألوه، والمحبوبية المحبوب، فقامت بظاهرياتها مظاهر لباطنها، وبشهادتها مجالي لغيبها، فالظاهرة لمظاهر هي عينها الناظرة بمناظر هي عينها، وفيها أنيّها ظهرت الحقائق الوجوبية، والنسب التي اقتضتها الربوبية في متعلقاتها ومظاهرها ومجاليها، وزهرت أنوار التجليات الفعلية في مراتبها ومرائيها، فرأت أنفسها متمايزة الأعيان والآثار، متغايرة الظلم والأنوار، وتعينت أحكامها ولوازمها ممتازة، وثبتت عوارضها ولواحقها إلى إحيازها منحازة، فأعيان الموجودات المعلومات العلوية، وأشخاص المخلوقات السفلية مظاهر النسب الوجوبية، ومجالي تعينات أسباب الربوبية، فيرى الحق فيها حقائق الأسماء، وأعيان صفات الاعتلاء على عروشها، ومحتوية على جنودها وجيوشها، فما منا إلا له من الحق مقام معلوم، ومن الوجود ذوق مقسوم.

واعلم أنّ المناظر، والمجالي، والمظاهر، والمرائي التي يرى الحق فيها نفسه، لو لم يكن لها حيثية متعيّنة، وخصيصة واستعداد معين تمتاز بها عن الظاهر فيها، لكان الظاهر فيها ـ وهو الحق ـ غير متعيّن عن غيبته، فظهور الحق وتجليه في مرتبة من المراتب، جزئية كانت أو كليّة، إنما يكون بحسب المحل، ويقبل بقدر ما أعطاه الحق من الاستعداد، وما هيأ له من القابلية، وليس ذلك بحسب الحق؛ لأنّ ذلك لا يسعه قلب المؤمن، ولا يسعه شيء أبداً، وذلك تجلي الحق بذاته على ما هي عليه لذاته، وإنما وسع قلب المؤمن التجلي الأسمائي، وهو تجلي الحق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا كلها، ويسمّى تجلي الألوهية للمألوه الذي هو صورة جمعيتها، ومظهر شؤون حكمتها؛ لأنّ الحق أوجد العالم وجود شبح بلا روح، فكان كمرآة غير

مجلوة، فجلاها بالإنسان الكامل الجامع لحقائق العالم، وصورها وأسمائها ومسمياتها، بكمال مظهريته ذاتاً وصفاتاً، وصورة ومعنى، جمعاً وتفصيلاً، ظاهراً وباطناً، وأولاً وآخراً، ولا يحصل كمال العالم، وأسماء الحقائق والأعيان، إلاّ بنشأة (آدم) في عين العالم، ووجود الإنسان الظاهر بصورة الرحمٰن، فكان الإنسان الكامل روحاً لذلك الشبح العالمي، فكان قبول الإنسان الكامل للتجلي الإلهي أكمل قبول؛ لأنّه ما من قابل من القوابل يقبل فيض الحق على نحو من القبول، ويتعيّن بتجلي من التجليات وصورة من مظاهره، إلاّ وفي الإنسان الكامل مثل ذلك القابل على الوجه التام من حيث أنّ التجلي على جميع الأشياء، وعلى كل القوابل كامل، وفي الإنسان الجامع أكمل، فروحانيته أتم الروحانيات وأكملها، وطبيعته العنصرية أجمع الأمزجة وأعدلها، ونشأته أوسع النشآت وأفضلها، وأشملها، واستعداد مظهريته لظهور الحق أعم المظهريات والاستعدادات، وأقبلها وأعظمها، وتعين صورة الحق والخلق في مظهريته أكمل التعينات وأجلّها وأشرفها وأكبرها، وبه حصل كمال الجلاء والاستجلاء، وبه اتصل كمال فيض الذات بالأسماء، فهو مظهر الفيض الجامع، والبرزخ الشامل المحيط المانع، وبه تميّز الوجوب عن الإمكان، وظهر كمال حقائق الأسماء والأعيان، فكان (آدم) بصورته العنصرية جلاء مرآة العالم، وكان العالم شبحاً لا روح فيه، قبل وجود هذه النشآت الإنسانية، الجامعة للكمالات الإلهية، فكان روح العوالم الكلية والجزئية؛ لأنّه رابطة فيض شؤون الحق الذاتية والأسمائية والصفاتية على حقائق العالم الكلية والجزئية، فجلى الحق سبحانه عن هذا العالم الصدأ، الذي كان فيه بصورة (آدم)، وتجلّى الحق سبحانه على هذا المجلى الأتمّ، والمظهر الأعم، تجلياً كاملاً، وتحققاً شاملاً، فرأى نفسه فيه رؤية ذاتية، وإحاطة كلية شاملة للأسمائية الإلهية؛ لأنّه سوّاه مرآة لذاته، ليرى فيه علماً وعيناً جميع كمالات أسمائه وصفاته، وأفعاله وآياته، فظهر لنفسه فيه ظهوراً جامعاً بين الكمال الأسمائي والكمال الذاتي، وكمّل به نشأة العالم، وخصصه بحقائق الأسماء وسمّاه (آدم)، فالعالم كله كالعين الجامعة للأعيان، ونور تلك العين وسرها الإنسان؛ لأنّه صورة الرحمٰن، الجامع لحقائق الأسماء والأعيان، وصور الموجودات والأكوان، فكان قابلية العالم مظهر صورة (آدم)، وجلاء قلبه الأعظم جمعية الإنسان الأكرم، وروحه القائم بقلبه وصورته، وقابليته وجلائيته، عين تجلي الرحمٰن، على قلب الإنسان بالفيض الأقدس، والتجلّي الأنفس، فقلب الإنسان الكامل مظهر الكمالات الإلهية، وصورته روح الحقائق الكلية، واستعداده سر الجمعية الإنسانية، فروحه مرآة الذات الأحدية،

وقلبه مجلى الكمالات الواحدية، وعقله جلاء العوالم الكليّة، وجسمه روح الموجودات الحسيّة، فهو صورة الحق الظاهر، ومرآة اسمه الباطن، والمقصد الأول، والمظهر الآخر، فهذا معنى قوله ﷺ: «**إنّ الله خلق آدم على صورته**» ومن كشف الحق له هذه الأسرار، وأفاض على قلبه من هذه الأنوار، ووهبه الله من خصائص هباته، وكشف له ما طبع في مرآته، وتحقّق بمعرفة نفسه، التي توجب له التحقق بمعرفة ربه كشفاً وشهوداً، فعرف حينئذ من هو، وما هو المقصود منه ما هو، حققنا الله بحقائق معرفته، وهدانا إلى سبيل توحيده وهدايته، إنّه بأحوالنا عليم كفيل، يهدي الله لنوره من يشاء، والله يتولى الحق وهو يهدي السبيل.

ثم اعلم أنّ معرفتك للحق، إنّما هي معرفتك لنفسك ومعرفتك بنفسك، لها مرتبتان في مشرب التحقيق: الأولى: معرفتك بربك من حيث أنت، الثانية: معرفتك بربك من حيث هو، لا من حيث أنت فالمتحقق بالمعرفة الثانية مرضي عند ربه، منادى بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] فما أمرها أن ترجع إلاّ إلى ربها، الذي دعاها فعرفته من الكل، راضية مرضية، فادخلي في عبادي من حيث ما لهم هذا المقام، وهم كل عبد عرف ربه، واقتصر عليه، ولم ينظر إلى رب غيره، مع أحدية العين، فالنفس المطمئنة لا بد أن تدخل فيهم، فإنّ المقام بينها وبينهم، لكونهم راضين مرضيين مخاطبين، وادخلي جنتي التي بها استرك، وهي ستري، وليست جنتي سواك يا عبدي، فإذا دخل العارف جنة ربه، حيث ظهر فيه وعرف به، مستتراً عن الأفعال والآثار المذمومة عند من لا يرضاها من الأرباب والعبيد؛ لأنّ لكل اسم عبداً هو ربه، وذلك العبد جسم وهو قلبه، فصار وقاية لربه عن ألسنة أهل المذام والعيب، والمذام هي بالإضافة إلى العبد آثار لربه، وجعل ربه وقاية وجُنة له في جميع المحامد، فأضافها جميعها إلى ربه فلا تضاف المحامد إليه من حيث هو، بل إلى ربه، واستتر بربه عن الإضافة والمحامد، كما استتر ربه به عن المذام، فكما أنّ العبد لا يوجد إلا بربه، فكذلك الرب لا يكون ظاهراً متعيناً في عينه إلاّ بعبده، فهو مظهره ومظهَره، والناظر فيه وبه، وإذا ثبت أنّ الله لا يُعرف بالحقيقة؛ لأنّ التجلي الأحدي ممتنع؛ لأنّه تعالى بالذات غني عن العالمين، فتجليه الأحدي لا يُبقي غيراً متجلّياً له، فلا يكون تجلّيه الأحدي إلاّ بذاته لذاته، فلا يعرف حقيقته إلاّ هو، بل من حيث ظهور الأسماء عن البطون، وبروزها عن الكمون، افتقرت إلى المظاهر، وأثبتت أنّ الحق هو الأول والآخر، كما هو الباطن والظاهر، وإذا ثبت أنّ الله لا يعرف بالحقيقة، فعبده الذي هو مظهره لا يعرف

بالحقيقة، فإذا نادى كل رب عبده إليه، وأمره بالدخول في جنته والوقوف عليه، فيدخل العارف نفسه ويعرف أنّه مظهره ومجلاه، هو عبده، وهو ربه ومولاه، وهو عرشه ومستواه، فلا ينفك ربه يحبه ويرضاه، ولا يزال عبده يعرفه ويهواه، فلا بد لكل منهما عن الآخر، كما قيل:

[الطويل]

فما انفك يرضاني بكل محبة وما زلت أهواه بكل مودة
فممتنع عنه انفصالي وواجب وصالي بلا إمكان بعد وقربة

فحينئذ يعرف العبد نفسه بربه، وبه عبر المعرفة الأولى، وفي هذه المعرفة يضاف إليه كل ما يضاف إلى ربه من الكمالات، ويضاف إلى ربه كل ما يضاف من المظهريات، فيعرف نفسه بربه، بعد معرفته ربه بنفسه، طرداً وعكساً، جمعاً وفرادى، دائماً أبداً؛ لأنّ دخول الجنة دخول مخلّد مؤبّد، فيعرف نفسه وربه، من حيث ربه لا من حيث هو، وكان يعرف ربه من حيث نفسه، فحصل له الجمع بين المعرفتين، والتحقق بالحسنيين، وفي هذا المقام قلت:

[المنسرح]

فأنت عبد وأنت رب لمن له فيه أنت عبدُ
وأنت رب وأنت عبد لمن له في الخطاب عهدُ

فأنت عبد له من حيث هو وسلطانه عليك، وأنت رب له من حيث ظهور سلطانك فيه، على من دونك وعليه أيضاً، من حيث إجابته لك ولسواك حين تدعوه، فما أنت على كل حال إلاّ تعيين من تعيناته، وتجلٍّ من تجلياته، وأنت أيضاً رب من حيث ظهور الربوبية بك وفيك، لرب خاطبك بخطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعرَاف: ١٧٢] فقلت: بلى، بين العباد الراضين بربوبيته، المرضيين حين قالوا ما قلت، ونالوا ما نلت، وما توجه خطاب من الأحدي الذات إليك خاصة، فلهذا قيل:

[المنسرح]

فكل عقد عليه شخص يحلّه من سواه عقدُ

فإن عبد اللطيف والرؤوف على عقد يحله عقد وعزيمة عليها القهار المعز، وعبد الظاهر على عقد يحله الباطن، وبالعكس فهذا حكم جميع المربوبين والأرباب

من غير تخليط ولا تخبيط بين المقامات والعقائد، فكل مرضي عند ربه، فرضي الله عن عبيده، فهم مرضيون، ورضوا عنه، فهو مرضي، فتقابلت حضرات الأرباب، وحضرات العباد، تقابل الأمثال؛ لأنّ كل واحدة من الحضرتين مرضية عند الأخرى، راضٍ بها، فالمثلية بين الحضرات تامة، فالتضاد كذلك، فقابلت كل واحدة غيرها، الضد الضد.

إذ المثل الحقيقي كالضد لعدم اجتماعه مع ضده، يعني: بمثله حقيقة، إذ لا تميّز، لأنها فرضت على الأخرى؛ لأنّ حقيقتهما واحدة، وإذ لا تميّز، فلا بينية، ولا إثنينية، فلا ضدية، ولا مثلية، فما ثمَّ إلاّ وجود واحد، فهو هو لا غيره، فالوجود حقيقة واحدة تعينت في مراتب متميزة عقلاً، فما ثم عقل إلاّ متميزاً، وأيضاً فما ثم مثل يوجب الإثنينية، فالمظهر عين الظاهر، والظاهر عين المظهر، فانظر تشهد الخلق في مرآة الحق، والحق في مرآة الخلق، فترى العجب العجاب:

[الطويل]

فلم يبق إلاّ الحق لم يبق كائنُ فما ثم موصول وما ثم بائنُ
بذا جاء برهان الحديث فما أرى بعيني إلاّ عينه إذ أُعايِنُ

ذلك لمن خشي ربه أن يكونه، لعلمه بالتميّز، يعني: لما ثبتت مرتبة الرب عن مرتبة العبد، خشي العبد ربه، أن يكون بحصول العلم في العقل بالتميّز، فوقف على مركز عبدانيته، مرضياً عند ربه، لكونه راضياً بربوبيته له وعليه، ورضي به الرب غاية الرضى بعبوديته، به وله وعليه وفيه، وقد دلنا على التميّز جهل أعيان في الوجود، بما أتى به عالم فوقع التميّز بين العبد وبين الأرباب، لتفسّر الاسم الواحد الإلهي بجميع الوجوه من جميع وجوهه، وذلك من حيث الذات الأحدية، فالمعز لا يفسّر بالمذل، والأول لا يفسر بالآخر، والرحيم لا يفسر بالقهار، من حيث خصوصيات الأسماء، ولكنه يفسر بضده وغيره من حيث عين تلك الذات الأحدية المتجلية بجميع الأسماء؛ لأنه تعالى من حيث ذاته لا ضد له، ولا ند له في الحضرة الأحدية، وفي الحضرة الواحدية باعتبار كثرة الأسماء وتعددها، فالأسماء أضداد وأنداد، ولما كان لأسماء الحضرة لكل اسم دلالتان: دلالة على الذات المسمات بالأسماء كلها، فيوضع ويحمل عليه سائر الأسماء؛ لأنه عين تلك الذات المتجلية به، وبالأسماء كلها، ودلالة مخصوصة هي مفهومة، يمتاز بها عن غيره من الأسماء، كالحي من العليم،

والقاهر من اللطيف، وكل اسم له خصوصية وحقيقة، وكل حقيقة لها ظهور وآثار في العلم والعين:

[مجزوء الهزج]

فــلا تــنــظــر إلــى الــحــقِ وتــعــريــه عــن الــخــلــقِ
ولا تــنــظــر إلــى الــخــلــقِ وتــكــســوه ســوى الــحــقِ

يعني أنّ الحقية تستلزم الخلقية، استلزام الرب للمربوب، والخالق للمخلوق، والإله للمألوه، لما بينهما من التضايف، فلا يلاحظ أحدهم بدون الآخر، وكذا عكسه؛ لأن الاستلزام من التضايف من الجانبين؛ ولأنّ الخلق إذا نظرته من غير خلعة الوجود الحق، بقي على عدمه الأصلي؛ لأنّه إنْ نظرته كذلك، رجع إلى عدميته الأصلية، فإنّ الخلق لفظ مفترى على الحق، فإذا عريته عن الحق لم يبقَ ما سميته به، وما الخلق إلاّ اختلاق وبهتة على الحق:

﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩]، وإنما هو تجلي وجوده في بعض مراتب شهوده، فلو نظرت بخِلع الخِلع الوجودية الحقية عنه، لم يبقَ شيء، فعند ذلك تجد الله هناك، يعني تجد الله عنده؛ لأنّه يستحيل وجود الخلق بدون الحق، ويستحيل حصر الحق في الخلق:

[مجزوء الهزج]

ونــــزّهــــه وشــــبّــــهــــهُ وقُــمْ فــي الــمــقــعــدِ الــصــدقِ
وكــنْ فــي الــجــمــع إنْ شِــئــتَ وإنْ شِــئــتَ فــفــي الــفــرقِ

يعني نزّه عن أن يكون متعيناً بتعين، فيشبه متعيناً آخر، فإذاً يلزم الشرك، وشبهه بالخلق من حيث الحقيقة، فيكون عين كل متعيّن، إذ لا موجود سواه، فهو هو، كان ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، فاجمع بين التنزيه والتشبيه، بنفي ما سواه مطلقاً، فتقوم بمقعد الصدق، في مقام التوحيد الذاتي، والجمع بين المطلق والمقيّد، فكن بالجمع ناظراً إلى الحق بدون الخلق، فإنّ الوجود ليس إلاّ له، بل هو هو، وإن شئت لاحظت الخلق في الحق، بتعدد الواحد بالذات، الكثير بالأسماء والتعينات، فكن في الفرق باعتبار التعينات الخلقية، واندراج الهوية الحقية، في الهوية الخلقية:

[مجزوء الهزج]

تَحز بالكلّ إن كل تبدى قصب السبقِ
فلا تفنى ولا تبقى ولا تُفني ولا تُبقي

يعني: إذا كنت في الجمع وفي الفرق بعد الجمع بحسب المشيئة، تحز قصب السبق بالكل منهما؛ لأنّ الكل جمع وفرق، كل منهما تبدّى لك، بحيث لا تحتجب بأحدهما عن الآخر، فتشهد الخلق حقاً، والحق خلقاً، والحق حقاً، والخلق خلقاً، فلا يحجبك أحد الشهودين من الآخر، ولم يفتك شهود؛ لأنّ الكل ليس إلاّ هو، ولا يختلف إلاّ بالاعتبارات، فلا تفنى عند كونك حقاً عن الخلقية، ولا تبقى حقاً بلا خلق؛ لأنّ الحقيقة واحدة، فلك أن تكون حقاً بلا خلق، أو خلقاً بلا حق، وخلقاً وحقاً معاً، ولا يفنى الخلق عند تجلي الحق، فإنه فانٍ حقيقة في الأزل، فكيف يفنيه، ولا يبقى الحق فإنّه باق لم يزل، ولك أن تشهدهما وتبينهما كل في رتبته واحداً في وجود واحد لا معاً:

ولا يُلقى عليك الوحي في غير ولا تُلقي

لأنّ معنى الوجود واحد لا غير، فإن كنت عبداً يلقى عليك الوحي منك وفيك، لا من غيرك، ولا في غيرك، وإن كنت رباً فلا تلقي في غير، وما ثم غير؛ لأنّ الوجود واحد، أُحدٌ في المدد، كثير في العدد، وله الأزل والأبد، والدوام والسرمد، فهو الأول والآخر والباطن والظاهر، وهو بكل شيء عليم، وبتجلي ذاته العزيز، وبأسمائه وصفاته وأفعاله الحكيم، وسبحان الله، وما أنا من المشركين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا (محمد) وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين.

رسالة الوقت والآن

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن العربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الحمد لله ولي الحمد ومستحقه، وصلى الله على سيدنا (محمد) صفوته من خلقه وآله وصحبه وسلّم.

اعلم أيّها الأخ الموفق السعيد، بعناية الله الحميد المجيد، أنّ مدار طريق أهل الله، وهم السادة الصوفية الموصل إلى الله تعالى، على حفظ الوقت، والقيام بحكمه ومرسومه، وهذا الوقت الذي وقع عليه اصطلاح الصوفية، من الأمور الدقيقة الغامضة التي لا يتنبه لها، إلاّ المؤيد بنور البصيرة القدسية، والمنصور بعناية الحضرة العلية، والحقيقة الإلهية، والمراد به وقت المريد السالك الرامي إشارته إلى الحق، عن قوس صدق العزيمة السائرة على ضوء مصباح اليقظة، أو على ضوء مصباح الكشف الصادق، ولا يزال هذا الوقت مشهداً في باب السلوك، مصاحباً للسالك، حتى يفنى رسم السالك في وجود الحق، ثم يحققه بفني رسم الوقت بالحق، ومن هنا قال المتقدمون من علماء الحق:

«إنّ الوقت هو الحق لاستغراق رسمه في الحق»، وقد كشف لنا الحق في الوقت أمراً جليلاً ذكرناه في الجزء الثاني من كتاب (السر الأحدي) وتلخيصه: إنّ الوقت واحد مشهد، لكنه يختلف بحسب اختلاف المقامات، والمقصود هاهنا: ذكر وقت المريد الصادق فهو برزخ بين الجلال والجمال، وهو باطنه وباعثه إلى نعت الجمال، وإلى نعت الجلال على السواء، وذلك أنّ وقت المريد هو آنٌ من الفرد الأحد، الذي هو أجلّ أن يُعبّر بوقت، لنزاهته عن الوقت، وسابقيته على الإلهية والفناء والبقاء في شأن الخلق الجديد، المشار إليه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

فالمريد الصادق محتجب في الوقت من أجل المؤقِّت، بالقيام فيه بحق العبودية للحق على الحضور، وهو في عين ذلك الوقت ملاحظ لنعت الجمال واللطف، ولنعت الجلال والقهر على السواء، فإما كونه ملاحظاً لنعت الجمال واللطف، فهو من كونه

مخصصاً في عين ذلك الزمن الفرد بالوجود، الذي اقتضى الحق منه القيام بالعبودية فيه، التي أوجده لها، ويشهد ذلك من لطف الحق به، ومراعاته إياه، وحسن توجهه إليه، في عين ذلك الزمن الفرد، وأما ملاحظته لنعت الجلال في عين ذلك الوقت الدقيق، فهو من حيث ملاحظته بسلب وجوده، العائد لله في عين ذلك الوقت بالعبودية، فإنّ وجود الكائنات كلها، إنما هو ثوب معار عليها بتخصيص من الحق، ينزعه مالكه إذا شاء بأسرع وقت، فلهذا قلنا لك: إنّ وقت المريد الصادق برزخ بين الجلال والجمال، فهو لا يشهد في الزمن الفرد العالم فيه لله بالعبودية، إلاّ مسألة الجواز بين وجوده وعدمه في عين ذلك الوقت وإلى ذلك الإشارة بقولهم: «الصوفي ابن وقته».

فهو وإن كان مخصصاً في عين ذلك الوقت بالوجود العالم بالعبودية، فهو لا يحكم على الحق باستمداد الوجود إلى ما فوق ذلك الوقت، الذي هو فيه بالوجود، وإن شاء سلب عنه الوجود في عين ذلك الزمن، فالمريد عميٌّ عن غير ذلك الوقت الدقيق في التحقيق، فيقوم لله في عين ذلك الوقت الدقيق، بعبودية مودّع على حسب ما يعطيه تحققه في مقام الإشارة، قال عليه السلام: «**إذا صليت، صلِّ صلاة مودع**»[١].

وهو الذي لا يرى له وجوداً أبداً على عين وقته الدقيق، الذي هو فيه بالتحقيق، فإذا كانت عبودية المريد عبودية مودّع في مقام الإحسان، الذي أشار إليه بقوله عليه السلام: «**اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[٢].

وهو مقام المراقبة والحضور، بالمحبة والأدب، حصل الأرب، ونجح القصد، وانطوى رسم الوقت في عين الحق، وهذا هو الصوفي، الذي هو ابن وقته. وقد ورد في الحديث حين سئل: من أسعد الناس يا رسول الله؟ قال: «**أسعد الناس من لم ينسَ المقابر والبلى، وعدّ نفسه من الموتى، ولم يحسب من أيامه غداً**»[٣].

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه، باب الحكمة، حديث رقم (٤١٧١) [ج٢ ص١٣٩٦] وأحمد في المسند، حديث أبي أيوب الأنصاري، حديث رقم (٢٣٥٤٥) [ج٥ ص٤١٢] ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب سؤال جبريل النبي ﷺ...، حديث رقم (٥٠) [ج١ ص٢٧]. ومسلم في صحيحه، باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان، حديث رقم (٨) [ج١ ص٣٦]. ورواه غيرهما.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ فيما لدي من مصادر ومراجع إنما ورد بلفظ: «**لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع**» سنن الترمذي، حديث رقم ٢٢٠٩ [ج٤ ص٤٩٣] وروى الحديث غير الترمذي.

وهو عين ما ذكرناه؛ فإن قوله ﷺ: «**ولم يحسب من أيامه غداً**» بقيّ أوقاته الدقيقة الفردية، التي له عند الحضور في الحقيقة، فإنّ من عدّ نفسه في عين كل وقت دقيق من الموتى، فهو ملاحظ عدمه في الزمن الفرد، ملحوظ من باب نعت الجلال، وإنما ذكر ﷺ الأيام؛ لكونه مشرّعاً متكلّماً عن العامة، فالكلام الجامع الذي يعطيهم مشربه من حيث عمومه، ويعطي ذا الحاجة مشربه من حيث خصوصه.

وهذا مطّرد في كلام الله، وفي كلام رسوله؛ فإنّ الحاجة لا تقع عندهم إلاّ أيام الرب، التي هي الشهور الإلهية في متعلقاتها؛ لكونهم طالعوا سر الألوهية في المخلوقات، وفرض فعل القدرة وانفعالها في الزمن الفرد، فلم يقع عندهم من العبارة المحمدية والأمر المطابق للمعنى الإلهي.

وأما العامة، فأخذوا اللفظ من حيث عمومه، وساغ لهم مشربه من هذه الحيثية، لتوسع الرحمة المنزلة إليهم، المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبيَاء: ١٠٧]. فاعلم هذا أيها الأخ الموفق السعيد، واحفظ الوقت المشار إليه.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥]، فإنّ السر كله في حفظ الوقت، والقيام بحكمه ومرسومه، فافهم هذه النكتة الصغيرة، فإنّها جليلة القدر، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، والحمد لله وحده وصلّى الله على سيدنا (محمد) وعلى آله وصحبه بعده، وعلى أتباعه وجنده وسلّم.

رسالة المعلوم
من عقائد أهل الرسوم

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد
ابن العربي الحاتمي
المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الشاهد:

إنه اجتمع أربعة نفر من العلماء، اجتمعوا، في (قبة أرين) تحت خط الاستواء، في وسط الأرض بأرض الهند، فالواحد مغربي، والثاني مشرقي، والثالث يماني، والرابع شامي، فتجاولوا، في العلوم، وفي الفرق بين الأسماء والرسوم. فقال كل واحد لصاحبه: لا خير في علم لا يعطي سعادة الأبد، ولا يقدس صاحبه عن تأثير الأمد، فلنبحث في هذه العلوم التي بين أيدينا عن العلم، الذي هو أعز ما يطلب، وأفضل ما يوهب ويكتسب، وأسنى ما يحفظ، ويدخر، وأعظم ما به يفتخر. فقال المغربي:

عندي من هذا العلم، العلم القائم الحامل، وقال المشرقي: ـ عندي من هذا العلم، العلم بالحامل المحمول اللازم، وقال الشامي: ـ عندي من هذا العلم، علم الإبداع والتركيب، وقال اليماني: ـ عندي من هذا العلم، علم التخليص والتركيب، فقال المغربي: ليُظهر كلٌّ منا ما وعاه، وليكشف حقيقة ما ادعاه.

الفصل الأول
في معرفة العلم الحامل القائم بلسان المغربي

قال الإمام المغربي: ـ لي التقدّم من أجل مرتبة علمي، فالحكم في الأوليات حكمي. فقال أصحابه: ـ تكلّم وأوجز وكن البليغ المعجز.

فقال: ـ اعلموا أنّه ما لم يكن ثم كان، واعتدلت في حقه الأزمان، ثم قال: فالمكون يلزمه في الآن ثم قال: كل ما لا يستغني عن أمر ما، فحكمه حكم ذلك الأمر، ولكن إذا كان من عالم الخلق والأمر، فليصرف الطالب النظر إليه، وليعول الباحث عليه. ثم قال: من كان الوجود يلزمه، فإنه يستحيل عدمه، والكائن ولم يكن، يستحيل قدمه، ولو لم يستحل عليه العدم؛ لصحة المقابل في القدم، فإن كان المقابل لم يكن، فالعجز في المقابل مستكن، وإن كان، فيستحيل على هذا الآخر الحديث الصحيح: «**كان الله ولا شيء معه**»[1]، كان ومحال أن يزول بذاته لصحة الشرط وأحكام الربط. ثم قال: وكل ما ظهر عينه ولم يوجب حكماً، فكونه ظاهراً محال، فإنّه لا يفيد علماً. ثم قال: ومن المحال تعمير المواطن؛ لأن رحلته في الزمان الثاني، ومن زمان وجوده لنفسه، وليس بقاطن، ولو جاز أن ينتقل، لقام بنفسه، واستغنى عن المحل، ولا يعدمه ضد لاتصافه بالفقد، ولا الفاعل فإنّ قولك فعل لا شيء، لا يقول به عاقل. ثم قال: من توقف وجوده على فناء شيء فلا وجود له، حتى يفنى، فإن وجد، فقد فني ذلك الشيء المتوقف عليه، وحصل المعنى. مَن تقدمه شيء فقد انحصر دونه وتقيد، ولزمه هذا الوصف، ولو تأيّد، فقد ثبت الأين بلا مَين ثم قال: ولو كان حكم المسند إليه حكم المسند، لما تناهى العدد، ولا صحّ وجود من وجِد. ثم قال: ولو كان ما أثبتناه يخلي ويملي، لكان يبلى ولا يُبلى. ثم قال: ولو كان يقبل التركيب لتحلل، والتأليف لاضمحل. وإذا وقع التماثل، سقط التفاضل. ثم قال: ولو كان يستدعي وجود سواه ليقوم به، لم يكن ذلك السوى مستنداً إليه، وقد صحّ استناده، فباطل أن يتوقف عليه وجوده، وقد قيّده إيجاده. ثم قال: وصف الوصف محال، فلا سبيل إلى هذا العقد بحال. ثم قال: الكُرة وإن

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

كانت فانية، فليس لها ناحية، إذا كانت الجهات إليه، فحكمها عليه، وأنا منها، خارج عنها، وقد كان ولا أنا فَفِيمَ التشعبث والعنا؟.

ثم قال: كل من استوطن موطناً، جازت رحلته، وثبتت نقلته، من حاذى بذاته شيئاً، فإنه يحده التثليث ويقدره، هذا يناقض ما كان العقل أولاً يقرره.

ثم قال: لو كان لا يوجد شيء إلاّ عن مستقلين اتفاقاً واختلافاً، لما رأينا في الوجود افتراقاً وائتلافاً، والمقدر حكمه حكم الواقع، فإذاً التقدير هنا للمنازع ليس بنافع.

ثم قال: إذا ثبت الشيء هنا في عينه، جاز أن يراه العين بعينه المقيدة بوجهه وجفنه، وما ثم علّة توجب الرؤية في مذهب أكثر الأشعرية، إلاّ الوجود بالبينة وغير البينة، ولو كانت الرؤية تؤثر في المرئي لأحلناها، فقد بانت المطالب بأدلتها كما ذكرناها.

ثم صلّى وسلّم بعدما حمد، وقعد، فشكره الحاضرون على إيجازه في العبارة واستيفائه المعاني في دقيق الإشارة.

الفصل الثاني
في معرفة الحامل المحمول اللازم بلسان المشرقي

قال المشرقي: تكوين الشيء من الشيء مثل، وتكوينه لا من شيء اقتدار الأزل، من لم يمتنع عنك فقدرتك نافذة فيه ولم تزل.

ثم قال: إيجاد أحكام في محكم يثبت بحكمه وجود علم المحكم، ثم قال: والحياة والإرادة في العالم شرط لازم ووصف قائم.

ثم قال: الشيء إذا قبل التقدّم والمناص، فلا بد من مخصص لوقوع الاختصاص، وهو عين الإرادة، في حكم العقل والعادة. ثم قال: ولو أراد المريد بما لم يكن، لكان ما لم يكن مراداً بما لم يكن.

ثم قال: من المحال أن توجب المعاني أحكامها، إلاّ لمن قامت به، فانتبه.

ثم قال: مَن تحدّث في نفسه بما مضى، فذلك الحديث ليس بإرادة، وبه حكم الدليل على الكلام وقضى.

ثم قال: القديم لا يقبل الطارىء، فلا تمار، ولو أحدث في نفسه ما ليس منها، لكان بعدم تلك الصفة ناقصاً عنها، ومن ثبت له الكمال بالعقل والنص، فلا يُنسب إلى النقص.

ثم قال: لو لم يبصرك ويسمعك، لجهل كثيراً منك، ونسبة الجهل إليه محال، ولا سبيل إلى نفي هاتين الصفتين بحال، ومن ارتكب القول بنفيهما، ارتكب مخوفاً لما يؤدي إلى كونه مؤوفاً ثم قال: من ضرورة الحكم أن يوجبه معنى، كما من ضرورة المعنى الذي لا يقوم بنفسه استدعاء معنى. فيا أيها المجادل كم ذا تتعنّى؟ ما ذاك إلاّ لخوفك من العدد، وهذا لا يبطل حقيقة الواحد والأحد، ولو علمت أنّ العدد هو الأحد لما شرعت في منازعة أحد، فهذا قد ثبت عن الحامل المحمول العارض واللازم في مقاسم هذه المعالم، ثم قعد.

الفصل الثالث
في معرفة الإبداع والتركيب باللسان الشامي

قال: إذا تماثلت المحدثات، وكان تعلّق القدرة بها لمجرّد الذات، فبأي دليل يخرج عنها بعض الممكنات. ثم قال: لما كانت الإرادة تتعلّق بمرادها حقيقة، ولم تكن القدرة الحادثة مثلها لاختلال في الطريقة، فذلك هو الكسب، فكسب للعبد وقدرة للرب، وتبيين ذلك بالحركة الاختيارية والرعدة الاضطرارية. ثم قال: القدرة من شروطها الإيجاد إذا ساعدها العلم والإرادة، فإيّاك والعادة! كل ما أدّى إلى نقص الألوهية، فهو مردود، ومن جعل في الوجود في الحادثات ما ليس بمراد الله، فهو من المعرفة مطرود وباب التوحيد بوجهه مسدود، وقد يريد الأمر ولا يراد المأمور به، وهو الصحيح، وهذا غاية التصريح.

ثم قل: مَن أوجب على الله أمراً، فقد أوجب عليه حد الواجب، وذلك على الله محال في صحيح المذاهب. ومن قال بالوجوب لسبق العلم، فقد خرج عن الحكم المعروف عند العلماء في الواجب، وهو صحيح الحكم.

ثم قال: تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، وقد عاينّا ذلك شهادة ونقلاً.

ثم قال: من لم يخرج شيء على الحقيقة من ملكه، فلا يتصف بالجور والظلم فما يجزيه من حكمه في ملكه.

ثم قال: من هو مختار فلا يجب عليه رعاية الأصلح، وقد ثبت ذلك وصحَّ التقبيح والتحسين بالشرع والغرض.

ومن قال: إنّ الحسن والقبح لذاتهما فهو صاحب جهل عرضي.

ثم قال: إذا كان وجوب معرفة الله تعالى وغير ذلك، من شرطه ارتباط الضرر بتركه في المستقبل، فلا يصح الوجوب بالعقل؛ لأنه يعقل. ثم قال: إذا كان العقل يستقل بنفسه في أمر، وفي أمر لا يستقل، فلا بد له من موصل إليه مستقل، فلم تستحل بعثة الرسل، وأنهم أعلم الخلق بالغايات والسبل. ثم قال: لو جاز أن يجيء الكاذب بما جاء به الصادق، لانقلبت الحقائق، ولتبدلت القدرة بالعجز، ولاستند الكذب إلى حضرة العز، وهذا كله محال، وغاية الضلال، بما يثبت الواحد، يثبت الثاني، في جميع الوجوه والمعاني.

الفصل الرابع
في معرفة التلخيص والترتيب باللسان اليمني

ثم قال اليمني: مَن أفسد شيئاً بعدما أنشأه، فجائز أن يعيده كما بدأه. ثم قال: إذا قامت الصفة الروحانية بجزء ما من الإنسان، فقد صحّ عليه اسم الحيوان، النائم يرى ما لا يرى اليقظان، وهو إلى جانبه لاختلاف مذاهبه، مَن قامت به الحياة، حاز اللذة والألم، فما لك لا تلتزم؟ ثم قال: البدل من الشيء يقوم مقامه، ويوجب أحكامه. ثم قال: مَن قدر على إمساك الطير في الهواء ـ وهي أجسام ـ قدر على جميع الأجرام.

ثم قال: قد كملت النشأة، واجتمعت أطراف الدائرة قبل حلول الدائرة. ثم قال: إقامة الدين هو المطلوب ولا يصح إلاّ بالإمام، فاتخاذ الإمام واجب في كل زمان. ثم قال: إذا كملت الشرائط، صحّ العقد، ولزم العالم الوفاء بالعهد، وهي: الذكورية، والبلوغ، والعقل، والعلم، والورع، والحرية، والنجدة، والكفاية، والنسب، وسلامة جانب السمع والبصر، وبهذا قال بعض أهل العلم والنظر. ثم قال: إذا تعارض إمامان، فالعقد للأكثر اتباعه، وإذا تعذّر خلع إمام ناقص لتحقق وقوع فساد شامل، فإبقاء العقد واجب، ولا يجوز إرداعه، قال الشاهد: فوفى كل واحد من الأربعة ما اشترط، وانتظم الوجود وارتبط. والله الموفق لما يريده ويرضاه، وصلى الله على سيدنا محمد، الشافع في الأمة ونبي الرحمة، وسلّم تسليماً.

رسالة الاتحاد الكوني
في حضرة الإشهاد العيني

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد
ابن العربي الحاتمي
المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، يقول عبد الله الفقير إلى الله، محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي، عفا الله عنه، وختم له بالحسنى، هذا كتاب كريم، وخطاب جسيم، كتبت به لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد:

[المنسرح]

من انتقاصي إلى كمالي ... من انحرافي إلى اعتدالي
ومن سناي إلى جمالي ... ومن سنائي إلى جلالي
ومن شتاتي إلى اجتماعي ... فمن صدودي إلى وصالي
ومن خسيسي إلى نفيسي ... فمن حجار إلى اللآلي
ومن شروقي إلى غروبي ... فمن نهاري إلى الليالي
ومن ضيائي إلى ظلامي ... فمن هداي إلى ضلالي
ومن حضيضي إلى استوائي ... فمن زجاج إلى العوالي
ومن دخولي إلى خروجي ... فمن محاقي إلى هلالي
ومن طِلابي إلى نفوري ... فمن جوادي إلى غزالي
ومن نسيمي إلى غصوني ... ومن غصوني إلى ظلالي
ومن ظلالي إلى نعيمي ... ومن نعيمي إلى محالي
ومن محالي إلى مثالي ... ومن مثالي إلى محالي
ومن محالي إلى صحيحي ... ومن صحيحي إلى اعتلالي
فما أنا في الوجود غيري ... فما أعادي وما أوالي

وما أنادي على فؤادي ... من أجل رامٍ ماضي النصالِ
فإن رامي النصالِ جفني ... إلى فؤادي بلا نبالِ
فما أحامي على مقامي ... وما أمالي فما أبالي
فإنني ما عشقت غيري ... فعين فصلي هو اتصالي
فلا تلمني على هواي ... فلست عن هاجري بسالي
فظاهري عاشق وسري ... معشوق قلبي على التوالي

وإني لا أزال في هذا الكتاب أُخاطبني عني، وأرجع فيها إليّ مني، فمن سماي إلى أرضي، ومن سنّتي إلى فرضي، ومن إبرامي إلى نقضي، ومن طولي إلى عرضي، ولهذا أقمت القسطاس، وراقبت الأنفاس:

[الهزج]

فمن حسي إلى عقلي ... ومن عقلي إلى حسي
بعلمين غريبين ... بلا شك ولا لبسِ
ومن نفسي إلى روحي ... ومن روحي إلى نفسي
بتحليل وتركيب ... كمثل الميّت في الرمسِ
ومن حدسي إلى علمي ... ومن علمي إلى حدسي
فنور العلم ممدود ... ونور الحدس ما يمسي
ومن قدسي إلى رجسي ... ومن رجسي إلى قدسي
فقدسي كان في وقتي ... ورجسي كان في أمسي
ومن إنسي إلى جني ... ومن جني إلى إنسي
فجني يبتغي همّي ... وإنسي يبتغي أُنسي
ومن حبسي إلى سعتي ... ومن سعتي إلى حبسي
لنكر قام في نفسي ... على عقلي وبالعكسِ
ومن أيسي إلى ليسي ... ومن ليسي إلى أيس
يُسعد فيه تأليف ... كما في شته نحسي
ومن جنسي إلى ضدي ... ومن ضدي إلى جنسي
فلولا (باقل) ما لا ... ح نور الفضل في (قَسُ)

ومن شمسي إلى بدري ... ومن بدري إلى شمسي
لإظهار الخفايا في ... بطون نواشىء دبسِ
ومن فرس إلى عرب ... ومن عرب إلى فرسِ
لشرح قوام أسرار ... ورمز حقائق نكسِ
ومن أُسي إلى فرعي ... ومن فرعي إلى أُسي
لعيش دُسَّ في موتٍ ... بحسٍّ أو بلا حسِ
فلا تهتم يا نفسي ... بقول الحاسد النكسِ
وقول الجاهل المغرور ... يا ريحانة الأنسِ
فكم من جاهلٍ قد قال ... في أرواحنا الخرسِ
لدى تنزيل تنزيلي ... بروح النفثِ والحسِ
كأُنس فيه شيطانٌ ... يُخبّطه من المسِ
فإنّ الناس ما زالوا ... من التحقيق في لبسِ
فسر الله موجودٌ ... مبين الجهر والهمسِ
وجود الحق عين الخلق ... قبل الروح والنفسِ

وسميت هذه الرسالة بـ(الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني، بمحضر الشجرة الإنسانية والطيور الأربعة الروحانية)، خاطبت بها أبا الفوارس (صخر بن سنان)، مالك أزمّة الجود والبيان، ولكل أهل العرفان. وهذه أول الرسالة، وبالله أستعين، فهو المؤيد سبحانه وتعالى والمعين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على الرؤوف الرحيم، إلى الثالث والثاني، ورب المثالث والمثاني، والمشار إليه في المثاني، القاصر الفاني، والسائر الثاني، الناكص لظلّه، والناكس لذله، الجواد الذي لا يقبل جوده، والموجود التام الذي جهل وجوده، المنبعث من الثنتين، والمبعوث بالقوتين، معتمد الأركان وجه ومعتد الإمكان، ومستند المكان، رقيقة الآن، وحقيقة الزمان، ومنتهى الأمان، ومستوى الرحمٰن، ودقيقة المان، وسلطان الإنس والجان، جان بن جان، الإنسان في الإنسان، الواهب المحسان، أبو الفوارس صخر بن سنان، مالك أزمّة الجود والبيان، استوهب الله له من المواهب القدسية أسهلها وأحلاها، ومن المراتب المؤسسة أكملها وأعلاها، سلامٌ طيبٌ أثيرٌ مبارك يخص مقامكم الرفيع أتمه وأزكاه، ورحمة الله تعالى وبركاته ورضاه. أما بعد فإني أحمد الله إليّ، الذي سوّاني وعدلني، وفي صورةٍ أحسن تقويم ركبني، ثم عرّفني بي، وأظهرني لي، فعشقتُني، فلا أحب سواي، وهُيّمت فيَّ بين بعدي وقربي، فما أخاطب إلاّ إياي، وقلت في شأني على لساني، مما أعاني من المعاني أني:

[المنسرح]

فـلـو رآنـي إذا أتـانـي ... سـراً وجـهـراً أنـا بـذاتـي
وقـلـتُ أنـعـمْ فـقـال طـوعـاً ... وكـان مـنـي لـيَّ الـتـفـاتـي
فُـنـيـتُ عـنـي بـعـيـن أنـي ... وعـن عـداتـي وعـن ثـقـاتـي
وعـن وعـيـدي وعـن مـزيـدي ... وعـن نـعـيـمـي وعـن عـداتـي
وعـن شـهـيـدي وعـن شـهـودي ... وكـنـت لـي بـي نـعـم الـمـؤاتـي
فـيـا أنـا رُدّنـي بـعـيـنـي ... إلـيَّ حـتـى أرى ثـبـاتـي
فـرَدنـي بـي إلـيّ مـنـي ... فـلـم يـقـم بـي سـوى صـفـاتـي
فـصـال كـفـي عـلـى عـصـايَ ... وصـال عـودي عـلـى صـفـاتـي
فـسـال نـهـر الـبـروج مـنـهـا ... عـشـراً وثـنـتـيـن مُـعـلَّـمـاتِ

فقلت لي يا أنا فزدني ... مني ثباتاً على ثباتي
هذي علوم الحياة لاحت ... على وجودي من النباتِ
فأين مسرى اللطيف مني ... ما أودع الله في الذواتِ
فزدتني ما طلبت مني ... فدام شوقي إلى مماتي
فصرت أشكو الغرام مني ... إليّ كيما تبدو سماتي
إلى جفوني من عين كوني ... فزاد جمعي على شتاتي
وصلتُ ذاتي توجداً بذاتي ... من أجل ذاتي مدى حياتي
ولم أعرّج على جفائي ... وطول هجري وسيئاتي
أنا حبيبي أنا محبي ... أنا فتايَ أنا فتاتي

أما بعد الكتاب إليّ من المدينة الممكنة بالاستواء، والمعينة في المستوى، والمحصنة بالقوى، طور سينين، والبلد الأمين، المسوّى من الماء والطين، والجامع بين أحسن تقويم، وأسفل سافلين، معرّفاً إيّاي بما طرأ بيني وبيني، وما شاهده كوني من كوني؛ وذلك أنّه لما رُفعت لنا أعلام المشاهدة، ووضعت عنا الأم المجاهدة، وصار التجاري بحكم الموافقة والمساعدة، امتطوت براق الهمة، وخرجت عن كون هذه الغمة، فوقعت في بحر الهيولى، فعاينتُ الآخرة والأولى، فقلت: تباً لمنكري الجنان، والدار الحيوان، وملاعبة الولدان، ومعانقة الحور الحسان، ولصوق الأبدان بالأبدان، من عاين الحافظ أثبت اللافظ، فإنّ خط الاعتدال غير ميّال، وعرفت هناك أنّ منكري حشر الأجساد ما برحوا من الميلين، وما انفكوا من ربقة الأربعة والاثنين، ثم صحتُ واحرباه! واحر قلباه! من الكيان هربت، وها أنا فيه، فأين ما طلبت؟ فسمعت الخطاب مني، لا داخلاً فيّ ولا خارجاً عني، وهو يخبرني أنّي على المدرجة، فكيف تطلب الدرجة؟ أين أنت والاستواءات؟ أين أنت والاتكاءات؟ أين أنت والرفارف العُلى؟ أين أنت والأفق الأعلى؟ أين أنت وحجب البهاء؟ أين أنت والستر الأزهى؟ أين أنت والعمى؟ أين أنت وحجاب العزّة الأحمى؟ أين أنت والهويات المطلقة؟ أين أنت والأنيات المحققة؟ أين أنت وحضرة الإشارات؟ أين أنت والمحادثات؟ أين أنت والمسامرات؟ أين أنت والشجرة العلى؟ أين أنت والفروع الدنى؟ أين أنت والغريبة العنقاء؟ أين أنت والمطوقة الورقاء؟ أين أنت والغراب الحالك؟ أين أنت والعقاب المالك؟ يا محجوب كيف تسأل بالأين عن العين؟ وأنت مقام لا يحتمل المين؟ فقلت أيها الزاجر! لقد أكملت، أما علمت أنك من مقامك

تكلّمت؟ أنت في حضرة العين، معرّى عن الآن والأين، وأنا في هذه اللجة العمياء، والدلجة السوداء، والداهية الدهياء، معدن المين والريب، ومحل النقص والعيب، وهل يصيح واحرباه! الا أسير الكم وحبيس الحكم؟ فإن أنت أخرجتني من بين تلاطم هذه الأمواج، وأرحتني من معاناة هذا الليل الأليلي الداج، فإني لا أفوه بطرف، ولا أعرّج على حرف، فجذبني جذبة عزيز مقتدر، وقال: إنك مغلوب فانتصر، فقلت: أنتصر بيدك اليمنى، من كلتا يديك يمين، فإنّه القوي الأمين، والوفي الذي لا يمين فقال: كيف يهجوني من يرجوني؟ فقلت: كما يمدحك من يمنحك؟ فلما جذبني، رأيتني في غير الصورة التي فيها كنت، وقد ثبتُّ فيها وتمكّنت، فقلت: يا أنا! فقال أنا: مرحباً فقلت: لا مرحباً ولا أهلاً، ولا سعة ولا سهلاً! فقال: يا قرّة العين! ما رأيك؟ ويا أسير الكون! ما أصابك؟ فقلت: كم ذات تحجبني عني؟ فاكشفني لي حتى أعرفني، هذا الوحي ممدود، ولوائي معقود، وعلمي محدود، ومقامي محمود، وسري مشهود، ولُبي موجود، ومطلوبي مفقود، وأنا في عالمي معبود، أُدعى كلمة الوجود، فلو فُنيتْ هذه الأعيان، وتلاشت هذه الأكوان، وغُيّبتْ عن الاستواء الرحماني والاسم الرباني، أمكنني أن أُسر باللمحة، ولا أتضرّر بالمنحة، فقال: قد فُنيت الأقلام، وذهبت الأعلام، وراحت الأسماء، واحتجب الاستواء، ورفعت الألواح، وفقدت الألباب والأرواح، ولكن لا بد لك من ظلمة الجنة الدهماء، ودائرة الماء، والقلم الأعلى، والقدم الأولى، والنون المكنون، واليمين المصون، فعندما سمعت أنّ أثراً من الكون أمامي، خفت أن يقطعني عن إلمامي، فانتهضتُ من تلك الظلمة المدلهمة، وتركت بها بُراق الهمة، ورُفعت على أسرة اللطائف ومتكئات الرفارف إلى أن وصلنا مقام الابتهاج، أتمايل فيه تمايل السراج، فقلت: ما لي وحالة السماع؟ فقيل: حركك حسن الإيقاع، فقلت: ما أحسنت به! فقيل لي: انتبه! فإنّه بك لا أنت به، فقلت: الحقيقة في غنى عن إيقاع الغناء، ومطلبها الفناء في الفناء، فحجب عن عيني عينها، وحال بيني وبينها، ثم قال لي: أين أنت من العالم ومني؟.

قلت: بين التعني والتمني، مطلبي في العماء، وأنا في الماء، وروحي في السماء، وعرشي في الهباء، وأهلي في سباء، وملكي في الاستواء، وحكمي في قدمي السواء، وفَلَكي في الفُلك، وحجابي في المُلك، وتثليثي في الهيولى، ومحنتي في الأولى، وبدايتي في الحافرة وغايتي في الآخرة، وحلتي في زحل، ومناجاتي في المشتري الأكمل، وخلافتي الإنسانية في المريخ الأحمر، وقلبي في السيد الإبراهيم

الأكبر، وحُسني في زهرة الأحكام، وإمضائي في عطارد الأفهام، وخلافتي الإلهية في البدر الأرفع، وهيكلي في العنصر المربع.

قال: هذا حظك من كوني، فأين حظك من عيني؟.

فقلت: ـ يا أيها المشير! المناسبة تكون بالنقيض وبالنظير، والنظير الملازم يكون بالذاتي واللازم.

فقال المشير: أريد مناسبة النظير فقلت في رسمي رسمك، وفي نعتي نعتك، والإجمال أحسن من التفصيل، في هذا القبيل من أجل أبناء السبيل.

فقال: صدقت! فأين مناسبة النقيض، بحكم الحقيقة، لا بحكم التعريض؟.

قلت: في عدمي وجودك، وفي بخلي جودك، وفي كلامك خرسي، وفي قولك جرسي، وفي استحالتي قَدُمك، وفي بدايتي قِدمُك.

قال: علمتُ أنّك علمتَ، وبه ما حكمت.

ثم كَشَف لي عن شجرة البستان الكلية، الموصوفة بالمثلية، فنظرت إلى شجرة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، وثمرها بين إله الاستواء، وبين أوراقها وأغصانها الغراب والغربية العنقاء، وفي ذرى أفنانها العقاب والمطوقة الورقاء، فسلمت على الشجرة، فحُييتُ بأحسن من ذلك، وقالت: اسمع أيها السالك المالك خطبة الشجرة الكلية الموصوفة بالمثلية ثم قالت: أنا الشجرة المثلية، الجامعة الكلية، ذات الأصول الراسخة، والفروع الشامخة، غرستني يد الأحد، في بستان الأبد، مستورة عن تصاريف الأمد، فأنا ذات روح وجسد، وثمري مقطوف من دون يد، حملت من ثمر العلوم والمعارف، ما لا تستقل بحمله العقول السليمة وأسرار اللطائف، وَرَقي فرش مرفوعة، وفاكهتي غير مقطوعة ولا ممنوعة، ووسطي هو المقصود، وفروعي في هبوط وصعود، فالهابطة للتدلي والإفادة، والصاعدة للتدني والاستفادة، نشأتي كالفلك في الاستدارة، وفروعي منازل الأرواح الطيّارة، وزهري كالكواكب السيّارة، تتكوّن المعادن عن سريانها في أبدانها، أنا شجرة النور والكلام، وقرّة عين موسى عليه السلام، لي من الجهات اليمين الأنفس، ومن الأمكنة الوادي المقدس، ولي من الزمان الآن، ومن المساكن خط الاستواء واعتدال الأركان، فلي الدوام والبقاء، والسعادة دون الشقاء، جني جنتي دان، وفنني يُمسُّ كأنّه نشوان، له لطافة وحنان، على جميع الحيوان، لم تزل أفناني للأرواح اللوحية كنادراً، وورقي لها عن تأثير الشعاعات اليوحيّة ساتراً، ظلي ممدود لأهل العناية، وجناحي منشور على أهل

الولاية، تهب عليّ الأرواح باختلاف تصاريفها، فتخرج أغصاني عن ترتيب تآليفها، فتسمع لذلك التداخل نغمات توله العقول العلوية، على سمو أوجها، وتجري بها على حسب ما رقم في درجها، فأنا موسيقار الحكمة، ومزيل الغموم بحسن إيقاع النغمة، فأنا النور الأزهر، ولي البساط الأخضر، والوجه المستدير الأنضر، أُيدتُ بالقوى، وشُرِّفتُ بالمستوى، وصرت كالهيولى، أقبل جميع الصور في الآخرة والأولى، لا أضيق عن حمل شيء، ولا أنفك عن نور وفيء، فنوري عليّ، وفيئي لمن استند إليّ، فأنا الظل الممدود، والطلح المنضود، والمعنى المقصود، وكلمة الوجود، وأشرف محدث موجود، وأنزه أرض عزيزة السلطان، مقدسة المكان، رفيعة المنار، ينبوع الأنوار، جوامع الكلم، معدن الأسرار والحكم، ونسخة الاسم الأعظم، ومَظهر السر المحكم.

[الوافر]

لـيَ الأرضُ الأريـضـةُ والـسـمـاءُ ... وفـي وسـطـي الـسـواءُ والاسـتـواءُ
لـي الـمـجـد الـمـؤثـل والـبـهـاء ... وسـر الـعـالـمـيـن والاعـتـلاءُ
إذا مـا أُمّـت الأفـكـار ذاتـي ... يـحـيـرهـا عـلـى الـبـعـد الـعـمـاءُ
فـمـا فـي الـكـون مـن يـدري وجـودي ... سـوى مـن لا يـقـيـده الـثـنـاءُ
لـه الـتـصـريـف والأحـكـام فـيـنـا ... هـو الـمـخـتـار يـفـعـل مـا يـشـاءُ

خطبة المطوقة الورقاء

ولما سَمِعت المطوقةُ كلام الشجرة الكلية، وما جاءت به من المعارف الإلهية، صدحت في روضة قدسها، معربة عن نفسها، قالت:

لما أراد الله إيجاد كوني، وإشهاد عيني، وأن يطوقني طوق البهاء، ويسكنني في سدرة المنتهى، نادى بعُقابه الآمن من عِقابه، وهو بفناء بابه، فأجابه مطيعاً، وقال: ناديتَ سميعاً فقال: إنّك في أرض غربة، وإن كنت مني في محل القربة، فإني لست من جنسك، فلا بد من استيحاش نفسك، وفيك قرّة عين، فأظهرها في العين، تأنس بمجاورتها، وتتنفّس بمحاورتها، فإنّ الأنس فيّ محال، وأنا شديد المحال، فقال العقاب: وكيف يظهر عني شيء ومقامي العجز؟ وما في قوتي سلطان ولا عز؟.

فقال له: الزم المناوحة، فسيظهر عينها عند المكافحة، وهذا هو الانتظام الثاني، والالتحام بالمثاني، فناوح الأمر، فظهرتُ، وناداني الحق، فبادرت، وما عرف

العقاب ما جرى به النهر، لشغله بالمهر، وكوني منه في الظهر، فعندما سمع إجابة الندا، قال: ما هذا الذي بدا؟ فسرف النظر إليّ فعشِقني، وهيَّمه ما به الحق من الجمال طوقني، فشكا العليل والأليل، ونادى بالحريق والغريق، وبَلبل بُلبل بلباله، وتعمَّل في إصلاح باله، ويأبى الخرق إلاّ اتساعاً، والعزاء إلاّ امتناعاً، وما أُبيح له لثمي، وشفاؤه في مضاجعتي ضمي، فرفع عنه حجاب الريب، ونودي من خلف سرادقات الغيب، ما لك تنظر في أعطافها، وتوقيع نغماتها؟ ولا تنظر في أوصافها، وبديع حكمتها؟ فدعاني إليه فلبيت، وأمرني بالقعود بين يديه فجثوت، فقال لي تهيامي في حسن مبانيك، أذهلني عن معرفة معانيك، وقد ورد الأمر أن تعرِّفيني بنفسك، وتُطلعي لي بارقة من سنا شمسك، فقلت: إنّ الله أوجدني منك عند التقابل، وأظهرني من ظهرك على التماثل، فأنا من قوتك صادرة، وبصورتك ظاهرة، وأودعني حقيقتين، ووهبني رقيقتين: حقيقة أُعرف بها، وحقيقة أكون ما شئته بسببها، ورقيقة مني إليك، تنزلني إذا اشتهيتك عليك، وبها حضرت بين يديك، ورقيقة مني إليه، تنزلني إذا دعاني عليه، فعندما سمع أنّ بيني وبينه رقيقة ممتدة، وهو قد تحقّق بحقائق المودة، نزل في تلك الرقيقة إليّ، حتى امتزجت ذاتي بذاته، وغابت صفاتي في صفاته، وغبنا في لذة الالتحام، وطبنا بحصول الانتظام، ووقع النكاح المعنوي، واجتمع الماءان، في الرحم الآن، وقَبِلَهُ الرَّحمُ بحكمة من حُرِمَ ومن رُحِم، وبُلَّ العاشقُ من دائه، وارتاح شوقاً إلى ندائه، فهو يتردد بين شوقين، ويغرب في غربين، ويشرق في شرقين، فعندما أُستُبل من ألمه، ونزح إلى معلمه، وجدت في ذاتي امتلاءً لم أكن أعرفه قبل ذلك، وانسدت المجاري له والمسالك، فحركت الرقيقة الإلهية، فأجابني، وقلت: يا إلهي! ما هذا الذي أصابني؟ فقال: تنفسي بذكري، لتظهر عنك كلمة أمري، فتنفست تنفس المثقل، فإذا بالعنقاء قد عمّرت المعقل، فاسألوا العنقاء عن شأنها فستخبركم بما أودع الحق فيها من لطائفه، ومنحها من عوارفه فقال لسان حالها بصدر مقالها:

[مجزوء الرمل]

أنـــا ورقـــاء الـــمـــثـــانـــي مـــسـكـــنـــي روض الـــمـــعـــانـــي
أنـــا عـــيـــن فـــي الـــعـــيـــانِ لـــيـــس لـــي غـــيـــر الـــمـــثـــانـــي
فـــيـــنـــاديـــنـــي يـــا ثـــانـــي وأنـــا لـــســـت بـــثـــانـــي
يـــنـــتـــهـــي إلـــى وجـــودي كـــل شـــيء فـــي الـــكـــيـــانِ

أنا أتلو من تسامت ذاته عن العيانِ
لي حُكمٌ مستفادٌ في الأقاصي والأداني
ليس لي مَثَلٌ سوى مَنْ شأنه يشبه شاني
فانتقد إن كنت تبغي ما أتى به لساني
من رقائق تدلت بحقائق حسانِ
لقلوب قد تولّت عن زخارف الجنانِ
طالبات مَنْ تعالى عن تصاريف الزمانِ
فهو الفرد المعلّى ما له في الحكم ثاني
وهو الذي اجتبائي وهو الذي اصطفاني
وأقامني عديلاً بين دِنٍ ودنانِ
فأقاصي كل قاصٍ وأداني كل داني
وأوالي كل والٍ وأعادي كل عاني
فإذا هُوِّيت سفلاً فبرَوح السريان
وذا صُعِّدت علواً فبتحليل البيانِ
فأنا أعطي المعاني وأنا أخلي المغاني

خطبة العقاب المالك

لما سمع العقاب ما ذكرته المطوقة، وما قررته من العلوم المحققة، قال: صدقتْ فيما ادعته وأظهرت لكم ما وَسِعته.

قلنا له: طر في جو بيانك، وأعرب لنا عن شانك، فاهتز سرير العقاب، وصفق بجناحيه وطاب، وقال:

[الكامل]

أنا العقابُ لي المقامُ الأرفعُ والحسنُ والنورُ البهيُّ الأسطعُ
أُمضي الأمور على مراتب حكمها في العدوة الدنيا وعزي أمنعُ
أنا فيضه السامي ونور وجوده وأنا الذي أدعو الوجود فيخضعُ
وأنا الذي ما زلت قبضةَ موجدي فالجود جودي والحقائق توضعُ
نحوي لتطلب ما لها في شربها مناف فأعطي من أشاء وأمنعُ

أدنو فيبهرني جمال وجوده أنأى فيدعوني البهاء الأروعُ
فإذا دنوتُ فحكمةٌ مقبولةٌ لكنْ لها قلب العلى يتصدّعُ
وإذا بعدت فأمرة مقسومة والنور من أرجائها يتشعشعُ
فأنا الأمير إذا بعدت فشقوتي في إمرتي وسعادتي إذ أنزعُ
فأسرُّ أوقاتي وأسعدها إذا عاينت أعيان الأهلة تطلعُ

ثم قال: لم أزل في مرتبة من مراتب الكون، وأنا معدوم العين، إلى أن سبقت العناية، وكانت بوجودي البداية، وذلك أنّه تجلّى بنفسه لنفسه، فامتدّ وجودي بشهودي، وقبلتُ السورة بالصورة، وكنتُ سريرةً بالسريرة، فاستوى عليَّ الاسم الجامع، وحفَّ بركائبه وزيراه: المعطي والمانع، وحاجباه، الضار والنافع، فلما تحقق الاستواء، وبان السواء، ودعتني الأسماء، بالأعز الأسمى، فعمر الفناء، وبرز البقاء والفناء، وتوالى القسط والفيض واستمر، وثبت البسط والقبض واستقر، وصح بالمَلَك المُلك، وظهر بالمالكة المُلك، ودار بالفَلك الفُلك وناداني نداء التعليم، بلسان التحكيم، أن انظر في ذاتك، بجامع لذاتك، فلما وقع مني النظر، وميّزت بين من يجب له التقدّم ممن يجب له النظر، وشرعت المذاهب، وقسمت الأنوار بين المكاسب والمواهب، وقلت لمن عاينت من الأرواح المهيمة: الزموا الحضرة المهيمة، وقلت لمن عاينتُ من الأرواح المسخَّرة: الزموا المقامات المسخرة، ثم قلت لمن عاينت من الأرواح المدبرة: الزموا الهياكل المدبرة، فراح كل صنف يطلب منزله، ليشاهد منزَلَه، وكنت قد عاينت من الأرواح المدبر: الزموا الهياكل المدبّرة، فراح كل صنف يطلب منزله، ليشاهد منزلَه، وكنت قد عاينت المطوقة الورقاء، وحملها الغريبة العنقاء، غير أني لتقسيم النازل، ذهلت عن المنازل، فأنا علم الكون، والمخبوء في أردية الصَوْن، افترى عليّ جماعة من العقلاء، وتعصّب لأخذي عصابة من الفضلاء، فنصبوا شرك أفكارهم لصدي، وأحالوا عليّ ما مددتهم به ليستخرجوا حدي، ولما كانت الهمم قد توفرت لتحصيلي في شركهم الفكري، وحصل فيها عقاب على صورتي من الموطن الوهمي، قالوا: هذا هو الحق المبين، ولو عرفوا أنّ الحق ما بان لهم ولا يبين، فإنّ المعرفة بي وبموجدي موقوفة على الوهب، مصروفة عن الكسب، فاستفزهم بشبهته الشيطان، وتخيّلوا أنهم قد حلُّوا بالرُبى، وما نزلوا إلاّ بالغيطان، واشتبه عليهم القِدَمَ بالقَدم، فحكموا عليّ بالقِدم، وأنّ وجودي لا عن

عدم، فتركتهم بشبهتهم لحماً على وضم، وهكذا ينبغي في من اهتضم الأمر الإلهي الوهبي أن يهتضم، فأنا بريء مما نسبوا، وكافر بما نصبوا، فإنّ الله جلّ ثناؤه في القِدم، وأنا إذ ذاك محكوم عليّ بالعدم، ثم أوجدني عن عدم لسابقة القدم، فظهر عيني، وأنار بعلمه كوني، وناط بي الفقر والعجز، وأماط عني الأزر والعز، فأنا الذليل الذي لا يُعز، والقوي الذي لم يزل يعجز.

خطبة الغريبة العنقاء

فلما فرغ العقاب من كلامه وأتى على بيان مقامه، قامت العنقاء تعرب عن وجودها، وتغرب بعزة حدودها فقالت:

أنا عنقاء مغرب، ما زال مسكني بالمغرب، بالمقام الوسيط، على سِيْف البحر المحيط، اكتنفني العجز من الجهتين، وما ظهر قط لوجودي عين، وقالت:

[الرجز]

فأنا الذي لا عين لي موجود ... وأنا الذي لا حكم لي مفقودْ
عنقاء مغرب قد تُعورف ذكرها ... عرفاً وباب وجودها مسدودْ
ما سيّر الرحمٰن ذكري باطلاً ... لكن لمعنى سره المقصودْ
هو أنني وهّابة أسرارَهم ... عرفانَها فصراطنا ممدودْ
والسالكون على مراتب نورهم ... فأجلّهم من نوره التجريدْ

فبي تكون الحدود، وعليَّ توقف الوجود، يُسمعُ بذكري ولا أُرى، وليس الحديث بي حديثاً يفترى، أنا الغريبة العنقاء، وأمي المطوقة، الورقاء، ووالدي العقاب المالك، وولدي الغراب الحالك، أنا عنصر النور والظلم، ومحل الأمانة والتهم، لا أقبل النور المطلق فإنه ضدي، ولا أعرف العلم فإني ما أعيد ولا أبدي، كل من أثنى عليَّ بعيد الفهم، مقهور تحت سلطان الوهم، ما لي عزة فاحتمي، وهياكل الكون الأعلى والأسفل إليّ تنتمي، أنا الحقيقة والأجمعة، لما عندي من السعة، فألبسُ لكل حال لبوسها، أما نعيمها وأما بؤسها، لا أعجز عن حمل صورة، وليس لي في السور المعلومة سورة، لكني وُهبتُ أن أهب العلوم ولست بعالمة، وأمنح الأحكام ولست بحاكمة، لا يظهر شيء لم أكن فيه، ولا يحصره طالب مدرك ولا يستوفيه، فبهذا القدر عَظُمتُ في أعين المحققين ولي جولان في مجالس المطرقين. فهذا قد أبنت عن حالي، وأظهرت صدقي في محالي.

فهرس المحتويات

تقديم ٣
ترجمة ابن عربي ٥
نسبه ٥
مولده ونشأته ٥
مؤلفاته وشيوخه ١٠
عقيدة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ١٨
اعتقاد أهل الاختصاص من أهل الله بين نظر وكشف ٢٢
مقدمة ٣٥
شجون المسجون وفنون المفتون ٤٧
تقديم ٤٩
الباب الأول: في العمل ٥٣
الباب الثاني: في العامل ٧٩
الباب الثالث: في المعمول ١١٢
تهذيب الأخلاق ١٢٩
تهذيب الأخلاق ١٣١
مقدمة ١٣٣
الأخلاق المذمومة ١٣٧
في الأخلاق المحمودة ١٣٨
في النفس الشهوانية ١٣٩
في النفس الغضبية ١٤٠
في النفس الناطقة ١٤٢
في أنواع الأخلاق وأقسامها ١٤٤
في طريق الارتياض بالأخلاق والتعمل لاعتيادها ١٥٦
في أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وطريقته التي بها يصل إلى التمام ١٦٣

كتاب مراتب علوم الوهب ١٧٣
المقدمة ١٧٥
رسالة اللمعة الموسومة بكشف الغطا عن إخوان الصفا ١٨٣
المقدمة ١٨٥
فصل ١٨٧
فصل ١٨٧
فصل ١٨٨
فصل ١٨٨
رسالة في أسرار الذات الإلهية ١٨٩
المقدمة ١٩١
كتاب نسخة الحق ١٩٧
المقدمة ١٩٩
رسالة كشف الستر لأهل السر ٢٠٩
المقدمة ٢١١
رسالة الوقت والآن ٢٢٣
المقدمة ٢٢٥
رسالة المعلوم من عقائد أهل الرسوم ٢٢٩
المقدمة ٢٣١
الفصل الأول: في معرفة العلم الحامل القائم بلسان المغربي ٢٣٣
الفصل الثاني: في معرفة الحامل المحمول اللازم بلسان المشرقي ٢٣٤
الفصل الثالث: في معرفة الإبداع والتركيب باللسان الشامي ٢٣٥
الفصل الرابع: في معرفة التلخيص والترتيب باللسان اليمني ٢٣٦
رسالة الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني ٢٣٧
المقدمة ٢٣٩
خطبة المطوقة الورقاء ٢٤٧
خطبة العقاب المالك ٢٤٩
خطبة الغريبة العنقاء ٢٥١
خطبة الغراب الحالك ٢٥٢
فهرس المحتويات ٢٥٥

الرسالة الوجودية

في معنى قوله صلى الله عليه وسلم:
«من عرف نفسه فقد عرف ربه»

ويليه

شجون المسجون وفنون المفتون

ويليه

تهذيب الأخلاق

ويليه

مراتب علوم الوهب

ويليه

رسالة اللمعة
الموسومة بـ كشف القناع عن إخوان الصفا

ويليه

رسالة في أسرار الذات الإلهية

ويليه

نسخة الحق

ويليه

رسالة كشف الستر لأهل السر

ويليه

رسالة الوقت والآن

ويليه

رسالة المعلوم من عقائد أهل الرسوم

ويليه

رسالة الاتحاد الكوني في حضرة الإشهاد العيني

منشورات
محمد علي بيضون ®
دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ (٩٦١٥+)
فاكس: ٨٠٤٨١٣ (٩٦١٥+)
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧
http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com

ISBN 2-7451-4593-2
9 782745 145932 90000
Designed & Printed By: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah